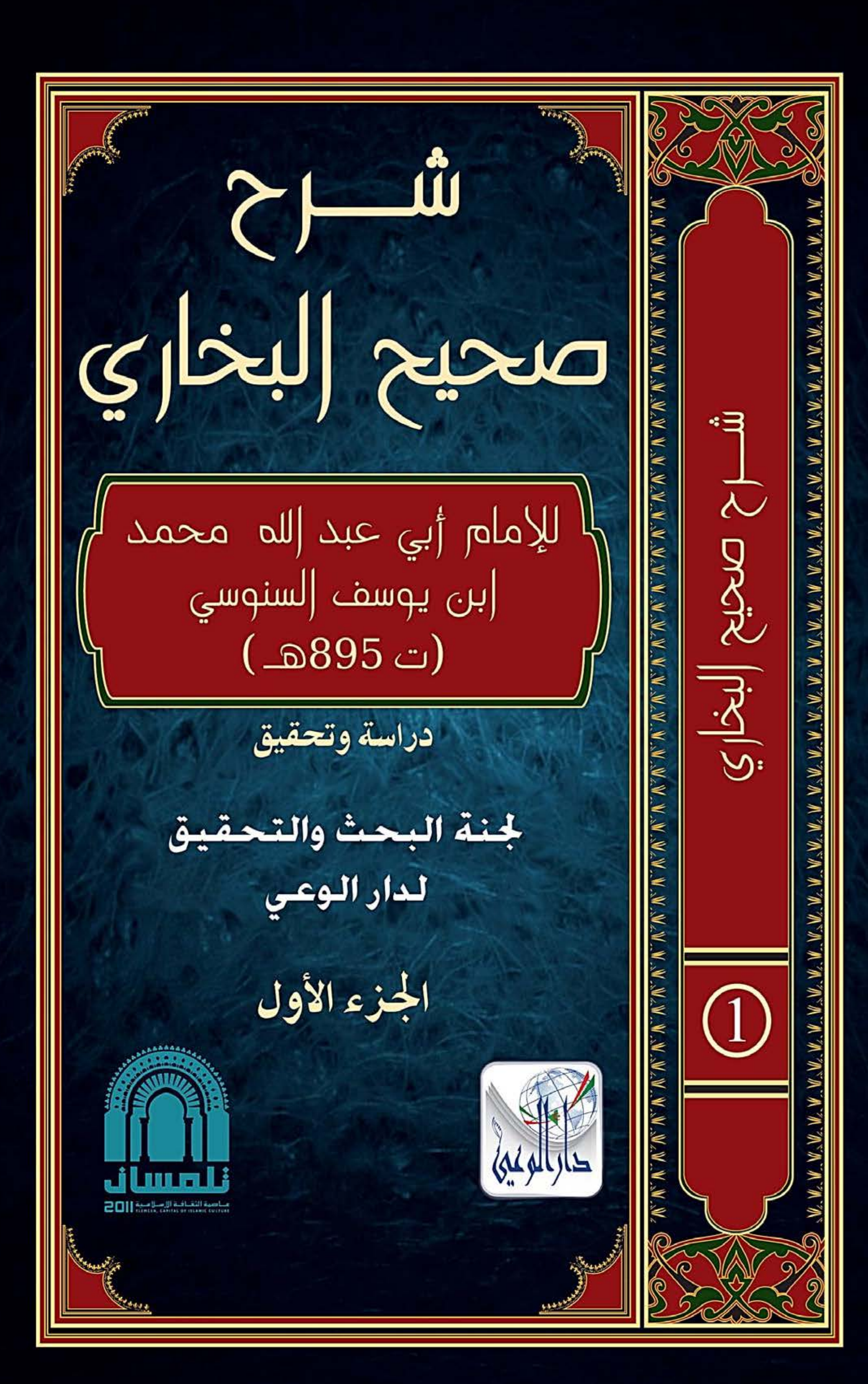

شرح
صحيح البخاري
للإمام أبي عبد الله محمد
ابن يوسف السنوسي
(ت 895هـ)
دراسة وتحقيق
لجنة البحث والتحقيق
لدار الوعي
الجزء الأول
تلمسان
2011
دار الوعي
شرح صحيح البخاري
1

شرح صحيح البخاري

للإمام أبي عبد الله محمد بن يوسف السنوسي (ت895هـ)

دراسة وتحقيق

لجنة البحث والتحقيق لدار الوعي

الجزء الأول

1333هـ ـ 2012م

الطبعة الأولى

عنوان الكتاب: شرح صحيح البخاري

تـأليف: الإمام أبو عبد الـلـه محمد بن يوسف السنوسي

الحجم: 15.5 ـ 23.5

رقـم الإيـداع القانـوني: 314 - 2012

ردمك: ISBN 978 - 9947 - 862 - 99 - 5

صدر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة

بمناسبة « تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية 2011»

دار الوعي

للنشر والتوزيع

حي محمد برانسي ـ قطعة 85

رويبة – الجزائر

الهاتف:021.8547.15

الفاكس: 021.85.47.10

البريد الإلكتروني:

administration@darelwaai.com

الموقع الالكتروني

www.darelwaai.com

المقدّمـة

الحمد لله رب العالمين، والصّلاة والسّلام على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فإن كتاب الصحيح للإمام محمد بن إسماعيل البخاري هو أصح كتاب بعد القرآن الكريم، على ما ذهب إليه جماهير العلماء والمحققين، ولأن المورد العذب كثير الزحام، فقد اتجهت إليه أنظار علماء الأمة من السلف والخلف رواية ودراية، وكان لعلماء الجزائر نصيب في هذا الميدان، وإسهام في المجال.

وليس هذا مجال الحديث عن إسهامات علماء الجزائر في خدمة صحيح البخاري، ولكنه مجال الحديث عن أحد هذه الإسهامات المتمثل في شرح جزء منه للإمام محمد بن يوسف التلمساني رحمه الله تعالى ورضي عنه، غير أن كتابه هذا بقي إلى حد الآن مخطوطا لم ير طريقه إلى النشر والطبع، فاتجه الاهتمام إلى دراسته وتحقيقه، لإخراجه من عالم المخطوطات إلى عالم المطبوعات، لعل الله تعالى ينفع به من قرأه ودرسه.

أهمّيّــة الكتاب وقيـمته العلميّة: تظهر أهمّيته في نقاط كثيرة منها:

1 ـ إنّ هذا المخطوط، يعتبر أحد الشّروح النّادرة على صحيح البخاري، أصحّ كتاب بعد كتاب الله عزّ وجل، الّذي أطبقت شهرته الآفاق، وعكف النّاس عليه حفظا وشرحا واستدراكا واستخراجا واختصارا، ومع ذلك لم يوف حقّه، كما قال ابن خلدون، نقلا عن أحد أشياخه: "شرح صحيح البخاري، دين على الأمّة".

2 ـ تكمن أهمّية هذا الشّرح أيضا، في كونه شرحا لأحد أعلام الفقه المالكي، في القرن التّاسع هجري، وهو الإمام محمّد بن يوسف السّنوسي، الذي حظي بتقدير العلماء.

3 ـ كما أنّ هذا الشّرح يكتسي أهمّية، من كونه شرحا لأحاديث النّبي صلى الله عليه وسلم، فهو يتعلّق بكلام خير البشر، فالبشر يشرف بشرف موضوعه، ومن مصنّفه الإمام البخاري.

4 ـ كما يكتسي هذا البحث أهمّية أيضا، من كونه يبرز لنا علما من أعلام الجزائر، الّذين خدموا العلوم الشّرعية، وبالخصوص العقيدة والفقه واللّغة...

5 ـ كما يلقي هذا البحث، الضّوء على المجتمع التّلمساني، وعن الحركة العلميّة به، من خلال القرن الثّامن، وبداية القرن التّاسع الهجريين.

6 ـ أنّ هذا البحث، يخدم التّراث المغربي الإسلامي، ويسد بعض الفراغ، الّذي يشعر به المشتغلون في ميدان البحث العلمي.

أسباب اختيار الموضوع

يرجع اختيار هذا الموضوع للاعتبارات التالية:

1 ـ اتجهت أنظار العلماء والباحثين إلى تحقيق ذخائر المخطوطات والآثار العلمية التي ورثناها عن أسلافنا الأماجد، الذين لا يخفى علينا كم بذلوا من جهد وكم عانوا من المشاق في خدمة العلم وتصنيف هذه الكتب، وإذا كانت أغلب هذه الكنوز العلمية لم ترَ طريقها إلى النور فحري بأبناء هؤلاء العلماء وأحفادهم أن يزيلوا عنها غبار النسيان ليخرجوها إلى الوجود ويَعُمَّ النفع بها، فما من شك أن إحياء

التراث العلمي وهو من غذاء العقول والأرواح ليس أقلَّ أهمية من إحياء الأرض الموات التي هي وسيلة لغذاء الأجسام والأبدان.

2 ـ أهمية الكتاب من حيث مضمونه إذ هو شرح على أصح كتاب بعد القرآن الكريم، ومن حيث امتيازه بخاصية الاستمرارية والتواصل العلميين، فهو تتميم لكتاب سابق لا تكتمل الفائدة إلا بإخراجهما ونشرهما معا.

3 ـ مكانة المصنف وشهرته وناهيك بالشيخ المحقق أبي عبد الله محمد بن يوسف السنوسي صاحب التصانيف المشهورة والتحقيقات المفيدة في مختلف العلوم.

4 ـ الحرص على إبراز جهود علماء الجزائر، وبيان الدور الكبير الذي قام به أبناء هذه الربوع الطاهرة في إرساء الحضارة الإسلامية.

5 ـ إن تحقيق المخطوطات مظهر للتواصل الحضاري بين أجيال الأمة الإسلامية، حيث يكمل اللاحقون ما بدأه السابقون.

6 ـ يتطلب التحقيق دراسة عميقة في مختلف مجالات المعرفة، وما من شك أن الباحث يخرج من هذه الجولة العلمية بفوائد كثيرة، أردت أن ينالني حظٌّ منها.

* * *

منهج الدراسة والتحقيق

يشتمل هذا العمل على قسمين: **دراسي وتحقيقي**

أولا ـ قسم الدراسة

التزمت فيه بالمنهج الوصفي التحليلي لانسجامه مع الصبغة التاريخية لهذا القسم.

وقسمته إلى فصلين:

أولهما لدراسة عصر المؤلف من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية والفكرية.

والثاني للتعريف بالمؤلف وكتابه

ثانيا ـ قسم التحقيق

وتم فيه الالتزام بالمنهجية العلمية في تحقيق النصوص، وخصوصا في الخطوات الآتية:

1 ـ نسخ نص المخطوط حسب القواعد الإملائية الحديثة، وإخراجه سليما كما أراده مؤلفه، بعد المقابلة بين نسخه الخطية، سالكا طريقة النص المختار.

2 ـ بيان مواضع الآيات القرآنية الكريمة بذكر السورة ورقم الآية.

3 ـ تخريج الأحاديث النبوية من مظانها.

4 ـ توثيق النصوص وعزوها إلى مصادرها.

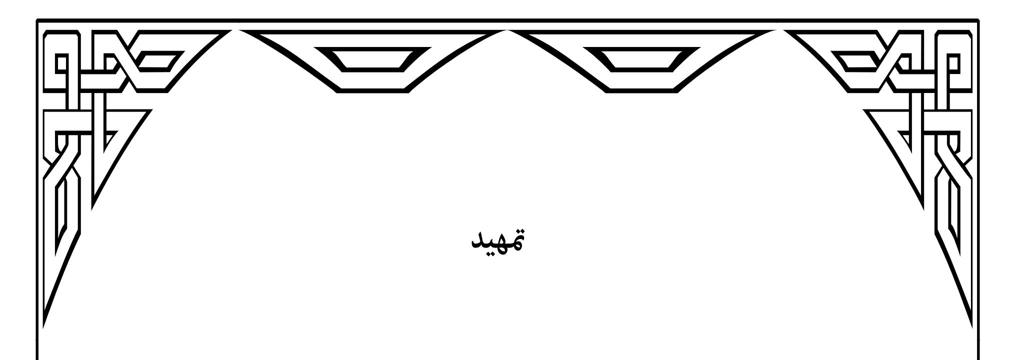
5 ـ شرح الكلمات الغريبة.

6 ـ تعريف المصطلحات العلمية.

7 ـ ترجمة الأعلام الواردين في النص، إلا الذين لم أقف على ترجمتهم.

الفصل الأول

عصر الإمام السنوسي



تمهيد

إن دراسة أي شخصية من الرجال بمعزل عن العصر الذي عاشوا فيه، قد يُبقي فيها بعض الخلل والغموض، ذلك أن الإنسان اجتماعي بطبعه، ولا بد أنه متأثر بالبيئة التي عاش فيها، سواء الجانب السياسي أو الاجتماعي أو الثقافي والعلمي، ومن ثم كان حريا بمن يدرس شخصية معينة أن لا يغفل عن هذا الجانب المهم، لإبراز جوانب التأثر والتأثير، وهذا ما دفعني لتخصيص جزء من هذه الدراسة لعصر الإمام السنوسي.

* المبحث الأول:الحياة السياسية

مرت تلمسان بعصور مزدهرة نمت فيه الحياة وتطورت في مختلف جوانبها، سواء كان ذلك في عصر المرابطين أو الموحدين، وما إن تصدع شمل دولة الموحدين بعد ((وقعة العقاب)) بالأندلس سنة 609هـ/1212م، حتى تمخضت عنها ثلاث دويلات: الحفصيون في المغرب الأدنى وعاصمتهم تونس، والمرينيون في المغرب الأقصى وعاصمتهم فاس، وبنو عبد الواد أو الزيانيون في المغرب الأوسط وعاصمتهم تلمسان، ونظرا لأن كل واحدة من هذه الدويلات كانت تريد الاستئثار والانفراد بميراث الموحدين، فإنها شطبت على شيء يسمى بعلاقة حسن الجوار، وعوضته بحروب وصراعات أدخلت المجتمعات في دوامات لا يعلمها إلا الله، وإذا بدا في الأفق شيء من الاستقرار والتفاهم أو التعايش السلمي فليعلم أن ذلك بمثابة السكون الذي يسبق العاصفة[1].

والذي يهمني في هذا المقام هو الحديث عن معالم الحياة السياسية للدولة الزيانية التي عمرت أكثر من ثلاثة قرون (633هـ ـ 962هـ/1236م ـ 1554م).

وسأقسم هذا الحديث إلى مطلبين:

---

(1) انظر: تاريخ الجزائر في القديم والحديث (349/2 ـ 351)، الجزائر في مرآة التاريخ ص (101 ــ 102)، تاريخ الجزائر العام (42/2).

المطلب الأول: الحالة السياسية للدولة الزيانية منذ نشأتها إلى بداية القرن التاسع الهجري

ترجع أصول الزيانيين إلى قبيلة بني عبد الواد أحد بطون زناتة، وكانوا مخلصين لدولة الموحدين، فنالوا عقد إمارة تلمسان سنة 627هـ = 1230م، وبقيت تابعة لدولة الموحدين إلى سنة 633هـ، حيث شعر يغمراسن بن زيان بن ثابت أحد قادة بني عبد الواد بضعف الموحدين، فدفعه ذلك إلى إعلان الاستقلال عن سلطة الموحدين[1].

وهكذا ظهرت على مسرح الأحداث دولة أخرى كانت تسمى دولة بني عبد الواد، واتخذت تلمسان عاصمة لها، بقي يغمراسن على عرش الدولة إلى سنة 681هـ/1283م، ثم توالى الملوك من بعده، وفي عهد أبي حمو أخذت هذه الدولة اسما آخر هو "الدولة الزيانية".

وكانت دولة بني زيان أسوأ حالا من جارتيها وأشقى حالا من شقيقتيها، وذلك أنها كانت تتلقى ضربات من جهة الشرق، فلا تكاد تتوقف هذه الضربات الشرقية حتى تنوب عنها الضربات الغربية، ثم تدور الدائرة بهذا الشكل، أما ساعات الرخاء والأمن فكانت عزيزة ونادرة جدا، وعلى العموم فإن تاريخ الدولة الزيانية منذ نشأتها إلى بداية القرن التاسع كان مشحونا بالاضطراب والفوضى والصراعات الداخلية والخارجية، وإذا أردت وصف ذلك الواقع المرير

(1) انظر: تاريخ الجزائر في القديم والحديث (439/2، 447)، الجزائر في مرآة التاريخ ص (101 ـ 102)، تاريخ الجزائر العام (141/2).

الذي طبع الأجواء السياسية في تلك العهود، فيمكن تلخيصه في النقاط التالية[1]:

1 ـ الصراع مع بقايا دولة الموحدين، وقد كان هـذا أمـرا طبيعيـا لأن ملـوك الموحـدين لم يعترفوا بهذا الاستقلال.

2 ـ الخطر الحفصي شرقا، والخطر المريني غربا، والصراعات والحـروب المسـتمرة المتتاليـة مع هاتين الجارتين، ولم تكن الدولة الزيانية واقفة موقف المدافع عن الحدود فقط، بل إنهـا كانت مغيرة تارة ومغارا عليها تارة أخرى، ومما يبين خطورة هذا الواقع أنـه كـان يـؤدي إلى غياب دولة بني زيان في فترات معينـة لتصـير تابعـة إلى الحفصـيين مـرة، وإلى المـرينيين مـرة أخرى، ثم لا تلبث أن تنبعث من جديد وتظهر على مسرح الأحداث.

3 ـ الفتن الداخلية، وسببها الرئيسي هو تمرد بعض القبائل، وشق عصى الطاعة أمـام الدولـة، مما يضطر ملوكها إلى الخروج نحو هذه القبائل كلما وجدوا فسحة ومتنفسا.

4 ـ الصراعـات بـين أفـراد العائلـة الحاكمـة، وقـد سـجل لنـا التـاريخ صـفحات سوداء كان مـن المفـروض أن يتنـزه عنهـا هـؤلاء، وخاصـة في تلـك الظـروف، ولكنـه حـب السـلطة التـي كـانوا يبـذلون كـل شيء مـن أجـل الوصـول إليهـا. ومـن ثـم فـلا عجـب إذا علمنـا أن الابـن كـان ضـد أبيـه، وأن الأخ كـان يحـارب أخـاه، وأن ابـن العـم

---

(1) انظر الأحداث السياسية لدولة الزيانيين خلال هذه الفترة في: تاريخ الجزائـر العـام (141/2 ـ 163) و (178/2 ـ 193)، تـاريخ الجزائـر في القـديم والحـديث (454/2 ـ 460)، الجزائـر في مـرآة التـاريخ ص (102 ـ 105)، مـاضي تلمسـان وأمجادها الحضارية، محاضرة الدكتور يحيـى بـوعزيز في الملتقـى الخـامس عشر للفكـر الإسـلامي بتلمسـان سـنة 1402هـ/1982م، في كتاب الأصالة (31/1 ـ 34).

كان يكيد لابن عمه... هكذا. وفي وسط هذا الصراع وجد المرتزقون والأدعياء والأعداء السبيل لضرب الدولة وبث الاضطراب والبلبلة فيها لتحقيق أغراضهم.

ولا أريد أن أدخل القارئ في تفاصيل الأحداث فإن كتب التاريخ تعج بها، ولكن لا أجد مانعا من ذكر بعض النماذج التي تصور هذا الواقع، وذلك من خلال الجدول التالي:

تاريخ الأحداث	أهم الأحداث
640هـ/1242م	الحفصيون يغيرون على تلمسان ويعيثون فيها فسادا، وانتهى ذلك بمعاهدة تقضي بأن يذكر الحفصيون بالدعاء في الخطب، وأن يدفع الزيانيون ضرائب للحفصيين.
645هـ/1247م	الموحدون يشنون حملة على تلمسان، إلا أن أميرهم قتل، فخرج بنو عبد الواد منتصرين.
706هـ/1307م	السلطان أبو زيان الثاني يخرج لمحاربة بعض بطون مغراوة التي انشقت عن الدولة.
737هـ/1337م	المرينيون يبسطون نفوذهم على المغرب الأوسط.
760هـ/1359م	انبعاث الدولة الزيانية من جديد على يد السلطان أبي حمو موسى الثاني.
788هـ/1386م	بمساعدة بني مرين يثور أبو تاشفين ضد أبيه أبي حمو الثاني، ويخلعه عن الملك، ويسجنه، ويطارد بعد ذلك إخوته.

المطلب الثاني: الحالة السياسية للدولة الزيانية خلال القرن التاسع الهجري

حل القرن التاسع على تلمسان عاصمة بني زيان، وحركة الأحداث لم يتغير

مجراها العام، فما تزال الدولة بين نارين نار الدولة الحفصية شرقا، ونار الدولة المرينية غربا، وما تزال الفتن الداخلية تشتعل بين الفترة والأخرى، وما يزال التنافس على العرش قائما على أشده بين أفراد العائلة الحاكمة[1].

أولا ـ ولاية السلطان أبي حمو موسى الثاني

وقد استهلت الدولة الزيانية القرن التاسع الهجري بولاية السلطان أبي محمد عبد الله بن أبي حمو موسى الثاني الذي انتصب على الحكم سنة 801هـ وكان رجلا حازما حسن التدبير سعى جاهدا لبث الأمن والعدل والرخاء بين الرعية، إلا أن المندسين أثاروا عليه بني مرين فأغاروا عليه سنة 804هـ/1401م.

ثانيا ـ ولاية السلطان أبي عبد الله الواثق الشهير بابن خولة

وتولى الحكم بعده ابنه السلطان أبو عبد الله محمد الثالث الملقب بالواثق الشهير بابن خولة، واستمر حكمه حوالي عشر سنوات من سنة 804هـ إلى سنة 813هـ/1411هـ، وكان رجلا شغوفا بالعلم، مشجعا للعلماء باعثا لهم على البحث والإنتاج.

وقد عاش الناس في عهده نوعا من الرخاء رغم الصراعات الداخلية والخارجية.

---

(1) انظر الحالة السياسية للدولة الزيانية وأهم الأحداث التي شهدها هذا القرن، والملوك الذين تعقبوا خلال هذه الفترة في: تاريخ الجزائر العام (193/2 ـ 201)، تاريخ الجزائر في القديم والحديث (460/2 ـ 462).

ثالثا ـ ولاية السلطانين عبد الرحمن الثالث والسعيد ابن أبي حمو

وبعد وفاة ابن خولة تولى الحكم ولده السلطان عبد الرحمن الثالث، ولم يمض شهران على ذلك حتى فجأه عمه السعيد في جيش فخلعه عن الملك واستبد به في أواخر محرم سنة 814هـ/ماي 1411م، إلا أن هذا الأخير واجهته أزمات مالية استغلها المرينيون فأوعزوا إلى أخيه "أبي حمو الثاني" أن يخلع السلطان الحالي وساعدوه على ذلك، فتم له الأمر في منتصف رجب من نفس السنة (814هـ).

رابعا ـ ولاية السلطان أبي مالك عبد الواحد بن أبي حمو موسى

وهكذا تولى الحكم أبو مالك عبد الواحد بن أبي حمو موسى، وقد اشتهر بالشجاعة والتدين وحب العلم ونشر الثقافة والسهر على إصلاح حال الرعية وتقوية الدولة، فاسترجع ما كان بيد الحفصيين شرق الجزائر، ثم اتجه غربا واستولى على فاس ونصب عليها واليا من قبله.

وشعر الحفصيون بخطر الدولة الزيانية، فأعد السلطان أبو فارس عزوز الحفصي جيشا فحاصر تلمسان حتى دخلها في جمادى الثانية سنة 827هـ/ماي 1424م، وتوسعوا غربا نحو فاس فبايعه المرينيون، ثم بايعه أهل الأندلس، وهكذا كان الغرب الإسلامي كله تحت رعاية أبي فارس الحفصي.

خامسا ـ ولاية السلطان محمد الرابع الشهير بابن الحمرة

ولم يخرج الحفصيون من تلمسان حتى ولوا عليها السلطان أبا عبد الله محمد الرابع المعروف بابن الحمرة في 16 جمادى الأولى 827هـ، وقد حاول أن يكسب قلوب الرعية ويجمع شملهم بحسن سياسته، فتم له ذلك، إلا أنه لم يصبر على

موالاته للحفصيين فأعلن استقلاله عنهم.

واستغل أبو مالك السلطان المخلوع هذه الفرصة فاستنجد بالمرينيين ثم الحفصيين، فأعانوه الحفصيون فاسترجع عرش تلمسان سنة 831هـ/1428م، إلا أن ابن الحمرة كاد له فجمع عليه بعض القبائل والبطون ودخل عليه تلمسان فقتل عمه أبا مالك رابع ذي الحجة 833هـ/24 أوت 1440م، ولم يكد ينعم بنشوة الملك حتى فاجأه السلطان الحفصي لثمانية بعد شهر ونصف، فاسره ونصب مكانه عمه أبا العباس العاقل.

سادسا ـ ولاية السلطان أبي العباس العاقل

وهكذا تولى الحكم السلطان أبو العباس أحمد المعتصم بالله المشهور بلقب العاقل ابن السلطان أبي حمو موسى الثاني غرة رجب 834هـ/15 مارس 1431م، وأظهر من حسن السيرة ونشر العدل وخدمة العلم ما جمع عليه قلوب الرعية وجعل الناس يجمعون على مودته، فلما رأى ذلك أعلن رفض دعوة الحفصيين فتحرك نحوه سلطانهم أبو فارس إلا أن هذا الأخير وافاه أجله قبل أن يصل إلى تلمسان.

وإذا كان قد سلم من الخطر الحفصي في هذه الأثناء فإن أخاه أبا يحيى حاول الثورة ضده فرده العاقل، فارتد أبو يحيى إلى وهران فاستولى عليها سنة 840هـ/1437م.

وفي سنة 842هـ/1438م ظهر على مسرح الأحداث المستعين بالله أبو زيان محمد، وهو أحد أعضاء الأسرة الزيانية، فاستعان بالحفصيين على قريبه العاقل فاحتل بعض المدن كالجزائر وتنس ومليانة والمدية، إلا أن بأسه لم يدم طويلا إذ فاجأه أبو يحيى فأثار الرعية ضده فقتلته في نفس السنة.

واستمر أبو يحيى حاكما على وهران إلى سنة 852هـ /1448م، إلا أن أخاه العاقل لم يترك له الجو، حيث دخلها عليه عمال أخيه العاقل فطرد منها واتجه إلى تونس.

وفي هذه الأثناء بدأت هجرة الأندلسيين نحو بلاد المغرب ابتداء من سنة 856هـ/1452م.

سابعا ـ ولاية السلطان أبي ثابت المتوكل

وقد شجعت هذه الاضطرابات والفتن أحد الأمراء الزيانيين وهو محمد بن محمد بن أبي ثابت الشهير بالمتوكل فشق عصا الطاعة على عمه العاقل إلى أن عزله واستولى على الحكم سنة 866هـ/1462م، وقد أظهر المتوكل شهامة وشجاعة وحسن سيرة، فالتفت حوله الرعية، إلا أن الاضطرابات المذكورة شجعت الحفصيين فيمموا شطر تلمسان في شوال سنة 866هـ وأدرك المتوكل الخطر فأرسل وفدا ينوب عنه لدى السلطان الحفصي في المبايعة وعقد الصلح.

ثم أعاد أبو ثابت المتوكل نهضته وأعلن استقلاله ثانية عن الحفصيين، فتحرك الحفصيون نحوه وشددوا عليه الحصار، فاستسلم لهم المتوكل وكتب بيعته للسلطان الحفصي، وأعطى ابنته بكرا للمولى أبي زكريا الحفصي دون خطبة، وكان هذا عربون بقائه على الملك إلى وفاته سنة 890هـ/1485م.

ومما سوّد صحائف تاريخ هذه الفترة أنه في الوقت الذي اشتد فيه بأس المسلمين فيما بينهم كان الصليبيون يعدون العدة للاستيلاء على بلاد الإسلام، فكان ذلك سببا في سقوط مدينة بونة (عنابة) بيد الإسبان ثم تبعتها مدن ساحلية أخرى، وفي الجهة الغربية يسقط المرسى الكبير بوهران في يد البرتغال سنة 875هـ/1471م.

وبعد وفاة المتوكل خلفه ابنه السلطان تاشفين بن أبي ثابث، لكنه توفي بعد أربعة شهر، فتولى الحكم أخوه أبو عبد الله محمد السادس، وكان ضعيف الإرادة عاجزا عن القيام بشؤون الدولة، فكثرت الاضطرابات في عهده وانتشرت الفوضى إلى أن توفي سنة 902هـ/1496م، وكان هذا آخر ملوك الدولة الزيانية في القرن التاسع، وآخر السلاطين الذين عاصرهم السنوسي.

ثامنا ـ الدولة الزيانية تلفظ أنفاسها الأخيرة

ومنذ هذا العهد أخذت حال الدولة الزيانية تزداد سوء، ومما زاد الطين بلة إضافة إلى ما سبق أن النصارى بدؤوا يتدخلون في شؤونها الداخلية، واتفقوا على الطريقة التي يقتسمون بها المغرب الإسلامي، واحتل الإسبان وهران والسواحل الجزائرية إذ فتحت لهم كل السبل أمام ضعف الدولة والاضطرابات التي كانت تسودها، بل إن بعض الملوك كانوا يستنجدون بالنصارى ضد بعضهم البعض، وهكذا تفاعلت الأحداث بالدولة الزيانية إلى أن انتهى عهدها سنة 962هـ/1554م لتفسح المجال إلى العهد التركي العثماني بالجزائر.

*** المبحث الثاني: الحالة الاقتصادية والاجتماعية**

المطلب الأول: الحالة الاقتصادية

عرفت تلمسان ازدهارا اقتصاديا كبيرا عصر المرابطين والموحدين، واستمر ذلك خلال فترات من عهد الزيانيين، وكانت الزراعة أهم موارد الاقتصاد، وقد وصف يحيى بن خلدون أراضي تلمسان بأنها: ((مُنْجِبَة للحيوان والنبات، كريمة

الفلاحة، زاكية الإصابة، ربما انتهت في الزوج[1] الواحدة منها إلى أربعمائة مد كبير... من البرسوي الشعير والباقلاء...))[2].

كما اشتهر أهل تلمسان بصناعاتهم المختلفة وخاصة حياكة الصوف، وقد أورد يحيى بن خلدون بعض الصناعات المتداولة في تلمسان: ((... من دراق، ورماح، ودراع، ولجام، ووشاء، وسراج، وخباء، ونجار، وحداد، وصائغ، ودباج))[3].

أما التجارة فإن موقع تلمسان الاستراتيجي الذي يطل على البحر ويربط الصحراء بالتل جعل الحركة التجارية في غاية النشاط والحيوية والانتعاش، وقد بلغ الأمر بعائلة المقريين أن ينشئوا مؤسسة تجارية تسير بنظام دقيق جدا[4].

أما القرن التاسع فقد عرف هو الآخر نوعا من الرخاء المادي والاقتصادي، رغم الأزمات والفتن التي شهدها هذا القرن، ولعل أقدم نص يصف بقايا الرخاء الاقتصادي هو نص حسن الوزان الزياني ((ليون الإفريقي)) الذي وصف فيه مدينة تلمسان بما فيها مساجد جميلة، ومدارس مزخرفة، وحمامات وفنادق مشيدة، وينابيع المياه المنتشرة، وحصونها المنيعة، وقصورها الرائعة، وحدائقها

---

(1) الزوج أو الزويجة: في عرف الفلاحين هو المساحة التي يحرثها حراث واحد في موسم الحرث.

(2) بغية الرواد (19/1).

(3) نفس المصدر (161/2).

(4) نفح الطيب (206/5).

الغناء، وفواكهها المتنوعة، كما وصف فيه طلبتها وتجارها وجنودها وحراسها.

ويستفاد من وصفه أن ظروف مدينة تلمسان حافظت على شيء من رغد العيش الذي عرفته سابقا، واستطاعت أن تقف في وجه الأزمات المتتالية[1].

ولكن يبدو أن ثمة شيئا من المبالغة في الوصف السابق الذي ذكره الحسن الوزان، وله ما يبرره لأن هذا الأخير وصف مدينة تلمسان وهو ضيف على سلطانها أبي ثابت الزياني، فلعل كثيرا من بعض ذلك الوصف كان فيه شيء من المجاملة، ومما يؤكد ذلك أن حسن الوزان نفسه ذكر أن عدد الأسر التلمسانية في عهد أبي تاشفين بلغ ستة عشر ألف أسرة، وقد تضاءل هذا العدد في القرن التاسع، وعلل ذلك بالاضطرابات التي منيت بها المدينة.

ولذلك فلا غرابة أن نجد مصادر أخرى تذكر أن الفتن الداخلية والحروب مع الحفصيين والمرينيين، والتنافس على السلطة جعل الحالة الاقتصادية تتدهور، فقلَّت موارد الفلاحة، وتأخرت الصناعات، ولم يعد التجار يجدون الأمن الكافي لجلب السلع وترويج تجارتهم، وقد امتصت الحروب الكثير من موارد الدولة[2].

---

(1) وصف إفريقيا (334/2)، تاريخ الجزائر العام (241/2 ـ 242)، جوانب من الحياة في المغرب الأوسط في القرن التاسع ص (35 ـ 36)، تلمسان عبر العصور ص (219).

(2) تاريخ الجزائر الثقافي (31/1)، دخول الأتراك ص (12)، الإمام أبو يوسف السنوسي وعلم التوحيد ص (23 ـ 26).

المطلب الثاني: الحالة الاجتماعية

كانت الحياة الاجتماعية تتلون بألوان الحالة السياسية والاقتصادية، فغلب على المجتمع طابع القلق والفوضى والاضطراب وانعدام الأمن، وإن المتتبع لنوازل الدرر المكنونة والمعيار وهما مما ألف في القرن التاسع، يكتشف فيه أهم مشاكل اجتماعية خطيرة طبعت الحياة الاجتماعية في هذا القرن، ومن ذلك اللصوصية والظلم والغصب والضرار وتهريب السلاح والمصادمات الجماعية والأوبئة والمجاعات ونحوها، كما ظهرت العصابات التي احترفت اللصوصية وقطع الطرق والتعرض للقوافل التجارية، وتحدثت بعض المصادر التاريخية عن هذه اللصوصية وقطع الطرق على التجار المتنقلين إلى تلمسان[1].

وقد ذكر الحسن الوزان أن السكان أربع طبقات: طلبة وتجار وجنود وصناع[2]، فإذا أضفنا إلى هؤلاء الملك والأمراء والولاة وأعيانهم، والعلماء والفقهاء، فيمكن تقسيم المجتمع من حيث مستوى المعيشة إلى الطبقات الآتية[3]:

أولا ـ طبقة الحكام: وتتكون من السلطان والأمراء والوزراء والولاة، وقد يلتحق بهم كبار الأثرياء والتجار الكبار ورؤساء العشائر.

ثانيا ـ طبقة العلماء ورجال الدين: وتتكون من الفقهاء والخطباء والقضاة،

---

(1) تاريخ الجزائر الثقافي (31/1)، الإمام أبو يوسف السنوسي وعلم التوحيد ص (25).

(2) وصف إفريقيا (334/2)، تلمسان عبر العصور ص (221).

(3) الجزائر في التاريخ: العهد الإسلامي ص (489 ـ 490).

وقد ظهر العلماء في هذا المستوى لأن الدين كان مهيمنا على القلـوب، ولأن السـلاطين كـانوا يتنافسون في تقريب العلماء إليهم.

ثالثا ـ طبقة أرباب السيوف: وتتكون من الجند وقادتهم، وكانـت لهـم منزلـة كبـيرة لأن الزيانيين كانوا يعيشون حالة حرب مستمرة، ومن ثم كانت الدولة في حاجة إليهم.

رابعا ـ طبقة أرباب الأقلام: وهؤلاء بمثابة الإداريين بـالتعبير الحـالي، وكـانوا يشـتغلون في الدواوين المختلفة ويشرفون على تسييرها وخدمتها.

خامسا ـ طبقة التجار الصغار والحرفيين: وكان نشاطهم منظما، ويشكلون نسـبة معتـبرة من المجتمع.

سادسا ـ طبقة الفلاحين والمزارعين وعامة الناس: وكانوا يشكلون غالبيـة سـكان المملكـة، وذلك أن المجتمع كان يعتمد بشكل كبير على النشاط الزراعي والفلاحي.

وكما سلف الذكر في المجال الاقتصادي فإن هناك مصادر أخرى خلاف ذلك تمامـا، ويبـدو لي أن هناك إفراطا من جهة وتفريطا من جهة أخرى، فما من شك أن تلك الأزمات السياسـية والفتن الداخلية ستؤثر سلبا على الحياة الاجتماعية والاقتصادية، ولكن لا يمنع ذلك من وجود فترات يسود فيها الأمن، ويعم فيها الرخاء، وتصلح شؤون الناس.

المطلب الثالث: الروح الدينية

في وسـط هـذه الأجـواء المفعمـة بـالقلق والاضـطراب لابـد أن يبحـث النـاس عـن

منافذ للراحة والطمأنينة، فلجأ كثير من الناس إلى حياة الزهد والعزلة والانقطاع للعبادة، ولكن المؤسف أن بعض المندسين من الأدعياء وأهل الضلال استغلوا هذا الوضع فأنشأوا طرقا ظاهرها الإصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحقيقة أمرها تجمعات للاسترزاق والسيطرة على الناس وإفساد عقيدتهم وغير ذلك من الأغراض الدنيئة، وكان آثار ذلك ظهور الكثير من الانحرافات والبدع والمنكرات التي بقيت آثارها إلى أيامنا هذه، وقد وصل الأمر ببعض أتباع الطريقة اليوسفية أن ادعى النبوة وتابعه في ذلك بعض الغوغاء والدهماء في الحواضر والبوادي[1].

ولقد وصف أبو الحسن الصغير هذا الوضع بقوله: ((انتشر في مغربنا... طريق أحدثه رجال ليأكلوا به حطام الدنيا، فجمعوا له العوام من الذكور والإناث الذين صدورهم فارغة وعقولهم قاصرة... وانتشر البغض بينهم وبين العلماء، فافترقوا بكثرة أشياخهم على طوائف شتى، كل طائفة تحدي إلى شيخها وتطعن في الطائفة الأخرى وشيخها ،وتواترت بذلك المشاحنة والمباغضة بين الأشياخ))[2].

ويعدد الناصري الأمور التي ظهرت في هذا العهد قائلا: ((... ومنها ظهور الأولياء وأهل الصلاح والملامتية وأرباب الأحوال والجذب ــ في بلاد الشرق

(1) المعيار المعرب (301/2).

(2) في ذوي البدعة وأهلها، لأبي الحسن الصغير ،مخطوط بالمكتبة الوطنية بالجزائر، رقم 946، (و2).

والغرب ـ لكنه انفتح به للمتسورين على النسبة وأهل الدعوى بـاب متسـع الخـرق مـتعسر الرتق، فاختلط المرعى بالهمل وادعى الخصوصية من لا ناقة له فيها ولا جمل، وصعب عـلى جل الناس التمييز بين البهرج والإبريز...))[1].

وفي مقابل ذلك فقد ظهرت مدارس للتصوف السليم المبني على الكتاب والسـنة، وقفـت في وجه أدعياء السوء، وعملت على إصلاح المجتمـع، وتطهـيره مـن البـدع والخرافـات التـي علقت به، ومن أهم هذه المـدارس مدرسـة الشـيخ إبـراهيم التـازي بـوهران، والشـيخ عبـد الرحمن الثعالبي بالجزائر، والحسن أبركان وتلميذه محمد بـن يوسـف السـنوسي بتلمسـان، ومدرسة الشيخ زروق وغيرهم.

وفي نفس الوقـت اتجـه العلـماء إلى تصـحيح العقيـدة الإسـلامية الصـحيحة، وتثبيتهـا في النفوس مع بيان أدلتها النقلية والعقلية، ودفع الشبه عنها بكل وسائل الإقنـاع المتاحـة وقـد حمل لواء هذا الاتجاه الإمام أبو يوسف السنوسي الذي ألف عدة مصنفات في العقيدة اهتم بها الناس وعم نفعها في القطر الجزائـري وغـيره. وعمـل الشـيخ السـنوسي في نفـس الاتجـاه حيث ألف كتبا في العقيدة الإسلامية لتصحيح الكثير من المعتقدات الفاسدة.

* المبحث الثالث ـ الحالة العلمية والفكرية

المطلب الأول: النهضة العلمية بتلمسان في هذا القرن وأسبابها

بعد استعراض الحالة السياسية والاجتماعية في القرن التاسع، قد يظن القـارئ

---

(1) الاستقصاء للناصري (163/4 ـ 164).

أن الحالة العلمية والفكرية ستأخذ نفس المنحى المذكور سلفا، ولكن من المفارقات ومن غرائب مجريات الأحداث أن الحركة العلمية فيه كانت نشطة جدا، وقد ظهر في هذا العصر عدد هائل من العلماء الذين تركوا تراثا علميا كبيرا توارثته الأجيال، وبقي تأثيره على الحركة العلمية في الجزائر وخارجها طيلة قرون متتالية.

وقد تظافرت جملة من الأسباب استطاعت أن تقف في وجه الحالة السياسية والاجتماعية المتردية، ومن بين هذه الأسباب أذكر:

أولا ـ اهتمام السلاطين بالعلم والعلماء

إن ملوك الدولة الزيانية رغم تنافسهم على السلطة، واشتغالهم بالحروب ومواجهة الفتن الداخلية، فإنهم لم يعدموا من شرف تشجيع العلماء على التدريس والإنتاج والتأليف، ومن بين ملوك الزيانيين في هذا القرن أبو عبد الله بن أبي حمو، وابن خولة، وابن الحمرة، والعاقل، والمتوكل، وكانوا كلهم محبين للعلم مقربين للعلماء، وخاصة السلطان العاقل الذي استمر حكمه من سنة 834هـ إلى سنة 866هـ.

وبهذا يكون الشيخ السنوسي قد عاصر هذا السلطان في مرحلة الدراسة والتلقي، وفي مرحلة التدريس والبذل والعطاء، وما من شك أن سياسة هذا السلطان وغيره تجاه العلم والعلماء كانت من بين العوامل التي مكنت الإمام السنوسي من الوصول إلى منزلته العلمية الكبيرة.

ثانيا ـ إحياء دور التعليم وبناء المدارس

لا يمكن للعلم أن يزدهر إلا حيث تنتشر مراكز التعليم، وكان من حظ تلمسان في هذا القرن أنها ورثت مجموعة لا بأس بها من المدارس ذات المستوى

العلمي الكبير، شيّد الزيانيون أغلبها خلال فترات متعاقبة.

وقد أشار يحيى بن خلدون إلى هذه المدارس بقوله: ((...والمعاهد الكريمـة))[1]، ووصـفها الحسن الوزان بأنها: ((حسنة، جيدة البناء، مزدانة بالفسيفساء وغيرهـا مـن الأعـمال الفنيـة، شيد بعضها ملوك تلمسان وبعضها ملوك فاس))[2].

وفيما يلي عرض موجز لهذه المدارس:

1 ـ **مدرسة ولدي الإمام.**

بنيت في عهد السلطان أبي حمو موسى الأول، وسبب بنائها أن الأخوين ابني الإمام دخـلا تلمسان في عهد هذا السلطان فأكرمهما وابتنى لهـما هـذه المدرسـة التـي سـميت باسـمهما، وكان ذلك حوالي سنة 710هـ[3].

2 ـ **المدرسة التاشفينية.**

بناها عبد الرحمن أبو تاشفين (718هـ ـ 737هـ) بجانب الجامع الأعظم، وعين بها مدرسين من كبار العلماء من أمثال أبي موسى المشدالي، وكانت هذه المدرسة تحفة فنيـة رائعـة، وقـد وصفها المقري بأنها من بدائع الدنيا.

---

(1) بغية الرواد ليحيى بن خلدون (86/1).

(2) وصف إفريقيا للحسن الوزان (19/2).

(3) انظر: بغية الرواد ليحيى بن خلدون (130/1)، تاريخ الجزائر العام للجـيلالي (249/2)، تـاريخ الجزائـر في القـديم والحديث لمحمد الميلي (491/2)، تاريخ بني زيـان ملـوك تلمسـان للتـنسي ص 139، الجزائـر في التـاريخ (العهـد الإسلامي) لمجموعة من الأساتذة ص 438.

وللأسف أن يد الاستعمار الفرنسي قد أتت عليها فتم تهديمها دون مراعاة لما فيها من جوانب فنية وحضارية، وذلك ليبني مكانها دار البلدية، ثم نقلت بعض تحفها وزخارفها إلى متحف تلمسان، وإلى متحف كلوني في باريس[1].

3 ـ **مدرسة أبي الحسن المريني بالعباد**

بناها أبو الحسن المريني في منطقة تسمى العباد[2] سنة 748هـ وذلك أيام استيلاء المرينيين على المغرب الأوسط[3].

4 ـ **مدرسة أبي عنان المريني**

أسسها أبو عنان ابن أبي الحسن المريني سنة 754هـ بجانب مسجد الولي

---

(1) انظر: أبو حمو موسى الزياني حياته وآثاره لحاجيات ص 61 ـ 62، تاريخ الجزائر العام للجيلالي (249/2)، تاريخ الجزائر في القديم والحديث لمحمد الميلي (491/2)، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان للتنسي ص 141، تلمسان عبر العصور لمحمد طمار ص 128، الجزائر في التاريخ (العهد الإسلامي) لمجموعة من الأساتذة ص 438. Les monuments arabes de Tlemcen, p 21

(2) العباد قرية واقعة على بعد 2كلم من تلمسان، فيها دفن الشيخ المتصوف المشهور أبو مدين شعيب وعدد من العلماء والصالحين والملوك. انظر: تاريخ بني زيان ملوك تلمسان للتنسي ص 286، وصف إفريقيا للحسن الوزان (24/2).

(3) انظر: تاريخ الجزائر العام للجيلالي (249/2)، تاريخ الجزائر في القديم والحديث لمحمد الميلي (491/2)، تلمسان عبر العصور لمحمد طمار ص 133، الجزائر في التاريخ (العهد الإسلامي) لمجموعة من الأساتذة ص 438، 503، المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن لابن مرزوق التلمساني ص 406، Les monuments arabes de Tlemcen, p 274.

الصالح أبي عبد اللـه الشوذي الإشبيلي الملقب بالحلوي[1].

5 ـ المدرسة اليعقوبية

أسسها السلطان أبو حمو موسى الثاني (760 ـ 791هـ) على ضريح والده يعقوب وعميه أبي سعيد عثمان وأبي ثابت، وتم تدشينها في شهر صفر سنة 765هـ. وقد احتفل بها هذا السلطان واعتنى بها، وأكثر عليها الأوقاف ورتب فيها الجرايات، كان الإمام أبو عبد اللـه الشريف التلمساني واحدا من أكابر مدرسيها، ومن سوء الحظ أن هذه المدرسة قد اندثرت كغيرها من المدارس[2].

وكان يختار لهذه المدارس كبار العلماء، ويمكن القول بأنها كانت بمثابة جامعات كبيرة، ومن ثم فلم يكن يلتحق بها إلا الطلبة الذين فرغوا من مراحل الدراسة الأولية الكتاتيب والزوايا والمساجد.

وكان التعليم فيها مجانيا، ويسير على خطوات مرحلية وفق نظم وتراتيب خاصة، وذلك حسب مستويات الطلبة واتجاهاتهم العلمية[3]، وكان الطلبة الفقراء يسكنون في غرف تابعة لهذه المدارس، إلا أن حياتهم كانت صعبة كما وصفها الحسن الوزان،

---

(1) الجزائر في التاريخ (العهد الإسلامي) لمجموعة من الأساتذة ص 438.

(2) انظر: أبو حمو موسى الزياني حياته وآثاره لحاجيات ص 160، 182،، تاريخ الجزائر في القديم والحديث لمحمد الميلي (491/2)، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان للتنسي مع تعليق المحقق ص 180، الجزائر في التاريخ (العهد الإسلامي) لمجموعة من الأساتذة ص 438، رحلة القلصادي ص 104.

Yahia Ibn Khaldoun, Histoire de Beni Abd El-Wad, traduit par Alfred Bel, p 169 - 170.

(3) انظر: تاريخ الجزائر العام (249/2).

ولكنهم عندما يرتقون إلى درجة فقهاء يُعَيَّنُ كل واحد منهم أستاذا أو عدلا أو إماما[1].

ثالثا ـ انتشار المساجد والزوايا

لم يكن التعليم في تلمسان حكرا على المدارس والمعاهد فقط، بل كان نطاقه أوسع من ذلك، فقد كانت المساجد والزوايا مراكز علمية مساعدة ومكملة للمدارس الكبرى، ففيها يتلقى الطلبة المبادئ الأولية للعلوم، وينال العامة نصيبهم من العلم والثقافة[2].

وتذكر لنا المصادر التاريخية أن عدد مساجد تلمسان بلغ حوالي 60 مسجدا[3]، اشتهرت منها المساجد التالية:

1 ـ الجامع الكبير

بناه المرابطون سنة 530هـ[4]، وهو أشهر مساجدها وأكبرها، وقد أفادنا الوادي آشي ببعض العلوم والفنون التي كانت تدرس فيه[5]، مما يبين أن الدروس التي

(1) وصف إفريقيا للحسن الوزان (334/2)، وانظر: تلمسان عبر العصور ص (219).

(2) انظر: الحياة الفكرية بتلمسان، لحاجيات، مجلة الأصالة، العدد 26، ص 138، الجزائر في التاريخ (العهد الإسلامي) لمجموعة من الأساتذة ص 438.

(3) انظر تاريخ الجزائر العام (252/2)، تاريخ الجزائر الثقافي (34/1)

(4) انظر: الجزائر في التاريخ (العهد الإسلامي) لمجموعة من الأساتذة ص 349، جوانب من الحياة في المغرب الأوسط لبوعياد ص 81، تلسمان عبر العصور لمحمد الطمار ص 44، مجلة الأصالة، العدد 26، ص 172. Les monuments arabes de Tlemcen, p 140.

(5) وسيأتي ذكرها أثناء الحديث عن نشأة ابن زكري العلمية وما تلقاه من العلوم.

كانت تلقى فيه كانت تضاهي ما كان يلقى في مدارس تلمسان الكبرى، ومن ثم يمكن اعتبار هذا المسجد جامعة على طريقة المتقدمين، وهو بذلك يضاهي جامع القرويين بفاس، وجامع الزيتونة بتونس، وجامع الأزهر بالقاهرة[1].

2 ـ مسجد سيدي أبي الحسن

أسسه السلطان أبو سعيد عثمان سنة 696هـ وكان هذا المسجد تحفة فنية معمارية[2].

3 ـ مسجد أولاد الإمام

كان تابعا للمدرسة التي بناها أبو حمو موسى الأول حوالي سنة 710هـ[3].

4 ـ مسجد سيدي بومدين

بني عام 739هـ في عهد أبي الحسن المريني، وأخذ اسم الولي الصالح الذي دفن بجانبه[4].

---

(1) الحياة الفكرية بتلمسان في عهد الزيانيين لحاجيات ص 138.

(2) انظر: الجزائر في التاريخ (العهد الإسلامي) لمجموعة من الأساتذة ص 396، جوانب من الحياة في المغرب الأوسط لبوعياد ص 81، جولة عبر مساجد تلمسان لرشيد بورويبة، مجلة الأصالة، العدد 26، ص 172. Les monuments arabes de Tlemcen, p 170.

(3) انظر: الجزائر في التاريخ (العهد الإسلامي) لمجموعة من الأساتذة ص 397، جوانب من الحياة في المغرب الأوسط لبوعياد ص 81، جولة عبر مساجد تلمسان لرشيد بورويبة، مجلة الأصالة، العدد 26، ص 176. Les monuments arabes de Tlemcen, p 185.

(4) انظر: الجزائر في التاريخ (العهد الإسلامي) لمجموعة من الأساتذة ص 500، جوانب من الحياة

5 ـ **مسجد سيدي الحلوي**

بناه السلطان أبو عنان المريني عام 750هـ أيام استيلاء المرينيين على المغرب الأوسط كله، وهو بذلك من بين آثارهم في عاصمة الزيانيين[1].

6 ـ **مسجد سيدي إبراهيم المصمودي**

أسسه السلطان أبو حمو موسى الثاني إلى جانب المدرسة اليعقوبية سنة 765هـ[2].

رابعا ـ وجود خزائن للكتب

ما من شك أن مثل هذه الحركة العلمية لا يمكن أن تنمو في معزل عن مصادر المعرفة، وما من شك أيضا أن علماء تلمسان وطلبتها كانوا مشتغلين بجمع الكتب ودراستها، يدل على ذلك كثرة المصنفات المعتمدة في الحياة الدراسية عندهم كما سنرى فيما بعد.

في المغرب الأوسط لبوعياد ص 81، جولة عبر مساجد تلمسان لرشيد بورويبة، مجلة الأصالة، العدد 26، ص 181. Les monuments arabes de Tlemcen, p 304.

(1) انظر: تاريخ بني زيان ملوك تلمسان للتنسي ص 179 ـ 180، الجزائر في التاريخ (العهد الإسلامي) لمجموعة من الأساتذة ص 503، جوانب من الحياة في المغرب الأوسط لبوعياد ص 81. Les monuments arabes de Tlemcen, p 285.
Les monuments arabes de Tlemcen, p 285.

(2) انظر: الجزائر في التاريخ (العهد الإسلامي) لمجموعة من الأساتذة ص 500، جوانب من الحياة في المغرب الأوسط لبوعياد ص 81، جولة عبر مساجد تلمسان لرشيد بورويبة، مجلة الأصالة، العدد 26، ص 178. Les monuments arabes de Tlemcen, p 240.

أضف إلى ذلك أن ملوك بني زيان كانوا مهتمـين بتعمـير المكتبـات خدمـة للطلبـة، ومـن الأمثلة الحية على ذلك أن أبا حمو موسى قد أسس خزانة وسع فيها على الطلبة والـراغبين في العلم[1]، وهذه الخزانة امتدت آثارها إلى القرن التاسع، بل ربما قد تزداد ضخامة واتساعا مع توالي السنين وازدهار الحياة العلمية، وإن كانت المصادر التـي بـين يـدي لا تسـعفني بـذلك، ولكن هذا الاستنتاج ليس بعيدا عن الحقيقة بالنظر إلى المعطيات العلمية والثقافية السائدة وقتئذ.

المطلب الثاني: نتائج النهضة العلمية

كان لمؤشرات النهضة العلمية في القرن التاسع إفرازاتٌ ونتائجُ ملموسـةٌ في الواقـع، وقـد تمثـل ذلك في ظهور الكثير من العلماء، الذين ساهموا في تطوير الحياة العلمية والفكرية في هذا القـرن، رغم تدهور الأحوال الاجتماعية والسياسية، وقد كانت إسهاماتهم متنوعـة، إذ اشـتغلوا بالتـدريس فكوّنوا خلفاءهم من العلماء والأئمة، وشاركوا في التأليف فتركوا للأجيال تراثا علميا زاخرا، وشـاركوا في حركة الإصلاح ضد بعض التيـارات المنحرفـة التـي ظهـرت عـلى مسرح الأحـداث فعملـوا عـلى تجنيب المجتمع من الوقوع فيها...

وعــن الإنتــاج العلمــي في هــذا القــرن يقــول الــدكتور أبــو القاســم ســعد اللـــه: ((يعتــبر إنتــاج القــرن التاســع... مــن أوفــر إنتــاج الجزائــر الثقــافي، ومــن أخصــب عهودهــا بأســماء المثقفــين (أو العلــماء) والمؤلفــات، وفي إحصــاء سريــع أجريتــه لأســماء

(1) تلمسان عبر العصور ص (207).

العلماء المنتجين خلال القرن التاسع والعاشر والحادي عشر والثاني عشر وجدت أن عددهم في القرن التاسع يفوق أعدادهم في القرون الباقية متفرقة... وكثير من إنتاج القرن التاسع ظل... موضع عناية علماء القرون اللاحقة...))[1].

ويمكن إبراز معالم هذه النهضة من خلال النقاط التالية:

أولا ـ الهيئة العلمية بتلمسان وانتشار حركة التأليف

1 ـ **طبقة شيوخ السنوسي**

أنجبت تلمسان في هذا القرن عدداً هائلا من العلماء في مختلف الفنون، وخاصة في علوم الشريعة وما يتبع ذلك من علوم الآلة، ونظرا لعددهم الكبير مع تنوع معارفهم وعلو أسانيدهم، فيبدو أن الشيخ ابن زكري قد استغنى عن الهجرة في طلب العلم، واكتفى بما أخذه عن مشايخ تلمسان. وسأورد فيما يلي أشهر هؤلاء العلماء، بادئا بطبقة شيوخ السنوسي، ثم طبقة أقرانه وتلاميذه:

1 ـ الإمام أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد الرحمن محمد المغرواي، المعروف بابن زاغو.

2 ـ الإمام أبو الفضل القاسم بن سعيد محمد بن محمد التجيبي العقباني التلمساني

3 ـ الإمام ابن مرزوق الحفيد.

4 ـ الإمام أبو عبد الله محمد بن العباس العبادي التلمساني، الشهير بابن عباس.

---

(1) تاريخ الجزائر الثقافي (25/1).

5 ـ الإمام أبو عبد الـلـه محمد بن محمد بن أحمد بن عيسى المغـيلي التلمسـاني الشـهير بالجلاب، أحد فقهاء تلمسان الحافظين لمسائل الفقه، وقد نقل عنه المـازوني والـونشريسي في نوازلهما، توفي سنة 875هـ[1].

6 ـ الإمام أبو عبد الـلـه محمد بـن إبـراهيم بـن عبـد الـرحمن التلمسـاني، الشـهير بـابن الإمام، الفقه الإمام الصدر الجامع بين المنقول والمعقول، وهو الذي تزاحم الناس على مجلسه في دمشق، حينما زار بيت المقدس. توفي سنة 845هـ[2].

7 ـ الإمام أبو عبد الـلـه محمد بن أحمد بن النجار، الإمام الفقيـه المشـارك في العلـوم النقليـة والعقلية.، توفي سنة 846هـ[3].

8 ـ الإمام أبو عبد الـلـه محمد بن أحمد بن يحيى الحباك التلمساني، الإمام الفرضي الفلكي، له بغية الطلاب في علـم الاسـطرلاب[4]، وتحفـة الحسـاب في عـدد السـنين والحسـاب ، تـوفي سـنة 868هـ[5].

9 ـ الشـيخ أبـو عـلي الحسـن بـن مخلـوف الراشـدي، الشـهير بأبركـان، الإمـام الفقيـه

---

(1) انظر ترجمته في: البستان ص (236)، تعريف الخلف (127/1)، شجرة النور (264/1)، نيل الابتهاج ص (552).

(2) انظر ترجمته في: البستان ص (220 ـ 221)، نيل الابتهاج ص (521 ـ 522)، درة الحجـال (289/2)، رحلـة القلصـادي ص (108).

(3) انظر ترجمته في: رحلة القلصادي ص (102)، البستان ص (221 ـ 222)، نيل الابتهاج ص (525).

(4) الاسطرلاب: علم يعنى باستعمال مقياس لضبط ارتفاع الكواكب.

(5) انظر ترجمته في: رحلة القلصادي ص (108)، البستان ص (219)، نيل الابتهاج ص (543).

الولي الصالح، الذي كان مقصد العامة والخاصة. توفي سنة 857هـ[1].

10 ـ الإمام أبو عبد اللـه محمد الشريف الإمام الصدر العالم الحسيب ،توفي سنة 847 هـ[2].

2 ـ **طبقة أقران السنوسي وتلاميذه**

1 ـ الإمام محمد بن أحمد بن قاسم بن سعيد العقباني، الفقيه العالم العلامة البارع، قاضي الجماعة بتلمسان، توفي سنة 871هـ[3].

1 ـ الإمام أبو البعاس أحمد بن زكري التلمساني، العلامة الصالح الفاضل المتكلم الفقيه المحدث، توفي سنة 900هـ[4].

2 ـ الحافظ أبو عبد اللـه محمد بن عبد اللـه بن عبد الجليل التنسي، التلمساني من أكابر علماء تلمسان[5].

4 ـ الإمام أبو زكريا يحيى بن موسى المازوني، الفقيه النوازلي صاحب الدرر

---

(1) انظر ترجمته في: البستان ص (74 ـ 93)، نيل الابتهاج ص (161 ـ 162).

(2) انظر ترجمته في: رحلة القلصادي ص (99 ـ 100)، البستان ص (222)، نيل الابتهاج ص (526).

(3) انظر ترجمته في: البستان ص (224)، نيل الابتهاج ص (547 ـ 548).

(4) انظر ترجمته في: ثبت الوادي آشي ص (436 ـ 446)، نيل الابتهاج ص (563 ـ 572)، شجرة النور ص (266)، تعريف الخلف (179/1 ـ 189).

(5) انظر ترجمته في: ثبت الوادي آشي ص (318)، نفح الطيب (574/2)، نيل الابتهاج ص (572 ـ 573)، البستان ص (208)، الضوء اللامع (120/5).

المكنونة في نوازل مازونة، توفي بتلمسان سنة 883هـ /1478م[1].

5 ـ الإمام أبو العباس أحمد بن حسن الغماري، الفقيه التلمساني، توفي سنة 874هـ بتلمسان[2].

6 ـ أبو عبد اللـه محمد بن قاسم الأنصاري التلمساني، المعروف بالرصاع، الفقيه العالم العلامة الصالح المفتي، نشأ بتلمسان، ثم انتقل إلى تونس وولي قضاءها، توفي سنة 894هـ/1489م[3].

7 ـ الإمام محمد بن عبد الرحمن الحوضي، العالم الأصولي الشاعر المكثر، نشأ بتلمسان وتعلم بها. توفي سنة 910هـ بتلمسان[4].

8 ـ الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي: الإمام العالم العلامة خاتمة المحققين، وهو الذي اشتهر بمواجهته ليهود توات، توفي سنة 909هـ[5].

---

(1) انظر ترجمته في: نيل الابتهاج ص (637)، وتعريف الخلف (189/1)، تاريخ الجزائر العام (286/2).

(2) انظر ترجمته في: البستان ص (31 ـ 38)، نيل الابتهاج ص (121)، تعريف الخلف (57/2 ـ 58)، معجم أعلام الجزائر ص (65)، تلمسان عبر العصور ص (224).

(3) انظر ترجمته في: البستان ص (283)، الضوء اللامع (287/8)، نيل الابتهاج ص (560 ـ 561)، توشيح الديباج ص (216).

(4) انظر ترجمته في: البستان ص (252)، نيل الابتهاج ص (579)، تعريف الخلف ص (404/2 ـ 407).

(5) انظر ترجمته في:البستان ص (253 ـ 257)، نيل الابتهاج ص (576 ـ 579)، دوحة الناشر ص (130)، تعريف الخلف (170/1 ـ 173)، شجرة النور (274/1).

9 ـ الإمام أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي، الفقيه الإمام الأصولي النوازلي، صاحب كتاب المعيار المعرب، أخذ عن علماء تلمسان، ثم انتقل إلى فاس، توفي سنة 914هـ /1508 م[1].

10 ـ الإمام أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن أبي العيش، الفقيه الأصولي، رحلت عائلته من الأندلس، واستوطنت تلمسان، وبهاو لد وأخذ عن علمائها، توفي سنة 911هـ[2].

ثانيا ـ تنوع المعارف العلمية وكثرة الكتب المعتمدة

تظافرت جهود علماء تلمسان، واختصاصاتهم المختلفة، فكانت العلوم المتداولة كثيرة، وكثرت معها المصنفات المعتمدة، وسأقتصر فيما يلي على علوم الشريعة وفق الترتيب الآتي[3]:

1 ـ **ففي القرآن وعلومه** نجد: الكشاف للزمخشري، التفسير الكبير للرازي، المحرر الوجيز لابن عطية الأندلسي، أحكام القرآن لأبي بكر بن العربي، أنوار التنزيل للبيضاوي، والشاطبية، الدرر اللوامع في مقرئ الإمام نافع، ونظم الخراز في رسم القرآن.

---

(1) انظر ترجمته في: دوحة الناشر ص (47 ـ 48)، البستان ص (53)، نيل الابتهاج ص (135 ـ 136)، درة الحجال (91/1 ـ 92).

(2) انظر ترجمته في: نيل الابتهاج ص (279 ـ 580)، البستان ص (252 ـ 253)، شجرة النور (274/1)، تلمسان عبر العصور ص (227).

(3) سأعود إلى ذكر هذه الكتب في النشأة العلمية لابن زكري، مع بيان المصادر.

2 ـ **وفي الحديث وعلومه** نجد: الموطأ للإمام مالك، مسند الإمام أحمد، الصحيحين، كتب السنن الأربعة، سنن الدارقطني، مقدمة ابن الصلاح، الروضة في مصطلح الحديث لابن مرزوق الحفيد، وهي منظومته الكبرى، الحديقة في علم الحديث وهي منظومته الصغرى.

3 ـ **وفي أصول الدين** نجد: مؤلفات أبي بكر الباقلاني، والإرشاد للجويني، وأبكار الأفكار للآمدي، والطوالع للبيضاوي، ومصل آراء المتقدمين للرازي، ومختصر العقباني في أصول الدين، عقائد الإمام السنوسي

4 ـ **وفي أصول الفقه والقواعد الفقهية** نجد: البرهان للجويني، والمستصفى للغزالي، وقواعد الأحكام في مصالح الأنام للعز بن السلام، ومختصر ابن الحاجب وشروحه، وشرح تنقيح الفصول، ونفائس الأصول للقرافي، المنهاج للبيضاوي، مفتاح الوصول للشريف التلمساني، والفروق للقرافي، والأشباه والنظائر للعلائي وإرشاد العميري.

5 ـ **وفي الفقه نجد:** المدونة الكبرى، الواضحة لابن حبيب، التهذيب للبراذعي، التفريع لابن الجلاب، التلقين للقاضي عبد الوهاب، التبصرة للخمي، البيان والتحصيل لابن رشد الجد، مختصر ابن الحاجب الفرعي، مختصر خليل وشروحه، المتيطية، ورسالة ابن أبي زيد القيرواني وشروحها.

6 ـ **وفي اللغة** نجد: كتاب سيبويه، والإيضاح للفارسي، وشرح الإيضاح لابن أبي الربيع، والكافية والألفية والتسهيل لابن مالك، والمغني لابن هشام.

7 ـ **وفي التصوف:** شرح الحكم العطائية لابن عباد، ولطائف المنن، وتأليف

أبي يحيى الشريف على المغفرة، وإحياء علوم الدين للغزالي، ومختصره للبلالي.

8 ـ **المنطق** نجد: المباحث المشرقية للرازي، جمل الخونجي وشروحه، مختصر السنوسي في المنطق وغير ذلك.

ثالثا ـ انتشار فقه النوازل، والمراسلات.

إن لفقه النوازل أهمية كبرى باعتباره إجابة عن تساؤلات واقعية بعيدة عن الافتراض، لذلك يجد الإنسان في كتب النوازل والفتاوى ما لا سبيل إلى الحصول عليه في الكتب الفقهية المعتمدة، وكان لعلماء تلمسان دور بارز في هذا المجال، وقد اشتهر من بينهم المازوني بكتابه الدرر المكنونة في نوازل مازونة وهو من طبقة السنوسي، كما اشتهر الونشريسي بكتابه المعيار المعرب.

كما عرف القرن التاسع مجموعة من القضايا استثارت فضول العلماء واهتماماتهم، فكانت بذلك مواضيع مراسلات جرت بينهم، ومن أهم القضايا التي تراسل العلماء فيها قضية يهود توات الذين اشتدت شوكتهم في الصحراء الجزائرية، فوقف الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي في وجههم، وعارضه في ذلك العصنوني قاضي توات، فراسل المغيلي في ذلك علماء تلمسان وفاس.

وكان من بين من أجابه من التلمسانيين الحافظ التنسي والعلامة السنوسي والإمام ابن زكري.

رابعا ـ الهجرة إلى تلمسان طلبا للعلم

كان لهذه النهضة العلمية بتلمسان أثرها البارز في استقطاب طلبة العلم إليها للاستفادة من علمائها.

ومن نماذج الرحلات العلمية إلى تلمسان أذكر على سبيل المثال رحلة العلامة القلصادي، والإمام أبي الفضل المشدالي، وأبي جعفر الوادي آشي.

خامسا ـ انتشار التعليم في أوساط العامة والطبقات الشعبية

كان في تلمسان ما يربو عن ستين مسجدا، يؤمه العلماء والفقهاء، كما انتشرت فيها الزوايا التي يؤمها المريدون من مختلف الطبقات الشعبية، وإذا كانت المدارس الكبرى في هذه المدينة بمثابة جامعات لا يلتحق بها إلا طلبة العلم الذين استكملوا الدراسة الأولية، فإن المساجد والزوايا كانت بمثابة مراكز إشعاع للعامة الذين كانوا يتلقون فيها مبادئ العلوم الأساسية والضروري من علوم الشريعة، ولهذا فلا عجب إذا انتشر التعليم في كل الأوساط، وفي مختلف المدن والقرى[1].

* * *

(1) انظر: الجزائر في التاريخ ص (437)، والإمام أبو يوسف السنوسي وعلم التوحيد ص (46)

الفصل الثاني

التعريف بالإمام السنوسي

وكتابه شرح صحيح البخاري

* المبحث الأوّل: اسمه ونسبه ومولده[1]

---

(1) أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر (331/2)، أعلام الفكر والتّصوّف بالجزائر ما قبل الميلاد إلى القرن السّادس عشر الميلادي. عبد القادر بوعرفة هلالي. دار الغرب (2004م). (ص80)، الأعلام. قاموس تراجم لأشهر الرّجال والنّساء من العرب والمستعربين والمستشرقين. خير الدّين الزّركلي. دار العلم للملايين، بيروت، لبنان. الطّبعة الخامسة عشر (2002م). (154/7)، الإنتاج الفكري الجزائري المخطوط في المكتبة الوطنيّة الجزائريّة. إعداد الطّالبة: فتيحة بونفيخة. (1998م ـ1999م). (ص159)، إيضاح المكنون في الذّيل على كشف الظّنون عن أسامي الكتب والفنون. إسماعيل باشا بن محمّد أمين البغدادي. عني بتصحيحه وطبعه على نسخة المؤلّف: المعلّم رفعت بيلكه الكليسي. دار إحياء التّراث العربي. (109/2، 448، 651)، باقة السّوسان (ص511، 513). البستان (ص237، 248)، تاريخ الأدب العربي. د/عمر فرّوخ. دار العلم للملايين. الطّبعة الثّانية (1992م). (77/6، 68، 59)، تاريخ الجزائر الثّقافي (95/1، 96)، تعريف الخلف برجال السّلف. أبو القاسم محمّد الحفناوي. تحقيق: محمّد أبو الأجفان و عثمان بطّيخ. مؤسّسة الرّسالة. الطّبعة الأولى (1402هـ/ 1982م). (176/1، 188)، درّة الحجّال في أسماء الرّجال. أحمد ابن قاضي شهبة. تحقيق: محمّد الأحمدي، مطبعة التّراث. الطّبعة الأولى (1391هـ/1971م). (141/2، 142)، دوحة النّاشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر. محمّد بن عسكر الحسني الشّفشاوني. تحقيق: محمّد حجّي. (1397هـ/1977م). (ص89، 90)، شجرة النّور الزّكيّة. محمّد بن محمّد مخلوف. المطبعة السّلفيّة ومكتبتها (1349هـ). (266/1)، الفكر السّامي في تاريخ الفقه الإسلامي. محمّد بن الحسن الحجوي الثّعالبي. تحقيق: أيمن صالح شعبان. دار الكتب العلميّة. الطّبعة الأولى (1416هـ/1995م). (310/2)، القول الأحوط. جورج دولفان، مخطوط بالمكتبة الوطنيّة الجزائريّة برقم (3185).(ص46، 47)، كشف الظّنون. حاجّي خليفة. عني بتصحيحه وطبعه وترتيبه: محمّد شرف الدّين و رفعت الكليسي. دار إحياء التّراث العربي. (170/1، 1626/2، 1539، 1501، 1158، 1157)، كشّاف معجم المؤلّفين. د/

=

المطلب الأوّل: ضبط اسمه ونسبه

لقد أثبت المترجمون والمفهرسون اسمه على النّحو الآتي: أبو عبد الله محمّد بن يوسف بن عمر بن شعيب السّنوسي الحسني التّلمساني، وبعدها يتوّقفون عن إيراد سلسلة النّسب.

لكن بعد البحث، وقفت على سلسة كاملة لنسبه، تنتهي إلى رسول الله، فقد ذكر صاحب القول الأحوط نسبه الكامل، وهو: أبو عبد الله محمّد بن يوسف بن عليّ بن محمّد بن عيسى بن محمّد الكرماني بن الحسن بن موسى بن عمر بن عمران بن عبد الله بن إبراهيم بن محمّد بن أحمد بن رابح بن عبد الله بن محمّد بن إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنّى بن الحسن السّبطي بن عليّ بن أبي

فرّاج عطا سالم. مكتبة الملك فهد. الطّبعة الأولى (1419هـ/1999م). (2075/4)، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الدّيباج، أحمد التّنبكتي (1738). (ص445، 452)، مخطوط مجهول المؤلّف (رقم13/ 2396). (اللّوحة 47ظ، 49ظ)، مخطوطات المؤلّفين الجزائريّين في المكتبة الوطنيّة الجزائريّة -فهرس فانيان ـ رسالة ماجستير، الأستاذ عبد القادر أوقاسي، إشراف الدّكتور عبّاس صالح طاشكندي، جامعة الجزائر، معهد علم المكتبات التّوثيقيّة (1996م/ 1997م). (ص191، 192)، معالم الأدب العربي في العصر الحديث. عمر فرّوخ. دار العلم للملايين. الطّبعة الأولى (1985م). (103/1، 83/2)، معجم أسماء العرب موسوعة لأسماء العرب. جامعة السّلطان قابوس. مكتبة لبنان. إشراف محمّد بن الزّبير. مطبعة مسقط. الطّبعة الثّانية (1411هـ/1991م). (850/1)، معجم أعلام الجزائر. عادل نويهض. المكتب التّجاري. الطّبعة الأولى (1971م). (ص189)، معجم المؤلّفين. عمر رضا كحّالة. اعتنى به وجمعه وأخرجه: مكتب تحقيق التّراث بمؤسّسة الرّسالة. مؤسّسة الرّسالة. الطّبعة الأولى (1414هـ/1993م). (132/12).

طالب رضي اللـه عنه وابن فاطمة بنت رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم [1].

المطلب الثّاني: التّفصيل في كنيته ونسبته:

كنيته: أبو عبد اللـه، إمّا باعتبار اسمه محمّد، لأنّ العرب ـ بعد الإسلام ـ كانت تكنّي من اسمه محمّد، بأبي عبد اللـه، أو لأنّ ابنه البكر، اسمه عبد اللـه، ولم أقف على أسماء أبنائه، بل وقفت على أنّ له ابنا تأثّر بموته.

السّنوسي: نسبة إلى بني سنوس، قبيلة معروفة بالمغرب بقرب تلمسان، قال جورج دولفان: "ولا أصل لقول بعضهم نسبته إلى سنوسة، بلدته التي نشأ بها"[2]، وبهذه النّسبة غلبت شهرته على باقي النّسب، بلْه عن اسمه.

وقال الحجوي: "ونسبته إلى قبيلة قربها من البربر"[3]، أي أنّ القبيلة التي ينتمي إليها اسمها "بني سنوس".

الحسني: نسبة للحسن بن عليّ رضي اللـه عنه، سبط رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم، وهناك من يذكر عبارة الحسيني، نسبة للحسين رضي اللـه عنه، لكن أغلب روايات النّسب تضيفه إلى ذرّيّة الحسن دون الحسين، ونسبته إلى الحسن بن عليّ رضي اللـه عنه، من جهة أمّ أبيه، فهي شريفة حسنيّة.

---

(1) القول الأحوط (ص46).

(2) الفكر السّامي في تاريخ الفقه الإسلامي (مجلّد2/قسم4/ص310).

(3) معجم المطبوعات العربيّة والمعرّبة. ترتيب: يوسف إليان سركيس. مطبعة سركيس بمصر. (1346هـ/1928م). (1058/1)، المنجد في اللّغة والأعلام (369/2).

التّلمساني: وهي أصل مولده ونشأته ووفاته، وتلمسان عاصمة الزّيانيّين في تلك الحقبة، ومهد العلم والعلماء.

وهناك من يضيف نسبا أخرى للشّيخ منها:

المغربي: نسبة إلى المغرب العربي، فهذه نسبة عامّة، ونسبته لتلمسان خاصّة.

المالكي: نسبة إلى مذهبه الفقهي، وهو مذهب مالك بن أنس رحمه الله.

الأشعري: نسبة إلى مذهبه في العقيدة، وهو مذهب أبي الحسن الأشعري رحمه الله.

الجنيدي: نسبة إلى طريقته في السّلوك، وهي طريقة الإمام الجنيد رحمه الله.

التّوحيدي: نسبة إلى تأليفه في علم التّوحيد، وغلبة تأليفه في هذا الفنّ، أكثر من غيرها من الفنون[1].

المطلب الثّالث: تحقيق القول في بعض نسبه:

صاحب القول الأحوط يقول تارة في نسبه: أبو عبد الله محمّد بن يوسف، وتارة أخرى: أبو عبد الله محمّد بن محمّد بن يوسف، وهذه النّسبة الأخيرة، فيها سهو في عبارة "محمّد" الثّانية[2]، والصّواب أنّ اسم والده "يوسف".

كما وقع بعض الخلاف في جدّ السّنوسي، فجلّ المترجمين والمفهرسين، يثبتون له

---

(1) تعريف الخلف برجال السّلف (179/1).

(2) القول الأحوط (ص47)، وقد وردت نسبة "محمّد بن محمّد" أيضا، في: صحيح مسلم. للإمام مسلم مع شرحه المسمّى إكمال إكمال المعلم للأبّي. وشرحه المسمّى مكمّل إكمال الإكمال للسّنوسي. ضبطه وصحّحه: محمّد سالم هاشم. دار الكتب العلميّة. الطّبعة الأولى (1415هـ/1994م). (8/1).

اسم "عمر"، أي محمّد بن يوسف بن عمر، لكـن ورد في القـول الأحـوط اسـم جـدّه "عـليّ" تارة، وتارة أخرى اسم جدّه "يوسف"، وفي معجم المطبوعات العربيّة ورد اسم "الحسن"، أي "محمّد بن يوسف بن الحسن"، وفي هديّة العارفين، وأحد الفهارس "...ابن الحسين"[1].

وقد ورد عند جلّ المترجمين اسم الجدّ الثّاني "شعيب"، لكن في القـول الأحـوط، ورد اسـم "محمّد"، أي محمّد بن يوسف بن عليّ بن محمّد، وهذا وهم مـن صـاحب القـول الأحـوط، ممّا يجعلنا نشكّ في بعض رجال سلسلة النّسب، الّتـي أوصـلها إلى رسـول اللــه صـلى اللــه عليه وسلم، والصّواب في أجداده، كما ورد في مصادر التّرجمة، كالبستان وتعريف الخلف هو: "محمّد بن يوسف بن عمر بن شعيب"، فهذه هي السّلسـة المتّفـق عليهـا، إذ أنّ الحفنـاوي نقل عن ابن مريم، وهذا الأخير عن تلميذ الشّيخ السّنوسي، وهو الشّيخ الملاّلي.

المطلب الرّابع: مولده:

نورد بعض تواريخ مولده عند بعض المترجمين والمفهرسين:

ـ ولد سنة (830هـ)[2].

---

(1) القول الأحوط (ص46، 47)، معجم المطبوعات العربيّة والمعرّبة (1058/1)، هديّة العـارفين أسـماء المـؤلّفين وآثـار المصنّفين. إسماعيل باشا البغدادي. طبع بعناية وكالة المعارف الجليلـة في مطبعتهـا البهيّـة. إسـتانبول (1951م). (216/6)، فهرس الكتب العربيّة بدار الكتب المصريّة (ج1/الملحق/ص238).

(2) شجرة النّور الزّكيّة (266/1).

ـ ولد بعد الثّلاثين وثمانمائة[1].

ـ ولد سنة (832هـ) [2].

ـ بعض المصادر لم تحدّد تاريخا معيّنا، بل ذكرت بأنّه من مشايخ المائة التّاسعة[3].

ـ مصادر أخرى كتعريف الخلف، لم تشر إلى تاريخ مولده نهائيّا، وربّما شكّ الحفناوي في تاريخ ميلاده فتركه مبهما، فقال نقلا عن الملاّلي: "وأخبرني قبل موته بنحو عامين، أنّ سنّه خمس وخمسون سنة"، وكان قد نَقَل قبلها أنّه توفّي سنة (895هـ)، فيكون بهذا تاريخ مولده سنة (838هـ)، ويكون قد عاش سبعا وخمسين سنة.

وفي رواية أخرى للحفناوي: "ورأيت مقيّدا عن بعض العلماء، أنّه سأل الملاّلي المذكور عن سنّ الشّيخ، فقال له: مات عن ثلاث وستّين سنة"، وقوله هذا يدلّ على أنّه ولد سنة (832هـ)، فانظر إلى هذا الاضطراب الذي وقع فيه الحفناوي،

(1) البستان (ص244)، فهرس المخطوطات العربيّة المحفوظة في الخزانة العامّة برباط الفتح "المغرب الأقصى". اعتناء: عبد الله الرّجراجي وعلّوش. المكتبة الشّرقيّة والأمريكيّة باريس. مطبعة الزّوال. الدّار البيضاء. (1954م). القسم (245/2).

(2) الأعلام (154/7)، تاريخ الأدب العربي (59/6)، مكمّل إكمال الإكمال (8/1)، معجم المؤلّفين (132/12)، معجم مشاهير المغاربة. تنسيق: د/أبو عمران الشّيخ. تقرير: د/ناصر الدّين سعيدوني. الجزائر. (1995م). (ص292).

(3) دوحة النّاشر (ص121).

ولم يرجّح شيئا مع أنّه اعتمد في النّقل على تلميذه [1].

لكن ممّا سبق، يمكن ترجيح سنة ميلاده في (832هـ)، وهو ما ذكره ثلّة من المترجمين، فيكون التّرجيح من باب الأغلب والكثرة.

أمّا مكان مولده، فلم يختلف في ذلك مترجم، أنّه ولد ببلدة بني سنوس بتلمسان.

*** المبحث الثّاني: نشأته وطلبه للعلم[2]**

المطلب الأوّل: نشأته

نشأ السّنوسي في كنف عائلة ذات علم ودين، فوالده أبو يعقوب يوسف، كان من علماء زمانه بتلمسان، وعلى عادة أهل العلم في ذلك الزّمن وقبله، أنّهم يبعثون بأبنائهم إلى معلّمي القرآن الكريم، فهو أوّل علم ينبغي أن يحفظ تلقينا، فبه يملك الصّبيّ سليقة اللّغة، ومنه ينطلق للعلوم الأخرى.

وهكذا كان شأن الوالد مع ابنه، فقد أرسل به إلى بعض زوايا المدينة، فحفظ القرآن الكريم في زمن الصّبا، وتلقّى بعده بعض مبادئ العلوم، الّتي هي مفاتيح للمبتدئ، فقد أخذ مبادئ النّحو أوّلا، وهي مبادئ تعين على إقامة اللّسان، وفهم السنّة والقرآن، ويظهر أنّه قد لقّن كتاب الآجروميّة، واستحضره على شيخه في

---

(1) تعريف الخلف برجال السّلف (186/1، 187).

(2) قد استفدنا هذه النّشأة من خلال بعض كتب التّراجم، ودراسة مؤلّفاته الموقوف عليها، أمّا التّفصيل في نشأته، فهو أمر منعدم.

النّحو، وأخذ الفقه المالكي على يد أخيه لأمّه، إذ لقّنه الرّسالة لابن أبي زيد، وهو التّأليف الذي كان يدرّس للتّلاميذ المبتدئين.

كما حصّل مبادئ البيان والمعاني والبديع، على يد الشّيخ محمّد بن العبّاس العبّادي، والتّوحيد ومبادئ المنطق، على يد أبي القاسم الكنّباشي.

هذا جملة ما أخذه في الصّغر، أمّا في مرحلة شبابه، فبعد تحصيله لمبادئ العلوم، فقد شرع في تلقّي الكتب المطوّلة، في مختلف فنون العلم النّقليّة والعقليّة.

المطلب الثّاني: أسرته

أطلعتنا كتب التّراجم، أنّ السّنوسي وليد أبوين شريفين، فوالده بزغ شرفه في العلم، فكانت عائلة السّنوسي، تضاهي عائلة ابن مرزوق والعقباني وابن زكري والمغيلي، كما أنّ والدته قد عملت على تنشئته أفضل تنشئة، وجدّته ـ أمّ أبيه ـ شريفة حسنيّة، من سلالة الحسن بن عليّ رضي الله عنهما، ولوالده زوجة أخرى وهي أمّ التّالوتي، وقد تكون هذه الزّوجة أسبق من أمّ السّنوسي، باعتبار أنّ التّالوتي كان من شيوخ السّنوسي ـ ولم أقف على تاريخ ولادته ـ إلاّ إذا كان لوالد السّنوسي ابن أكبر منه.

ولمّا شبّ في العلم ونافس أهله، فإنّ المرء يحتاج إلى من يعينه على نوائب دهره ومتاعب يومه، ولهذا لم يشغله طلب العلم عن بعض متاع الدّنيا، فاختار زوجة كان له منها ابن وبنت، ويحتمل أن يكون له أكثر من ذلك، وهذا الابن قد ورد ذكره في قصيدة الحوضي، عند رثاء شيخه السّنوسي، إذ بيّن فيها، حال احتضار

والدها، فقالت ابنته[1]: "**تمشي وتتركني؟**"، أمّا باقي أسرته الكبيرة والصّغيرة، فلم نقف على شيء من ذلك.

المطلب الثّالث: طلبه للعلم

ذكرنا آنفا أنّه تلقّى مبادئ العلوم ببعض زوايا مكان مولده، ولم تفدنا كتب التّراجم عن زاوية معيّنة تلقّى بها العلم، وكذلك الحال في شبابه، إذ قد شرع في تلقّي الكتب المطوّلة.

ففي **العقيدة:** أخذ لاميّة الجزائري.

وفي **الفقه:** فرعي ابن الحاجب وشروحه، كشرح ابن عبد السّلام وخليل، وفرائض الحوفي والوغليسيّة.

وفي **التّفسير**: الكشّاف والجامع للقرطبي.

وفي **البيان**: مفتاح العلوم وشرحه للقزويني.

وفي **اللّسان واللّغة**: الصّحاح ولسان العرب.

وفي **الحديث:** كتب الصّحاح والسّنن.

وفي **المنطق:** الجمل للخونجي.

وفي **الفلك:** بغية الطّلاّب في علم الإسطرلاب[2].

---

(1) البستان (ص244)، تعريف الخلف برجال السّلف (186/1).

(2) **الإسطرلاب**: هو علم يبحث فيه عن كيفية استعمال آلة معهودة، يتوصّل بها إلى معرفة كثير من الأمور النّجومية، على أسهل طريق وأقرب مأخذ، مبيّن في كتبها كارتفاع الشمس، ومعرفة

=

وفي **الطّبّ**: مؤلّفات ابن سينا.

وفي **الحساب**: مؤّلفات ابن الياسمين.

كما قرأ مؤلّفات كثيرة، كان عليها مستنده في التّأليف فيما بعد، كما قرأ كتب الخصوم، والفرق في العقيدة، خاصّة ككتب الجبريّة والمعتزلة والقدرّية والمرجئة، ومن خلال هذه المطالعات والقراءات للكتب المذكورة وغيرها ممّا لم يذكر، اكتسب الشّيخ ملكة على التّأليف، في مختلف فنون العلوم.

وبالنّسبة لرحلاته في الطّلب، فلم تحدّث كتب التّراجم على أسفاره ولا تنقّلاته، لأجل التّحصيل والمزيد في العلم، وما ذاك إلاّ لأنّ تلمسان كانت تزخر بأهل العلم، فلم يتوفّر الدّاعي لانتقال السّنوسي إلى أماكن العلم الكبرى للتّحصيل، كالزّيتونة والقروييّن والأزهر، بل تلسمان كانت زهرة العلم، يفد إليها أهل البلد من بجاية والجزائر ووهران...، كما يفد إليها أبناء البلدان الأخرى، خاصّة أبناء الأندلس، ومن ثمّ فقد اكتفى السّنوسي بما عند أهل تلمسان من علم، ولم يكلّف نفسه عناء المشّقة من غير طائل، اللهمّ إلاّ ما كان من سفره لأداء فريضة الحجّ، فيكون قد التقى ببعض العلماء في طريقه، واستفاد منهم وأفاد.

الطّالع، وسمت القبلة، وعرض البلاد، وغير ذلك. وأوّل من عمل الإسطرلاب هو إبراهيم بن حبيب الفزاري. كشف الظّنون (81/1)، أبجد العلوم. أبو الطّيّب محمّد صديق القنّوجي. دار ابن حزم. الطّبعة الأولى (1423هـ/2002م). (449/1)، المعجم الوسيط. مجمع الّلغة العربيّة جمهوريّة مصر العربيّة. مكتبة الشّروق الدّوليّة. الطّبعة الرّابعة (1425هـ/2004م) (17/1).

المطلب الرّابع: سيرته بعد كهولته إلى وفاته:

لمّا بلغ من العمر أشّده، واكتمل كاهله، وحصّل علمه، فإنّه قد وضع منهجا يسير عليه في حياته، حتّى يكون جامعا بين العلم والعمل، موازاة بين نصيبي الدّنيا والآخرة، ومراعاة لحـقّ اللـه تعالى وحقّ أهله وغيرهم، وقد غلب على منهجـه هـذا، الزّهـد في الـدّنيا والأخـذ منهـا كمثل زاد الرّاكب، وكان أغلب همّه الاشتغال بالآخرة، وإرشاد الغير إليها، ولم يثنـه ذلـك عـن مخالطة أفراد النّاس، متى احتاجوا إليه.

فقـد كـان مـن عادتـه أن يحـافظ عـلى كـلّ صـلواته في المسـجد، فـإذا صـلّى الصّـبح في مسـجده، وضـع لنفسـه وردا مـن الـذّكر والتّسـابيح يقرأهـا، فـإذا فـرغ منـه يـأتي إليـه الطّلبـة، فيقـرأ لهـم بعـض العلـم إلى وقـت الفطـور الـذي اعتـاده، وبعـدها يخـرج إلى النّاس وطالبي الفتوى الذين يكونون عنـد بـاب داره، فيقـف ويـردّ عـلى أسـئلتهم الفقهيّـة وغيرها، فإذا حان وقت الضّحى دخل إلى بيته ويصـلّي الضّـحى، وبعـدها يشـتغل بالمطالعـة بعض الوقت، وربّما بقي كذلك إلى الزّوال، فإذا قربت الشّمس للزّوال، خرج إلى الخلوات فـلا يرجع حتّى الغروب، وفي أحيان أخرى، يبقى في داره بعد مقابلة النّاس إلى الظّهر، ثـمّ يخـرج للمسجد ويصلّي بالنّاس الظّهر، ثمّ يتنفّل أربع ركعات بعده، ويقرأ القرآن، فـإذا حـان وقـت العصر يتنفّل أربعـا ويصـلّيه ويقـرأ القـرآن بعـده، ثـمّ يخـرج مـن المسـجد متّجهـا إلى داره، ليشتغل بالورد إلى الغروب، ثمّ يخرج للمغـرب فيصـلّيه بالنّـاس، ثـمّ يتنفّـل بسـتّ ركعـات، ويبقى هناك حتّى يصلّي العشاء، ويقرأ ما شاء اللـه، ثمّ يقوم لداره وينام ساعة، ثـمّ يتوضّـأ

ويصلّي ويبقى في صلاته تلك، أو في الذّكر إلى طلوع الفجر، وهكذا كان أكثر حاله إلى أن توفيّ رحمه الـلـه تعالى[1].

* **المبحث الثّالث: شيوخـه وتلاميذه**

المطلب الأوّل: شيـوخ السّنـوسي:

* **إبراهيم التّازي الوهراني**[2]: هو الشّيخ أبو إسحاق إبـراهيم بـن محمّـد التّـازي، نزيـل وهران، الإمام شيخ الشّيوخ، فريد عصره، وصاحب الكرامات، أخذ عن: ابن مـرزوق الحفيـد، ولبس الخرقة عن الشّيخ صالح بن محمّد الـزّواوي، وعنـه أخـذ: الشّـيخ السّـنوسي والحـافظ التّنسي والتّالوتي وغيرهم، له تآليف في الفقه والأصول وغيرها، توفيّ سنة (866هــ)، أخـذ عنـه السّنوسي طريق الولاية، وألبس التّازي تلميذه الخرقـة، وحدّثـه بهـا عـن شـيوخه، وبصـق في فمه، وروى عنه كثيرا من المسلسلات وغيرها.

* **أبـو زيـد الثّعـالبي**[3]: هـو الشّـيخ عبـد الـرّحمن بـن محمّـد بـن مخلـوف الجزائـري، ولـد سـنة (786هــ)، يعتـبر علـم الأعـلام، الفقيـه المـفسّر المحـدّث الصّـالح، أخـذ عــن: الأبيّ وابــن مــرزوق الحفيــد والــبرزلي، ومــن تلاميــذه: ابــن مــرزوق الكفيــف والشّــيخ

---

(1) البستان (ص244، 245)، تعريف الخلف برجال السّلف (186/1)، بزيادة وتصرّف.

(2) البستان (ص58، 63)، تعريف الخلف برجال السّـلف (11/1، 16)، دوحـة النّـاشر (ص122)، شـجرة النّـور الزّكيّـة (263/1. رقم 969).

(3) تعريف الخلف برجال السّلف (68/1)، شجرة النّور الزّكيّة (264/1، 265 .رقم976).

السّنوسي والمغيلي، توفّي سنة (876هـ)، أخذ عنه السّنوسي الصّحيحين وغيرهما من كتب الحديث، وأجازه بما يجوز له وعنه.

* **أبو الحجّاج يوسف بن أبي العبّاس أحمد بن محمّد الشّريف الحسني**[1]: أخذ عنه السّنوسي القراءات السّبع، وذكره ابن مريم والحفناوي من شيوخ السّنوسي .

* **أبو الحسن التّالوتي**[2]: هو الشّيخ أبو الحسن عليّ بن محمّد التّالوتي الأنصاري التّلمساني، الفقيه العالم الشّيخ الصّالح، أخذ عن: الحسن أبركان وأبي إسحاق التّازي وغيرهما، وعنه: أخوه لأمّه الشّيخ السّنوسي والملاّلي وجماعة، توفّي سنة (895هـ)، وقد أخذ عنه السّنوسي "الرّسالة" لابن أبي زيد القيرواني.

* **أبو الحسن القلصادي**[3]: هو عليّ بن محمّد القرشي البسطي، الشّيخ الفرضي من أئمّة الأندلس، أخذ عن: ابن مرزوق الكفيف ولد الحفيد، وعنه أخذ: السّنوسي والملاّلي، أخذ عنه السّنوسي الفرائض والحساب، وأجازه في الأخذ عنه، من تآليفه: شرح إيساغوجي، والمستوفي لمسائل الحوفي، توفّي بباجة تونس سنة (891هـ).

* **أبو العبّاس أحمد بن زاغ**[4]: أورده ابن عسكر ولم يذكره غيره، وربّما هو أحمد

---

(1) البستان (ص238)، تعريف الخلف برجال السّلف (180/1). ولم أقف على ترجمته.

(2) باقة السّوسان (ص438، 439)، البستان (ص139، 141)، شجرة النّور الزّكيّة (266/1 رقم983).

(3) الأعلام (10/5)، البستان (ص141، 143)، معجم المؤلّفين (230/7).

(4) دوحة النّاشر (ص122).

ابن عبد الرّحمن، الشّهير بابن زاغو المغراوي التّلمساني، الفاضل العالم العابد، ولده سنة (782هـ)، أخذ عن: سعيد العقباني وأبي يحيى الشّريف، وعنه: يحيى المازوني والقلصادي، من تآليفه: تفسير الفاتحة، وشرح حكم ابن عطاء الله، توفي سنة (845هـ).

* **أبو عبد الله أقرقار**[1]: ذكره ابن عسكر من شيوخ السّنوسي، ولم يورده غيره.

* **أبو عبد الله بن العبّاس**[2]: هو العالم النّحوي، شارح لامية بن مالك، كما قال ابن عسكر، وقد ذكر كونه من شيوخ السّنوسي ولم يذكره غيره.

* **أبو عبد الله الحبّاك**[3]: هو محمّد بن أحمد بن أبي يحيى التّلمساني، اشتهر بالحبّاك، فقيه فرضي، حاسب فلكي، ناظم، من تصانيفه: بغية الطّلاّب في علم الإسطرلاب، شرح تلخيص ابن البنّاء، شرح على التّلسمانيّة في الفرائض، توفي سنة (867هـ)، أخذ عنه السّنوسي علم الإسطرلاب.

* **أبو عثمان قاسم العقباني**[4]: ذكره ابن عسكر من شيوخ السّنوسي، ولم يذكره أحد غيره، ولعلّه يكون أبو الفضل، وأبو القاسم قاسم بن سعيد، أمّا أبو عثمان، فإنّه والد أبي الفضل، وممّن أخذ عنه: أبو سالم العقباني وابن زكري وابن مرزوق

---

(1) المصدر السّابق (ص122).

(2) المصدر السّابق (ص122).

(3) البستان (ص219، 220)، كشّاف معجم المؤلّفين (1656/3رقم11988)، معجم المؤلّفين (27/9).

(4) البستان (ص147)، تعريف الخلف برجال السّلف (90/1).

الكفيف، له تـآليف منهـا: تعليـق عـلى ابـن الحاجـب الفرعـي، وأرجـوزة تتعلّـق في اجـتماع الصّوفيّة على الذّكر.

* **أبو القاسم الكناشي البجائي**[1]: ذكر الملاّلي أنّه كان إماما صالحا ورعـا، قـرأ عليـه الإمـام السّنوسي وأخوه أبو الحسن التّالوتي "إرشاد" أبي المعالي، وعنه أخذ السّنوسي التّوحيد.

* **أبو يعقوب يوسف السّنوسي (والد الشّيخ)**[2]: وهو عـالم تلمسـان وصـالحها وزاهـدها وكبير علمائها، الشّيخ العلاّمة المتفنّن الصّالح الزّاهد العابد، الأسـتاذ المحقّـق المقـرئ الخاشـع أبو يعقوب يوسف، نشأ خيّرا مباركا فاضلا صالحا.

* **الأيـلي**[3]: أثبته ابن عسكر من شيوخ السّنوسي، ولم يذكره أحـد مـن المترجمـين، والأيـلي هو العالم الرّحّال، أوّل من أدخل علم الكلام إلى المغرب في الأزمنـة المتـأخّرة، والأيـلي ـ باليـاء المثنّاة ـ هو غير الأبلي ـ بالباء الموحّدة ـ فإنّ هذا الأخير توفّي عام (757هـ).

* **الحسن أبركان**[4]: هو الشّـيخ أبـو عـليّ الحسـن بـن مخلـوف، اشـتهر بأبركـان صـاحب الكرامات، أخذ عن: إبراهيم المصمودي وابن مرزوق الحفيد وغيرهما.

---

(1) تعريف الخلف برجال السّلف (33/2) وفي البستان: أبو القاسم الكنباشي بدل الكنّاشي (ص152).

(2) تعريف الخلف برجال السّلف (179/1).

(3) لم يرد ذكر هذا الشّيخ في كتب التّراجم المعتمدة، وورد ذكره في دوحة النّاشر فقط (ص122).

(4) البستان (ص 74 إلى 93)، الشّجرة (262/1)، كفاية المحتاج (لوحة23).

وعنه: أبو عبد اللـه التّنسي والشّيخ علي التّالوتي والسّنوسي، ولازمه هذا الأخير كثيرا، وانتفع به، وأخذ عنه علم الفقه، أثنى عليه الشّيخ السّنوسي وأطال، توفّي سنة (857هـ).

* **محمّد بن أحمد بن عيسى المغيلي**[1]: المعروف بالجلاّب، أبو عبد اللـه التّلمساني قاضي الجماعة بها، العالم الرّحلة، أخذ عنه: الونشريسي والسّنوسي، وقد ختم عليه السّنوسي المدوّنة مرّتين وانتفع به، له: شرح جمل الخونجي وغيره، توفّي سنة (850هـ).

* **محمّد بن توزرت الصّنهاجي**[2]: هو محمّد بن قاسم بن توزرت التّلمساني، كان شيخا صالحا عالما بالمنقول والمعقول، وكان شيخا حسن الخلق، له فهم ثاقب في الفرائض، قرأ عليه السّنوسي جملة من الحساب والفرائض ولزمه كثيرا، لا يعرف تاريخ وفاته، وهو من علماء القرن (9هـ).

* **محمّد بن العبّاس العبّادي**[3]: هو الشّيخ أبو عبد اللـه التّلمساني، الشّهير بابن عبّاس، الإمام العلاّمة، المحقّق النّظّار الفهّامة، المفتي البركة، أخذ عن: ابن مرزوق الحفيد وأبي الفضل العقباني، وعنه جماعة منهم: ابن صعد، التّنسي،

(1) البستان (ص255، 256)، الشّجرة (264/1) رقم (975)، كفاية المحتاج (1738. 120ظ)، وقد ذكر في كفاية المحتاج، بأنّه من شيوخ السّنوسي، أمّا في البستان، فقد أثبت أنّه من أصحابه، وهذا المغيلي هو غير الشّيخ محمّد بن عبد الكريم، فإنّه من تلاميذ السّنوسي.

(2) باقة السّوسان (ص443)، البستان (ص237)، كفاية المحتاج (1738، اللّوحة121).

(3) البستان (ص238)، شجرة النّور الزّكيّة (264/1.رقم974).

والسّنوسي، له من التّأليف: شرح جمل الخونجي، توفّي سنة (871هـ)، أخذ عنه السّنوسي الأصول والمنطق، كما قرأ عليه البيان والفقه.

* **محمّد بن محمّد بن أحمد بن الخطيب بن مرزوق**[1]: المعروف بالكفيف، الشّيخ الإمام، علم الأعلام، وفخر الخطباء، وعمدة العلماء، ولد سنة (824هـ)، أخذ عن: والده المعروف بالحفيد، وأبي الفضل العقباني، وأبي زيد الثّعالبي، والمشدالي وغيرهم، وعنه أخذ أئمّة منهم: حفيد الحفيد ابن مرزوق، والشّيخ السّنوسي، والونشريسي وغيرهم، وتوفّي سنة (901هـ).

* **نصر "أبو نصر" الزّواوي**[2]: هو العالم المحقّق، كان من أكابر تلامذة الإمام ابن مرزوق، وقد لازم السّنوسي كثيرا، وأخذ عنه كثيرا من العربيّة، عاش بتلمسان أثناء القرن (9هـ)، ويجهل تاريخ وفاته.

المطلب الثّاني: تأثير الشّيوخ في شخصيّة السّنوسي:

ظهر تأثير الشّيوخ في التّلميذ واضحا خاصّة في تآليفه، وما اكتسبه من زاد علمي ومعرفي من مجالسهم، فهذا والده الذي أخذ من معينه علم القراءات خاصّة، جعله مبرّزا في هذا العلم، ويقوم بشرح الشّاطبيّة، وهذا شيخه في علم المنطق، محمّد بن العبّاس العبّادي، الشّارح لجمل الخونجي، يؤثّر في تلميذه بهذا

(1) شجرة النّور الزّكيّة (268/1.رقم989)، تعريف الخلف برجال السّلف (149/1.رقم150)، ولم يشر الحفناوي، إلى أنّ السّنوسي من تلاميذ ابن مرزوق الكفيف.

(2) البستان (ص238)، تعريف الخلف برجال السّلف (179/1)، باقة السّوسان (ص440).

العمل، ففتح على التّلميذ، بشرح آخر يضاهي عمل الشّيخ.

كما أنّ تأثّره بشيخه الحسن أبركان والقلصادي، قد ظهر في شرحه لفرائض الحوفي في سنّ مبكّرة، إذ يبدو أنّه اطّلع على شرح شيخه القلصادي، على الحوفي في أيّام طلبه، ممّا جعله يشغف بذلك، فيقوم بشرح مماثل، ولم يكتف بذلك، بل وضع رجزا في أصحاب الفروض، فكان ناظما ناثرا في هذا العلم.

كما أنّ الشّيخ السّنوسي، كان يكنّ احتراما وإجلالا لشيخه أبركان، ما لم يكنّه لغيره من الشّيوخ، وكان يرى فيه الشّيخ سمات النّبوغ والفطنة والذّكاء.

وتآليفه في التّوحيد الّتي اشتهر بها، قد أتت أكُلُها، نتيجة ما أخذه من شيخه أبي القاسم الكنّاشي، الّذي لقّنه علم التّوحيد.

وشيخه الحبّاك الّذي أخذ عنه علم الإسطرلاب، لم يجد عربون وفاء له، إلاّ أن يقوم بشرح كتاب شيخه الموسوم: ببغية الطّلاّب في علم الإسطرلاب.

أمّا شيخه التّازي، فقد بلغ تأثّره به أوجه؛ لأنّه لقّنه الطّريقة في التّصوّف وعلم الباطن، وأصبح سند الطّريقة الصّوفيّة ينتهي إلى السّنوسي.

المطلب الثّالث: تلاميذ السّنوسي:

* **إبراهيم الوجديجي**[1]: ذكره ابن مريم من تلاميذه، وأثبته بهذا الإسم، أمّا في شجرة النّور، فقد ورد اسمه: أبو عبد الله محمّد بن موسى التّلساني، عالمها ومفتيها، ومن أكابر أوليائها، أدرك الشّيخ السّنوسي وطبقته، وأخذ عن: الشّيخ

(1) البستان (ص248)، شجرة النّور الزّكيّة (277/1 رقم1035).

عبد اللـه بن جلال، وعنه أخذ: ولده عبد الرّحمن وأحمد البجائي، كان حيّا سنة (930هـ)، وانظر إلى قول صاحب الشّجرة: أدرك الشّيخ السّنوسي، لكن لم يذكر أنّه من تلاميذه؟

* **إبراهيم بن عبد الجبّار الفجيجي**(1): قال الدّكتور عمر فرّوخ: إبراهيم بن عبد الجبّار الفجيجي، أخذ العلم عن: محمّد بن يوسف السّنوسي، وأثبت الحفناوي اسمه إبراهيم بن أحمد الفجيجي، بدلا من ابن عبد الجبّار، وذكر أنّه لقي بتلمسان الشّيخ السّنوسي وغيره، لكن لم يذكر كون السّنوسي شيخا له، والفجيجي هو: الشّريف الرّحّالة النّاظم النّاثر، أخذ عنه: الشّيخ ابن غازي وأحمد الونشريسي وغيرهما، من تآليفه كتابه "المفيد"، وهو نظم في الدّيانات ضمّنه عيون الفقه، توفّي ببلد السّودان سنة (920هـ).

* **أبو القاسم الزّواوي**(2): ذكره ابن مريم والحفناوي من تلاميذ السّنوسي.

* **أبو عبد اللـه المغيلي**(3): هو محمّد بن عبد الكريم المغيلي التّلمساني، خاتمة الأئمّة المحقّقين والعلماء العاملين، مع البراعة والتّفنّن في العلوم والصّلاح والدّين المتين، أخذ عن: أبي زيد الثّعالبي والشّيخ السّنوسي وجماعة.

---

(1) معالم الأدب العربي في العصر الحديث (199/1)، تعريف الخلف برجال السّلف (7/2، 8).

(2) البستان (ص248)، تعريف الخلف برجال السّلف (188/1).

(3) تعريف الخلف برجال السّلف (170/1، 173)، دوحة النّاشر (ص130، 132)، شجرة النّور الزّكيّة (274/1 .رقم1017).

وعنه: الشّيخ عبد الجبّار الفجيجي وغيره، له تآليف منها: البدر المنير في علوم التّفسير، وشرح بيوع الآجال من ابن الحاجب، وشرح الجمل في المنطق وغيرها، توفّي سنة (909هـ).

* **أبو عثمان المنوئي**[1]: هو أبو عثمان سعيد المنوئي، من أصحاب الشّيخين السّنوسي وابن زكري، وهو من العلماء العاملين والأئمّة المهتدين، أخذ علم الكلام عن الشّيخ أبي عبد الله، وعلم الفقه عن السّنوسي، توفّي في العشرة الثّالثة، وقد ذكر هذا التّلميذ ابن عسكر، ولم يذكره من المترجمين غيره.

* **أحمد بن مهدي الوجدي**[2]: أبو العبّاس، من تلاميذ الشّيخ السّنوسي، قرأ عليه الكلام، وكان عبدا صالحا، وعالما فاضلا، من أهل الفضل والصّلاح، توفّي في العشرة الثّالثة.

* **ابن أبي جيدة**[3]**:** هو أبو العبّاس، أحمد بن محمّد المعروف بابن أبي جيدة الوهراني، الفقيه الإمام، كان يدرس علم الكلام بفاس، وكان من أهل الفضل والدّين والعلم المتين، أخذ عن: السّنوسي مقدّمته الصّغرى وابن مرزوق الكفيف، وعنه أخذ: الشّيخ المنجور وغيره توفي سنة (951هـ)، وذكر ابن

---

(1) دوحة النّاشر (ص 117)، وفي (ص 129)، ذكر أنّه من أصحابه.

(2) قبس من عطاء المخطوط العربي. محمّد المنّوفي. دار الغرب الإسلامي. الطّبعة الأولى (1999م). (211/1). دوحة النّاشر (ص136، رقم 143).

(3) تعريف الخلف برجال السّلف (42/2)، دوحة النّاشر (ص136)، شجرة النّور الزّكيّة (278/1 رقم 1045)، قبس من عطاء المخطوط العربي (211/1).

عسكر، أنّه من أصحاب الشّيخ السّنوسي، ولم يذكر أنّه من تلاميذه.

* **ابن أبي مدين**[1]: أبو عبد اللـه، محمد بـن أبي مـدين التّلمسـاني، الفقيـه الإمـام العـالم الفاضل، أخذ عن: الشّيخ السّنوسي وغيره، وعنه أخذ: أبو عبد اللـه بن العبّاس، الشّـهير بـأبي عبد اللـه، توفي سنة (915هـ)، وفي كفاية المحتاج: كان حيّا قبل (920هـ).

* **ابن الحاج اليبدري**[2]: وهو أحمد بن محمّد بن عـثمان الورنيـدي، عـرف بـابن الحـاج، وذكرت الباحثة بونفيخة اسـمه: ابـن الحـاج العبـدري، وفي تعريـف الخلـف: البيـدري بـدل اليبدري، أخذ عن: ابن زكري والسّنوسي وغيرهما، وعنه أخذ: محمّد بن جلال المـديوني وعبـد الرّحمن اليعقوبي، من أعماله: شرح سينيّة ابـن بـاديس، وشرح الـبردة، تـوفّي في حـدود سـنة (930هـ).

* **ابن صعد**[3]: أبو عبـد اللــه، محمّـد بـن أحمـد بـن أبي الفضـل بـن صـعد، التّلمسـاني الفقيه العلاّمـة، أخـذ عـن: ابـن العبّـاس والتّـنسي والسّـنوسي وغـيرهم، مـن تآليفـه: الـنّجم الثّاقــب فــيما لأوليــاء اللــــه مــن المناقــب، وروضــة الــنّسرين في التّعريــف بالأشــياخ

(1) باقة السّوسان (ص443)، شجرة النّور الزّكيّة (275/1.رقم1024)، كفاية المحتاج (لوحة 12ظ).

(2) الإنتاج الفكري الجزائري (ص159)، باقة السّوسان (ص444)، البستان (ص247)، تعريـف الخلـف برجـال السّـلف (43/2).

(3) البســتان (ص247)، تعريـف الخلـف برجـال السّـلف (151/1)، دوحـة النّـاشر (ص124)، شـجرة النّـور الزّكيّـة (268/1.رقم 990).

الأربعة المتأخّرين، توفّي سنة (901هـ).

* **ابن العبّاس الصّغيّر**[1]: ذكره ابن مريم والحفناوي، وهو محمّد بن محمّد بن العبّاس التّلمساني، الشّهير بأبي عبد الله، الشّيخ الفقيه النّحوي، العالم العلاّمة، أخذ عن: الشّيخ السّنوسي وانتفع به وعن التّنسي وغيرهما، له: مجموع فيه فوائد كثيرة مهمّة، وشرح مشكلات مورد الضّمآن وغيرهما، كان بالحياة سنة (920هـ).

* **ابن مرزوق الكفيف "الابن"**[2]: أبو العبّاس أحمد بن محمّد بن مرزوق الكفيف، اشتهر بالفضل والفقه، أخذ عن: والده الكفيف ومحمّد بن مرزوق والسّنوسي وغيرهم، لم يوقف على تاريخ وفاته، وقد ذكره صاحب الشّجرة عند التّعريف بالسّنوسي، بأنّه من تلاميذه، ولم يذكره غيره.

* **ابن مرزوق الكفيف "الأب"**[3]: أبو عبد الله، محمّد بن محمّد بن أحمد بن الخطيب بن مرزوق، المعروف بالكفيف، الشّيخ الإمام علَم الأعلام، أخذ عن: والده المعروف بالحفيد، وتفقّه عنه وأجازه، وأبي الفضل العقباني، وعنه أخذ أئمّة منهم: حفيد الحفيد ابن مرزوق والشّيخ السّنوسي والونشريسي، توفّي سنة (901هـ).

* **ابن ملّوكة**[4]: هو أبو العبّاس: أحمد بن ملّوكة التّلمساني، كان عالما ماهرا

---

(1) البستان (ص247)، تعريف الخلف برجال السّلف (189/1)، باقة السّوسان (ص443)، شجرة النّور الزّكيّة (276/1).

(2) تعريف الخلف برجال السّلف (149/1)، شجرة النّور الزّكيّة (275/1، 276).

(3) تعريف الخلف برجال السّلف (149/1)، شجرة النّور الزّكيّة (268/1).

(4) البستان (ص247)، دوحة النّاشر (ص135)، ولم يذكر أنّه من تلاميذ السّنوسي.

مجاب الدّعوة، من أشياخ الشّيخ، هبة الـلـه، توفّي بالعشرة الرّابعـة، وقـبره مـزارة بتلمسـان، ورد ذكره في البستان، بأنّه من تلاميذ السّنوسي.

* **زرّوق**[1]**:** أبو العبّاس، أحمد بن أحمـد الـبرنسي الفـاسي، الشّـهير بـزرّوق، الشّـيخ الـوليّ العارف، أخذ عن: المشدّالي والرّصّاع والسّنوسي، وعنه أخذ: الحطّاب الكبير والخـرّوبي الصّـغير وغيرهما، ولد سنة (846هـ)، وتوفّي سنة (899هـ)، له من التّآليف: شرح أسماء الـلـه الحسـنى، تعليق على البخاري، وشرح الوغليسيّة.

* **عبد الجبّار**[2]: أخذ عن الشّيخ السّنوسي بعـض العلـوم، وقـد ورد هـذا العلـم في بعـض المراجع بهذا الاسم المبتور، ويحتمل أن يكون هو عبد الجبّـار الفجيجـي، الـذي سـبق ذكـره، ويُحتمَل غيره؟

* **محمّد بن عبد الرّحمن الحوضي**[3]: الفقيه التّلمساني العالم الأصولي الشّـاعر المكـثر، لـه نظم في العقائد، شرحه السّنوسي، وله الحوضية في مدح أشرف البريّة وغيرهـا، وقـع ذكـره في المعيار في غير موضع، توفّي سنة (910هـ).

* **محمّـد بـن عـليّ بـن أبي الشّريـف التّلمسـاني**[4]**:** الشّريـف الحسـني، أخـذ عـن: الإمام السّنوسي وابن غازي وغـيرهما، ألّـف: المنهـل الأصـفا في شرح ألفـاظ الشّـفا، كـان حيّـا

(1) البستان (ص 45 إلى 50)، شجرة النّور الزّكيّة (267/1).

(2) قبس من عطاء المخطوط العربي (211/1).

(3) البستان (ص252)، تعريف الخلف برجال السّلف (404/2، 407)، معجم المؤلّفين (139/10).

(4) كفاية المحتاج (لوحة 130).

في حدود (920هـ)، وقد ذكر أحمد بابا، بأنّه من تلاميذ السّنوسي، ولم يذكره غيره.

* **محمّد بن عيسى التّلمساني**[1]: من قدماء التّلمسانيّين وعلمائها، كانت له بركات ظهرت بعد وفاته عند قبره، وقد نقل له ابن مريم ترجمة مختصرة، ولم يذكر تاريخ وفاته.

* **محمّد القلعي**[2]: ذكره ابن مريم في البستان، ونعته بوليّ اللـه.

* **محمّد بن يحيى الإغريسي**[3]: المغـراوي، شريـف النّسـب، نشـأ بتلمسـان، ودرس عـلى الإمام السّنوسي وغيره، ولا يعرف تاريخ وفاته، وإنّما هو من علـماء (9هــ)، مـن تآليفـه: شرح أرجوزة الرّفعي.

* **الملاّلي**[4]: أبو عبد اللـه: محمد بن عمر بن إبراهيم التّلمساني، عاش في القرن (10هــ)، وما يعرف عنه، أنّه ألّف كتاب المواهب القدسية في المناقب السّنوسية، حول شيخه السّنوسي عام (897هـ)، أي عامين من بعد وفاة شيخه، وله شرح أيضا على العقيـدة الصّـغرى، ويجهـل تاريخ وفاته، أخذ عنه: السّنوسي والتّالوتي وغيرهما.

* **يحيى بن محمّد**[5]: أبـو السّـادات المـديوني التّلمسـاني، الفقيـه الـورع الـوليّ

---

(1) البستان (ص53، 225).

(2) البستان (ص 248)، ولم أقف على ترجمته.

(3) باقة السّوسان (ص440).

(4) البستان (ص71، 139، 141)، مخطوطات المؤلّفين الجزائريّين في المكتبة الوطنيّة الجزائريّة مذكّرة ماجستير أوقاسي (ص365).

(5) البستان (ص307، 305، 247)، الإنتاج الفكري الجزائري (ص159)، باقة السّوسان (ص305).

الصّالح ذو الكرامات، أخذ عن: السّنوسي وقرأ عليه الفقه والأصول والبيان والمنطق، وصاحبه سنين عديدة، وله كرامات مع شيخه السّنوسي وهو ميّت، لم يوقف على تاريخ وفاته، عاش في القرن (9 و10هـ).

* المبحث الرّابع: مكانته العلميّة

المطلب الأوّل: مكانته العلميّة وأقوال العلماء فيه

فاقت شهرة الشّيخ على غيره، ممّن عاش في عصره من ثلّة العلماء، إذ اعتبر نادرة الزّمان وفخر الأنام، جمع بين العلم والعمل والإخلاص، فأحلّه الله في القلوب مكانة، قل من يحللها إيّاه، جمع بين كثير من العلوم، وبرّز فيها، ولم ينفرد بعلم واحد، فحيثما تناول علما ظنّ أنّه لا يتقن غيره، تعدّدت نواحي شخصيته وكثرت تآليفه.

أشاد بعلمه المترجمون والمفهرسون كثيرا، وبيّنوا مكانته الخلقيّة والعلميّة، وهناك من اقتصد، وهناك من أطنب وأكثر، وممّا نذكره الآن، نماذج ممّا وقفنا عليه.

قال ابن عسكر: كان ممّن جدّد لهذه الأمّة أمر دينها، على رأس تلك المائة التّاسعة... كما كان من أكابر الأولياء، وأعلام العلماء ... وعلماء تلمسان، يذكرون الشّيخ السّنوسي ويعظّمونه بالتّحقيق، والولاية والزّهد في الدّنيا[1].

وقال ابن مريم: عالمها ــ تلمسان ــ وصالحها وزاهدها وكبيرها، الشّيخ

---

(1) دوحة النّاشر (ص121، 122).

العلاّمة المتقن الوليّ الصّالح[1].

وقال الحفناوي: له في العلوم الظّاهرة أوفر نصيب، جمع من فروعها وأصولها السّهم والتّعصيب، لا يتحدّث في فنّ إلاّ ظنّ سامعه أنّه لا يحسن غيره سيما التّوحيد... كما كان آية في علمه وهديه، وصلاحه وسيرته، وزهده وورعه... فهو في علوم الباطن قطب رحاها، وشمس ضحاها، قد غاب بكلامه فيها في غيب الله تعالى، واطلع على معادن أسراره ومطالع أنواره[2].

وقال في القول الأحوط: هو الإمام القدوة، الهمام المحقّق، المدقّق البارع في سائر الفنون[3].

وقال الدّكتور بوعيّاد:... أشهر علماء العصر، اهتمّ بالتّفسير والحديث والفقه والفرائض والنّحو والمنطق والطّب، وألّف فيها كلّها، وقد نبغ في علم الكلام، وصنّف فيه أشهر مؤلّفاته[4].

كما برع في التصوّف، حتّى كان ممّن انتهت إليه الطّرق فيه مع الشّيخ ابن غازي، والشّيخ زرّوق، والشّيخ المنتوري[5].

وهذا الشّيخ الفكّون، ينهي سند الطّريقة الصّوفية، التي أخذ بها إلى الشّيخ

---

(1) البستان (ص238)، الأعلام (154/7).

(2) تعريف الخلف برجال السّلف (181/1)، البستان (ص239).

(3) القول الأحوط (ص46).

(4) جوانب من الحياة في المغرب الأوسط (ص63).

(5) قبس من عطاء المخطوط العربي (211/1).

السّنوسي، فقد لبس الشّيخ الفكّون، الخرقة الصّوفيّة الزّرّوقيّة الشّاذليّة، على يد شيخه يحيى الأوراسي، عن طاهر بن زيان، عن أحمد زرّوق الصّغير، عن والده، عن محمّد بن يوسف السّنوسي[1].

المطلب الثّاني: إجازاته العلميّة

أدرك بعض شيوخه، ما يحمله التّلميذ السّنوسي، من فطنة وملكة وقدرة على التّحصيل، فمنحوه إجازة رواية علومهم، وذلك بمثابة تزكية أو شهادة علميّة، تخوّل له نشر العلم الذي تلقّاه، لكونه قد أحاط به علما، وبلغ في إدراكه غايته.

فهذا شيخه عبد الرّحمن الثّعالبي، الذي تلقّى عنه الصّحيحين، قد أجازه إجازة عامّة، في كل ما يرويه له وعنه، وهذا الشّيخ القلصادي، فارس علم الفرائض وماسك زمامه، يجيزه في جميع ما يرويه من العلوم عنه، وهاتان الإجازتان كافيتان لإدراك المكانة العلميّة، التي وصل إليها السّنوسي، كمبتدئ في الطّلب ثمّ كشيخ، ممّا جعل أشهر شيوخه، وأبرعهم في ميدانه، يمنحه وسام الإجازة العلميّة، لأجل تبليغ العلم للغير[2].

المطلب الثّالث: مكانة تآليفه

نيفت تصانيفه عن السّبعين، بين تأليف وشرح واختصار، وتمايزت بين الطّول

(1) شيخ الإسلام عبد الكريم الفكّون داعية السّلفيّة. الدّكتور أبو القاسم سعد الله. دار الغرب الإسلامي. بيروت لبنان. الطّبعة الأولى (1406هـ/1986م). (ص110).

(2) تعريف الخلف برجال السّلف (180/1).

والاختصار، وبين التّقليد والابتكار، وتآليفه كلّها تـدّل عـلى كـمال تحقيقـه وتدقيقـه، وغـزارة علمه وكثرة مشاربه، وقد فصّلنا القول فيها في الباب الثّاني والثّالث.

قال عنها ابن عسكر: امتازت تآليفه، بتنوير كلامه، وإتقان عباراته، حتّى لا يجد المتعسّف مدخلا للتّعقّب بوجه... واتّفـاق فحـول الأوليـاء وأكـابر العلـماء، عـلى فضـله وتلقّـي تآليفـه بالقبول... أمّا بالنّسبة لعلم الكلام، فله فيه الباع الطّويل، وقد كان الشّيخ أبـو عمـران مـوسى بن عقدة الأغصاوي، إذا ذكر علم الكلام يقول: مـا رأيـت مـن غربـل هـذا العلـم مثـل هـذا الرّجـل.. وكـان الشّـيخ سـيدي أبـو محمّـد الهبطـي يقـول: كـلام السّـنوسي محفـوظ مـن السّقطات[1].

ونظرا لما لتآليفه من أهمّيّـة، فقـد كـثرت الشّروح والحـواشي والاختصـارات عليهـا، سـيما عقائده الخمسة، ولـمّا وضع شرحه على عقيدتـه الصّـغرى، وجّـه بـه إلى الشّـيخ محمّـد بـن يجّبش التّازي، فوجّه له هذا الأخير، بمدح وثناء عليه وعلى تآليف عامّـة، والصّـغرى وشرحهـا خاصّة، في قصيدة رائقة النّظم، قريبة الفهم، تحتوي على عشرين بيتا، وذيّلها بنثر[2].

*** المبحث الخامس: وفاته ورثاؤه ودرر من كلامه**

المطلـب الأوّل: آخر أقواله قبل وفاته.

لمّـا أحـس بمـرض موتـه، انقطـع عـن المسـجد، ولازم فراشـه حتـى مـات، ومـرض

(1) دوحة النّاشر (ص121، 122).

(2) المصدر السّابق (ص67 إلى69)، و انظر القصيدتين في: دوحة النّاشر (ص69، 70).

عشرة أيّام، ولمّا احتضر لقّنه ابن أخيه ـ علي التّالوتي ـ مرّة بعد مرّة، فالتفت إليه وقال له: وهل ثمّ غيرها؟

وقالت له بنته: تمشي وتتركني؟ فقال لها: الجنّة تجمعنا عن قريب إن شاء الله تعالى.

وكان يقول عند موته: نسأله سبحانه، أن يجعلنا عند الموت، ناطقين بالشّهادة، عالمين بها.

وكان من أقواله قبل موته: من الغرائب في زماننا هذا، أن يوجد عالم، جمع له علم الظّاهر والباطن على أكمل وجه، بحيث ينتفع به في العلمين، فوجود مثله في غاية النّدور، فمن وجده فقد وجد كنزا عظيما، دنيا وأخرى، فليشد عليه يده لئلا يضيع عن قرب، فلا يجد مثله شرقا ولا غربا، وكأنّه أشار به لنفسه، فلم يلبث بعده حتّى خطف، وكأنّه كاشف بذلك[1].

المطلب الثّاني: تاريخ ومكان وفاته:

لم تختلف كتب التّراجم، وكثير من كتب الفهارس، أنّه توفّي بتلمسان بعد العصر من يوم الأحد: 18جمادى الأخيرة (895هـ)، وله من العمر ثلاث وستّون سنة، على أرجح الأقوال، وذلك يعود إلى الخلاف في تاريخ مولده، وضريحه إلى الآن معلوم يزار.

أمّا في فهارس أخرى، فقد أثبتت تاريخ وفاته سنة (892هـ).

---

(1) تعريف الخلف برجال السّلف (181/1، 182).

والعمدة في إثبات التّاريخ، لكتب التّراجم وليس للفهارس، ولا ندري من أين استقى هؤلاء هذا التّاريخ، مع أنّه لا أحد من كتب التّراجم ذكره ؟![1]، وذكر ابن مريم عن الملاّلي، أنّ السّنوسي أبلغه قبل عامين من وفاته، أنّ له من العمر خمس وخمسون سنة، معناه أنّ تاريخ مولده هو (840هـ)؟

وقيل عنه: إنّه لمّا توفّي شمّ النّاس المسك بنفس موته، جعل اللـه روحه في عليّين مع النّبيّين والصّدّيقين والشّهداء والصّالحين، وحشرنا في زمرتهم أجمعين آمين.

المطلب الثّالث: رثاؤه ودرر من كلامه:

لمّا توفّي الشّيخ على رأس القرن التّاسع، رثاه بعض من كان بتلمسان، من شيوخ وتلاميذ، منهم الشّيخ ابن زكري، الذي كان بينه وبين الشّيخ السّنوسي بعض الشّنآن، مثلما يكون بين الأقران، لكن لم يمنعه ذلك من رثائه؛ إذ أنّه لـمّا مات بكى عليه الشّيخ ابن زكري شديدا وتألّم، ومتى ذكره بكى عليه، ويقول:

---

(1) فهرس مخطوطات دار الوثائق القوميّة النّيجيريّة بكادونا. بابا يونس محمّد. تحقيق: جون هونويك. مؤسّسة الفرقان للتّراث الإسلامي. لندن. (1418هـ/1997م).(38/1، 97، 155، 228، 236 و2/ 98، 135، 190، 205، 255)، فهرس المخطوطات الطّبّيّة العربيّة. فريد سامي حدّاد، بالاشتراك مع هانس هيزش بيتر فيلد. منشورات جامعة حلب. معهد التّراث العلمي العربي. (1404هـ/1984م). (ص118) قائمة المخطوطات العربيّة المحفوظة في خزانة المكتبة الملكيّة بمدينة كوبنهاغن. ترجمة: عدنان جواد الطّعمة. الصّفاة. الكويت. الطّبعة الأولى (1414هـ/1993م). (ص23).

فقدت الدّنيا بفقده[1].

كما ألّف تلميذه محمّد بن عبد الرّحمن الحوضي، مرثيّة في شيخه السّنوسي، وهي قصيدة رائقة النّظم سمّاها اللّزوميّة[2].

ولئن لم يصلنا شيء من مرثيّة ابن زكري، فقد وصلتنا مرثيّة الشّيخ الحوضي كاملة، ونظرا لما فيها من أبيات تجلو الأبصار، وتكشف الأسرار، وتريق العبرات، آليت على ذكر شيئ منها:

صاغ الإمام الأوحد البحر الرضى	عزّ العلوم ومبطل الشّبهات
نجل الكرام محمّد بن الشّيخ ذا	الإفضال يوسف معين البركات
الطّاهر الأصل الشّريف المرتضى	الصّالح المبرور في الدّعوات

ولـمّا بلغه شرح عقيدته الأخرى ـ قد تكون العقيدة الكبرى ـ كتب إليه بقصيدة تحتوي على ثلاثة عشر بيتا، ضمّنت ثناء على الشّرح وصاحبه، ومن هذه الأبيات[3]:

وفريدة صاغ الإمام المرتضى	العالم الحبر التّقيّ الأمجد
نجل الكرام الصّالحين ذوي العلى	الطّاهر الأصل الشّريف محمّد

---

(1) البستان (ص242)، دوحة النّاشر (ص120).

(2) تعريف الخلف برجال السّلف (/404، 407).

(3) القصيدتين في: دوحة النّاشر (ص69، 70)..

*** من درر كلام الإمام السّنوسي:**

" أفضل ما يشتغل به من وفّقه اللـه وهداه، علم ما يزكّي به نفسه، ويقمع بـه شيطانه وهواه، وذلك مقصور على علمي الكتاب والسنّة....ثمّ لا يتمّ علمهما في مثل زماننا هـذا، إلاّ بمعرفة أقوال خدّامهما، من نوّر اللـه بصيرته، وأصلح علانيته وسريرتـه، مـن علـماء السّـلف الصّالح، ثمّ من تلاهم في الجدّ والاجتهاد، والغيرة عـلى الشّريعـة أن تنتهـك بالمخالفـة وسـوء الفهم والاعتقاد، من علماء التّابعين وتابعيهم..."[1].

"اعلم أنّ أصول الأحكام التي منها نتلقى: الكتاب والسنّة، وإجـماع الأمّـة وقيـاس الأئمّـة، واتّباع السّلف الصّالح واقتفاء أثرهم، نجاة لمن تمسّك به"[2].

"إذا لاح لهم شيء من روائح المعرفة، اغترّوا بذلك، وتركوا الاقتـداء بالرّسـول عليـه الصـلاة والسلام، وابتدعوا أمورا لأنفسهم، فهلكوا بسبب ذلك"[3].

"حرمة اللـه لا يقـدرها إلا مـن نـور اللـــه بصـيرته، و طهـر مـن كـبر الجهـال والأغنيـاء سريرته، إذ هم القوم الذين لا يشقى جليسهم"[4].

"علامة صحّة الذّوق، أن يجيء مطابقا لما شـهد بـه العلـم الرّسـمي، الـذي أنتجـه

(1) شرح صحيح البخاري. محمّد بن يوسف السّنوسي. المكتبة الوطنيّة الحامّة رقم (2736) لوحة (1).

(2) عمدة أهل التّوفيق والتّسديد في شرح عقيدة أهل التّوحيد الكبرى. السّنوسي (630، 2007/1). (ص280).

(3) شرح أبيات ابن عربي. لوحة (2).

(4) المواهب القدسيّة. لوحة (77). مصوّرة عن مخطوط المكتبة الوطنيّة.

العقل و النقل"[1].

*** المبحث السّادس: مصنّفاته:**

اتّسم الشّيخ بالموسوعيّة، إذ ما من علم إلاّ وقد أدلى فيه بقلمه، مؤلّفا أو شارحا أو مختصرا، وعلى كثرة تآليفه، فمنها ما كتب له النّور، وتحقّقت له الطّباعة، ومنها ما بقي رهن الرّفوف والخزائن.

المطلب الأوّل: مصنّفاته المطبوعة:

ـ عقيدة أهل التّوحيد المخرجة من ظلمات الجهل وربقة التّقليد المرغمة أنف كلّ مبتدع عنيد. القاهرة (1306هـ).

ـ شرح الأسماء الحسنى، تحقيق: نزّار حمادي. مؤسّسة المعارف للطّباعة والنّشر. بيروت لبنان.

ـ شرح المقدّمات في علم التّوحيد. تحقيق وتعليق: سليم فهد شبعانيّة. دار البيروتي. الطّبعة الأولى (1430هـ/2009م).

ـ شرح أمّ البراهين في علم الكلام. تحقيق وتعليق: مصطفى محمّد الغماري. المؤسّسة الوطنيّة للكتاب.

ـ عمدة أهل التّوفيق والتّسديد في شرح عقيدة أهل التّوحيد. مطبعة جريدة "الإسلام" بمصر. (1316هـ).

ـ العقيدة الوسطى. مطبعة التّقدّم الوطنيّة بتونس: دون تحقيق. أشار إلى هذه

(1) شرح أبيات الألبيري، لوحة (1) مصوّر عن مخطوط بمكتبة زاوية الشّيخ بن المداني بواد الجمعة.

الطّبعة وطبعة الشّرح المؤلّف جمال الدّين بوقلي حسن.

ـ شرح مختصر على العقيدة الوسطى. مطبعة التّقدّم الوطنيّة التّونسيّة. كما ذكره الأستاذ جمال الدّين بوقلي.

ـ العقيدة الصّغرى. الجزائر (1985م) باعتناء الأستاذ جمال الدّين بوقلي حسن.

- شرح مختصر على العقيدة الصّغرى. المطبعة الخيريّة القاهرة. (1286هـ/1304هـ). وبتحقيق: مصطفى محمّد الغماري. المؤسّسة الوطنيّة للكتاب. الطّبعة الأولى (1989م).

ـ شرح صغرى الصّغرى في علم التّوحيد. لأبي عبدالله محمّد السّنوسي. وبالهامش المواهب اللّدنيّة في شرح المقدّمات السّنوسيّة. لأبي إسحاق إبراهيم الأندلسي. مكتبة مصطفى البابي الحلبي. الطّبعة الأخيرة (1373هـ/1953م).

ـ شرح مختصر على عقيدة صغرى الصّغرى. المطبعة الخيريّة القاهرة (1304هـ/ 1322هـ). المطبعة الميمنيّة بمصر (1324هـ). و مطبعة الدّولة التّونسيّة (1293هـ/1876م).

ـ عقيدة صغرى الصّغرى. تونس (1293هـ).

ـ المقدّمات المبيّنة للعقيدة الصّغرى. الجزائر (1908م).

ـ شرح مختصر للمقدّمات المبيّنة للعقيدة الصّغرى. طبع في (80ص) بتقديم وتحقيق: يوسف أحنانه.

ـ المنهج السّديد في شرح كفاية المريد. لأبي عبدالله محمّد بن يوسف السّنوسي.

تحقيق: مصطفى مرزوقي. دار الهدى.

ـ مجموع في فنّ التّوحيد الأوّل متن السّنوسيّة للشّيخ السّنوسي...المطبعة الثّعالبيّة (1346هـ).

ـ مكمّل إكمال الإكمال ومقرّبه على الضّعيف ومزيد الحاجة دون المسافات الطّوال. دار الكتب العلميّة. الطّبعة الأولى (1415هـ/1994م).

ـ نصرة الفقير في الرّدّ على أبي الحسن الصّغيّر. تحقيق: جمال الدّين بوقلي ضمن كتاب: الإمام ابن يوسف السّنوسي وعلم التّوحيد. المؤسّسة الوطنيّة للكتاب. الجزائر (1985م).

ـ تفسير ما تضمّنته كلمات خير البريّة من غامض أسرار الصّناعة الطّبيّة. طبع بليدن. (1375هـ).

ـ المجرّبات. مصر (1279هـ).

ــ المختصر في علم المنطق. طبع مع شرح الشّيخ نفسه. وشروح أخرى لـ: إبراهيم الباجوري. القاهرة (1321هـ)، كما صنّفه: سركيس، في معجمه ضمن المطبوعات.

ـ شرح المختصر في علم المنطق. مصر (1292هـ).

المطلب الثّاني: مصنّفاته المخطوطة: وهي على ثلاثة أنواع:

1 ـ التّراث المخطوط الموقوف عليه: ويشتمل على ما يلي:

ـ حفيظة[1].

---

(1) **الحفيظة:** هي مجموعة من الأوراد تقرأ في كلّ يوم وليلة، وتحفظ بيسر نظرا لسهولتها فسميت بحفيظة، وممّا اشتهر من الحفيظة: "حفيظة بن مرزوق".

ـ شرح التّسبيح دبر الصّلوات وحكمته.

ـ شرح أبيات في التّصوّف "رأيت ربّي بعين قلبي".

ـ شرح لأبيات التّطهير بماء الغيب.

ـ تفسير سورة الفاتحة.

ـ شرح مشكلات البخاري.

ـ شرح صحيح البخاري لم يكمله، وهو الذي نحن بصدد تحقيقه، إن شاء اللـه.

ـ الحقائق في تعريفات مصطلحات علماء الكلام.

ـ رسالة في نفي تأثير الأسباب.

ـ شرح مختصر لأسماء اللـه الحسنى وكيفية العمل بها.

ـ عقيدة الحفيدة.

ـ رسالة في سرّ الحرف.

ـ فتوى في تدريس الأولاد.

ـ فتوى في معلّمي الأولاد.

ـ فتوى في قراءة القرآن في الصّلاة.

ـ المقرّب المستوفي في شرح فرائض الحوفي.

ـ نظم في الذّكاة.

ـ نظم في أصحاب الفروض.

ـ عمدة ذوي الألباب ونزهة الحساب في شرح بغية الطّلاّب.

ـ الكلام في الدّلالة المتشابهة.

ـ شرح الموجّهات.

ـ شرح إيساغوجي في المنطق.

ـ شرح جمل الخونجي.

ـ شرح على مختصر ابن عرفة في المنطق.

ـ وصيّة لهبة اللـه بن عليّ الحوتي.

2 ـ التّراث المخطوط غير الموقوف عليه الموجود: ويشتمل على ما يلي:

ـ شرح كلمتي الشّهادة.

ـ صلوات.

ـ رسالة في الأدعية.

ـ الجدّ الحثيث في بيان ما ليس بحديث.

ـ شرح عقيدة الحوضي.

ـ شرح العشرين الواجبات.

ـ جواب عن مسألة وزن الأعمال.

ـ شرح على مسائل ابن جماعة.

ـ شرح الموجّهات.

ـ الكلام في الدّلالة المتشابهة.

ـ الدّرّ المنظوم في شرح مقدّمة ابن آجرّوم.

3 ـ **التّراث المخطوط غير الموقوف عليه المفقود:** ويشتمل على عشرة مباحث:

ـ اختصار رعاية المحاسبي.

ـ ترجمة المقامات النّبويّة.

ـ مختصر بغية السّالك.

ـ تفسير سورة "ص" وما بعدها من السّور.

ـ تفسير القرآن.

ـ شرح كلام ابن البنّا التّلمساني.

ـ مختصر حاشية التّفتازاني على الكشّاف.

ـ أرجوزتان في علم الحديث.

ـ شرح مشكلات البخاري.

ـ مختصر الزّركشي على البخاري.

ـ شرح مقدّمة الجبر والمقابلة.

ـ تقييد في مناقب الأربعة رجال المتأخّرين.

ـ مختصر الرّوض الأنف.

ـ شرح رجز ابن سينا.

ـ شرح جواهر الكلام.

ـ شرح السّنوسي لنظم الحضرمي في العقائد.

ـ شرح المرشدة.

ـ قصيدة الدّهريّة.

ـ تعليق على فرعي ابن الحاجب.

ـ تقريض على مصباح الأرواح في أصول الفلاح.

ـ شرح المدوّنة.

ـ شرح الوغليسيّة.

ـ شرح الشّاطبيّة الكبرى.

ـ شرح ضبط الخراز في الرّسم.

ـ مختصر في القراءات السّبع.

ـ شرح جمل الخونجي.

*** المبحث الأوّل: توثيق نسبة الكتاب للمؤلّف**

ذكرت كتب التّراجم[1]، أنّ السّنوسي قام بشرح صحيح البخاري، لكن لم يتمّه، بل وصل إلى باب: "من استبرأ لدينه"، كما ورد اسم الشّيخ في هذا المخطوط، فجاء فيه: "... الفقيه الإمام العالم العلم المحقّق المتفنّن المدرّس ... **محمّد بن يوسف السّنوسي** غفر الله له بمنّه وفضله..."[2].

وقوله في المخطوط: "فعزمت بهذا التّقييد المبارك"، ممّا يوحي، بصحّة نسبة هذا الكتاب إليه، أمّا في الفهارس المبحوثة، فلم أقف على فهرس واحد، توفّر

(1) البستان (ص246)، شجرة النّور الزّكيّة (266/1)، كفاية المحتاج (لوحة96)، الأعلام (154/7).

(2) شرح صحيح البخاري. لوحة (1ظ).

هذا الشّرح مخطوطا في مكتباتها، فهو من النّسخ النّادرة جدّا.

*** المبحث الثّاني: توثيق عنوان الكتاب:**

لم يجعل الشّيخ عنوانا معيّنا للشّرح، فكتب التّراجم ذكروا له هذا التّأليف، دون ذكر العنوان، ففي البستان مثلا: "وشرحه العجيب على البخاري"، وفي تاريخ الأدب العربي: "وللإمام السّنوسي من الكتب شرح صحيح البخاري"، وفي الشّجرة: "وشرح البخاري"، وفي مقال للدّكتور يوسف الكتّاني، تحت عنوان: الشّروح المغربيّة لصحيح البخاري، نشر في مجلة الأصالة، العدد الرّابع، صرّح بأنّ للسّنوسي، شرحا للصّحيح لم يكمله، وما دام قد ترك الشّرح دون عنوان خاصّ، فيمكن تسميته على وفق ما قرّره المترجمون، وهو "**شرح البخاري**".

*** المبحث الثّالث: سبب تأليف الشّارح للكتاب:**

يستفاد من مقدّمة الشّيخ سبب تأليفه هذا الشّرح، واختصاصه بهذا الصّحيح، فقد أظهر في المقدّمة أنّ أفضل ما يشتغل به من وفّقه الله تعالى، هما الكتاب والسّنّة، لأنّهما كلام الله تعالى، ولا تتمّ معرفتهما إلاّ بمعرفة خدّامها، من أهل السّلف والخلف، ومن عمل على إظهارهما، وسبر أغوارهما، وكشف أسرارهما. وكان ممّن عمل على جمع السّنّة الصّحيحة، هو شيخ الحديث، الإمام البخاري، الّذي أحبّه الشّيخ السّنوسي إلى حدّ الشّغف به، ولم يجد عربون وفاء لهذا الحبّ الخالص، إلاّ أن يضع على كتابه شرحا يخدمه به، ويقرّبه لبني جنسه، ممّن هم في عصره ومن بعدهم، وبعبارة أو أخرى، يريد أن يكون من جملة من وصفهم بخدّام الكتاب والسنّة.

* **المبحث الأوّل: مكانة الكتاب وقيمته العلميّة:**

يعتبر هذا الشّرح واحداً مـن الشّروح، الّتـي تفتخـر بهـا مكتبـة الحـديث النّبـوي عامّـة، ومكتبة الجزائر خاصّة، ففيه من صنوف العلم: اللّغة والفقـه والحـديث والـتّراجم والمنطـق، كما تضمن تحقيقات قيّمة، وفوائد جمّة.

وقيمة الكتاب تضهر أوّلا مـن خـلال قيمـة صـاحبه، والسّـنوسي مـن العلـماء الـذين ذاع صيتهم بين الأوساط العلميّة، ويشهد لهذا كتبه التي ألّفها، بالإضافة إلى مآثره وأقوال العلـماء فيه.

وقيمة الكتاب تظهر أيضا من خلال مادته وموضوعه، فهو شرح لأعظم وأصحّ كتاب بعد كتاب الـلـه، هذا الكتاب الذي قال فيه العلامة ابن خلدون: "فأمّا البخاري وهو أعلاهـا ـ أي الكتب ـ رتبة، فاستصعب النّاس شرحه، واستغلقوا منحاه، من أجل ما يحتاج إليه، من معرفة الطّرق المتعدّدة، ورجالها... ومعرفة أحوالهم واختلاف النّاس فيهم، ولذلك يحتـاج إلى إمعـان النّظر في الفقه في تراجمه...ولقد سمعت كثيرا من شيوخنا رحمهم الـلـه يقولون: شرح كتاب البخاري دين على الأمّة، يعنون أنّ أحدا من علماء الأمّـة، لم يـوف مـا يجـب لـه مـن الشّرح، بهذا الاعتبار"[1].

كـما يعـدّ هـذا الشّرح، مـن نـوادر مؤلّفـات الشّـيخ، فهـو قـد بـاشر شرحـه لكـن لم يتمّه، لأنّ المنيّة قـد باغتتـه حـتما، وقـد وصـل فيـه إلى "بـاب مـن اسـتبرأ لدينـه

(1) تاريخ ابن خلدون (560/1).

وعرضه"، وأنجز هذا العمل في سفر ضخم، فكيف والحال لو أتمّ هذا الشّرح، لكان نادرة الشّروح في عصره؟.

وقد وصف المترجمون هذا الشّرح، ونعتوه بأنّه شرح عجيب، وإنّه لعجيب حقّا، لأنّه حوى فوائد، لا توجد في الشّروح الأخرى.

*** المبحث الثّاني: مصادر الكتاب المعتمدة:**

لقد تنوعت مصادر السّنوسي وتعدّدت، حيث اعتمد على كتب اللّغة والحديث والفقه والتفسير والأصول، فأخذ منها بنصيب، وعلى رأس هذه المصادر القرآن الكريم والأحاديث النّبوية، كما استعان بالمبادئ المنطقيّة، والأقيسة العقليّة.

كما استعان بشروح صحيح البخاري التي سبقته، لكن لا يعزوا إليها، كما دلّ على أنّ شرح السّنوسي، كان بعد شرح ابن حجر وابن مرزوق، ممّا يدلّ على حضوّه على قيمة علميّة كبيرة، حيث أنّه استفاد من الشّرحين كثيرا، وشروح أخرى، **وهذا باختصار مصادره في هذا الشّرح:**

في العقيدة وهو الأهم، باعتبارين، باعتبار أنّه صال وجال في هذا العلم، بمؤلّفات عديدة، وباعتبار أنّ هذا العلم، يتناسب مع الجزء المدروس، فممّا اعتمده في تأليفه هذا: المعالم الدّينيّة لابن التّلمساني، وعلى أقوال كلّ من الأئمّة: إمام الحرمين، والباقلاني والفخر الرّازي والقلانسي، والأشعري، والولي أبي العبّاس لكن قليلا، وابن مرزوق كثيرا.

وفي الحديث اعتمد أوّلا على: صحيح البخاري، وصحيح مسلم، والموطأ، معالم السّنن للخطّابي، وشرح كل من: ابن بطّال وابن التّين والطِّيبي وابن الملقّن،

لصحيح البخاري، وابن الصّلاح، وشرح النّووي على مسلم، والإكمال للقاضي عياض، المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم للقرطبي ...، كما استعان بكتب أخرى، لكن لم يسمّها، بل ذكر مؤلّفيها، كأحمد والطّبراني ...

وفي اللّغة اعتمد على: المحكم لابن سيّده، وكذا كتاب الصّحاح للجوهري، ومشارق الأنوار للقاضي عياض، وأورد أقوال الزّمخشري والفرّاء والكسائي والخليل الفراهيدي وابن جنّي وابن نفطويه وسيبويه وابن الأعرابي وابن دريد وابن خروف والأخفش والزجّاج ...

وفي **التّفسير** على: أقوال المحرّر الوجيز لابن عطيّة، والكشّاف للزّمخشري، وجامع البيان في تأويل القرآن للطّبري.

وفي **الفقه** اعتمد على: المدوّنة، وشرح الأحكام لجدّ الشّيخ ابن مرزوق، وكتاب التّسهيل لابن مرزوق، وعلى الإستذكار والتّمهيد لابن عبد البرّ.

وفي **السّيرة** على: الشّفا للقاضي عياض.

وأورد أقوال: ابن أبي زيد، وابن القاسم، وابن العربي، وغيرهم من شيوخا لمالكيّة، المتقدّمين والمتأخّرين.

كما ذكر أقوال بعض أصحابه، دون أن يشير إلى أسمائهم، بل اقتصر على مجرّد قوله: قال بعضهم، وعلى نحوه.

*** المبحث الثّالث: محتويات الكتاب وفوائده:**

احتوى على شرح أحاديث الإمام البخاري، فبدأ كتابه بمقدّمة، بيّن فيها فضل كلّ من دين الإسلام والنّبي صلى الله عليه وسلم، ثمّ أرشد إلى أفضل شيء يزكّي

به المرء نفسه، وهو مقصور على علمي الكتاب والسنّة، ثمّ بيّن أهمّيّة كتاب الجامع الصّحيح وفضله، والقيمة العلميّة التي حازها عند أهله، وأثبت أنّه من أصحّ ما جمع في الحديث النّبوي، ثمّ وضع مقدّمة في ترجمة المصنّف، وهي مقدّمة تضمّ نسبه ومولده ورحلته ووفاته، ومصطلحه في أبوابه وتراجمه.

انتقل بعدها إلى شرح الأحاديث الواردة في الصّحيح، مبتدئا من: "باب كيفيّة بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم "، منتهيا بـ"باب فضل من استبرأ لدينه إلى قوله: ألا وهي القلب".

كما احتوى هذا الشّرح على كثير من الفوائد اللّغويّة والبلاغيّة والنّحويّة والفقهيّة والأصوليّة، وعلى كثير من الاستدلالات والشّواهد الشّرعيّة والشّعريّة واللّغويّة، وتراجم بعض رواة الأحاديث التي أوردها، فهو كتاب حافل بجميع فنون العلم.

*** المبحث الرّابع: منهج الشّارح في الكتاب:**

ـ بدأ بالبسملة والتّصلية.

ـ السّنوسي لم يتعرّض لشرح كلّ كتاب الصّحيح، كما أنّه لم يقسّمه، كما يفعل بعض الشرّاح، بل وصل إلى باب: من استبرأ لدينه، ولم يتمّه لعجلة المنيّة.

ـ مقدّمة ذكر فيها: فضل العلم، وفضل من تشرّف لخدمتهما، ثمّ فضل الصّحيح ومؤلّفه، مع ترجمة المؤلّف، ثمّ منهج البخاري في صحيحه، ثمّ الكلام عن المفاضلة بين الصّحيحين، وترجيح صحيح البخاري بلا منازع.

ـ وفي شرحه للأحاديث انتهج الطّريقة الآتية:

ـ بدؤه بذكر أوجه إعراب الحديث.

ـ ترجمة راوي الحديث.

ـ شرح الحديث مع بيان كلّ الأوجه المحتملة له.

ـ مقارنته خلال هذا الشّرح، بين مجموعة من النّسخ، مع إشارته إلى بعض الاختلافات التي بيّنها.

ـ يضع الشّارح قبل كلام المصنّف حرف "ص"، وقبل شرحه حرف "ش"، وهي العلامة المميّزة بين المتن والشّرح.

ـ أحيانا يوثّق النّصوص التي ينقل منها، والغالب قوله: قال بعضهم، ولا يعزوها إلى قائلها.

ـ في بعض الأحيان يبيّن المناسبة، بين الباب والحديث والتّرجمة.

ـ وبعد المقدّمة التي بيّن فيها منهجه، شرع في شرح كتاب بدء الوحي، ثمّ كتاب الإيمان، مطبّقا منهجه الذي ذكره، فكان يفكّ النّص إلى قطع، فيشرح ألفاظ الحديث معتمدا على: جمعه من كلام الأئمّة، والاعتماد على الثّقات منهم، مع ضبط ما أشكل من الرّواة، وإيضاح ما انبهم من غريب الكلام، وشرح معاني المتن وخفي مكنوناته، معتمدا على مصادر اللّغة.

مميّزات شرحه:

ـ عدم إيراده للحديث كاملا، قبل الشّروع في شرحه. (ص7).

ـ الاستطراد الطّويل في شرح ألفاظ الحديث، وتتبّع أقوال العلماء في ذلك. (ص175).

ـ ينقل بعض النّصوص، بقوله: "قال بعضهم"، أو "قيل"، دون أن يذكر صاحب القول، ولا الكتاب الذي أخذ عنه. (ص27).

ـ يشير إلى انتهاء النّص المنقول بقوله: "انتهى". (ص14).

ـ عند ذكره لأبيات من الشّعر، لا يعزوها إلى قائلها، أو أين قيلت. (ص83).

ـ عند استشهاده لبعض النّقولات، يقول: انظر تمام كلامه. (ص105).

ـ تفكيك عبارة النّص وتبيين منطوقها من مفهومها، حيث يقسّم النّص إلى جمل وفقرات، قصد التّحقيق في شرح الألفاظ، ويضيف إلى هذه النّصوص تكميلات، معتمدا في ذلك على الوجوه المنطقيّة، والأقيسة والمصطلحات الفقهيّة والأصوليّة. (ص49، 180).

ـ اعتماده على المناقشة في كثير من المسائل، فهو يكثر في شرحه المناقشة والمناظرة. (ص67، 124، 158)، وقوله:"فيه نظر"(ص49).

ـ كثرة نقولاته عن شيخه ابن مرزوق رحمه الله، مما يوحي بتأثّره البالغ به. (ص68، 71، 83، 117، 138، 157، 160، 170، 182).

ـ تأثّره بعلم المنطق، الذي هو العلم بالقوانين، التي يعرف بها الصّحيح من الفاسد، في الحدود المعرفة بالماهيّات، والحجج المفيدة للتّصديقات (ص20، 59، 83).

ــ اهتمامه بالجانب اللّغوي"النّحو والصّرف"، وإبراز ألوان البديع والبيان والمعاني، والبلاغة، وهو كثير، ممّا يدل على تمكّنه من جانب اللّغة، والاستدلال بالآراء والأقوال. (ص85، 116، 119).

ـ اعتناؤه أحيانا، بالتّرجمة لرواة الحديث وبيان درجتهم، وأقوال علماء الجرح

والتّعديل. (ص133، 144، 145).

ـ ذكره لفقه الحديث والأحكام المستنبطة منه. (ص60، 80، 90).

*** المبحث الخامس: نسخ المخطوط وفيه:**

النّسخة الأولى:

عنوان المخطوط:	شرح صحيح البخاري.
موضوعه:	حديث.
مكان وجوده:	المكتبة الوطنيّة الجزائريّة "الحامّة".
رقمه:	2736 .
رقم اللّوحة:	من 01 ظ إلى 106 وجه.
مقياس الكتاب:	295 × 215 مم.
مقياس النّصّ:	285 × 210 مم.
عدد الأسطر:	31 سطرا.
عدد الكلمات:	11 إلى 14
نوع وحالة الخطّ:	مغربي حسن.
لون الحبر:	أسود وأحمر.
حالة الورق:	ورق به آثار أرضة ورطوبة.
ـ وصف المخطوط وبيان حالته:	ـ تسفير بالورق المقوّى أمّا الكعب فهو بالجلد. ـ نسخة في حالة مادّيّة سيّئة. يوجد خرم في أعلى الورقة1 والورقة2.

النّسخة الثّانية:

ـ عنوان المخطوط:	شرح صحيح البخاري.
ـ موضوعه:	حديث.
ـ مكان وجوده:	الجزائر.
ـ رقمه:	ليس له رقم .
ـ رقم اللّوحة:	من 01 وجه إلى 475 وجه.
ـ مقياس الكتاب:	صورة طبق الأصل عن المخطوط.
ـ مقياس النّصّ:	حوالي:152م طولا، على 95م عرضا.
ـ عدد الأسطر:	19 سطرا.
ـ عدد الكلمات:	10 إلى 13.
ـ نوع وحالة الخطّ:	مغربي حسن واضح.
ـ لون الحبر:	نسخة مصوّرة عن النّسخة المستلمة من طرف: د/ مشنان.
ـ حالة الورق:	
ـ وصف المخطوط وبيان حالته:	

قسم التحقيق

بسم الـلـه الرحمن الرحيم

وصلى الـلـه على سيدنا محمد وعلى آله

[مقدمة الشارح]

قال الشيخ الفقيه العالِم العلَم الفذ والأوحد المحقق الزاهد الورع أبو عبد الـلـه محمد بن يوسف السنوسي الحسني رضي الـلـه عنه ونفع به.

الحمد لله الذي هدانا لأفضل دين، بل لا دين عنده سواه وهو دين الإسلام والإيمان، ومنّ علينا بمعرفة كثير من السنن وبحفظ أشرف كلام وهو تنزيله المسمى بالقرآن، فهما العصمة الكبرى والعروة الوثقى في هذه الدار ويوم ينادي المناد، وهما الحصن المنيع والملجأ الرفيع عند هبوب عاصيات الفتن فيما بين العباد.

والصلاة والسلام على من بظهوره طلعت شموس المعارف وفاضت الأنوار، وتلألأت أرجاء العالم واهتزّ كله طربًا وافتخرت الأرض وحق لها الافتخار، وأفصحت صم الجنادل[1] بتعظيمه وأزهرت الأجاذب سرورا به وأينعت يابسات الأشجار، وأَنَّ[2] الجِذْعُ شوقًا إلى وصل ذاته الكريمة التي لا تزاحم في رفعة المقدار، ولجأت إليه عجائب الحيوانات من منازلها القفار، فصلى الـلـه وسلم عليه

---

(1) أي: أفصحت الحجارة الصماء بتعظيمه صلوات الـلـه وسلامه عليه، والجنادل جمع جندل وهو الصخرة؛ انظر مادة: جندل، في لسان العرب (128/11).

(2) **أَنَّ:** من الأنين وهو صوت المتألم، تقول: أَنَّ الرجل من الوجع يَئِنُّ أَنِينًا وأُنَانًا. انظر مادة: أنن، في لسان العرب (28/13)، والمصباح المنير (ص: 22).

من رسول[1] جعله الـلـه بشير الأولين والآخرين وقائد الغرّ ...... في يوم الدين إلى دار النعـيم التي هي دار المتقين.

ورضي الـلـه عن آله وصحبه الذين نوحد الـلــه في ظـلال سـيوفهم، ونهتـدي في ظلـمات الجهل بأنوار سرهم وكريم معارفهم، ونرجو بحبهم وجميل تشريفهم أن نكون بفضل الـلــه مع الذين أنعم الـلـه عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

أما بعد: فأفضل ما يشتغل به من وفّقه الـلـه وهداه على ما يزكي بـه نفسـه ويقمـع بـه شيطانه وهواه، وذلك مقصور على عِلمَي الكتـاب والسـنة، فهـما لمـن اعتصـم بهـما في هـذه الدار وفي الأخرى أعظـم جُنّـة[2]، ثـم لا يـتم عملهـما في مثـل زماننـا هـذا إلا بمعرفـة أقـوال خدّامهما ممّن نوّر الـلـه بصيرته وأصلح علانيته وسريرته من علماء السلف الصالح، ثـم مـن تلاهم في الجدّ والاجتهاد والغيرة على الشريعة أن تنتهك بالمخالفة وسوء الفهم والاعتقاد من علماء التابعين وتابعيهم على الوجه الرابح.

ولمـا رأيـت أفضـل تـأليف تكفـل بجميـع ذلـك عـلى الاسـتقلال، وألطـف مـا صـنف في إفـادة المعـاني بتيجـان تراجمـه لمـن لـه بـالعلوم الاهتبـال[3]، وأصـح مـا جمـع في الحـديث النبـوي عنـد محققــي الرجــال، كتــاب الشــيخ الإمــام، رأس الحفــاظ والبــالغ في التحقيــق والــروع منتهــى المــرام، أبــو عبــد الـلـــه محمــد بــن إســماعيل البخــاري رحمــه الـلـــه

---

(1) نهاية الورقة (1/و).

(2) **جُنَّة:** أي ستر ووقاية من النار؛ انظر مادة: جنن، في لسان العرب (92/13).

(3) الاهتبال: الاغتنام وتحين الفرصة؛ انظر مادة: هبل، في لسان العرب (685/11).

ورضي عنه، أحببته لذلك حبّا عظيما، وشُغفت به شغفا جسيما، حتى[1] ....[2] عظيم السرور على التطفل بخدمته بما لست له بأهل، ولنقص حفظي وقصور إدراك العقل، لكن فضل الله عز وجل متسع الرحب، فكثيرا ما ألحق بالكامل الناقص وبالأكثر الأقل.

فعزمت في هذا التقييد المبارك، وفق الله فيه للصواب والتحقيق، ويسر في إتمامه على أكمل طريق، أن أجمع فيه من كلام الأئمة وثقاة علماء هذه الأمة، ضبط ما أشكل من أسماء رواته، وإيضاح ما أبهم من غريب لغاته، وشرح ما لا بد منه من معاني متونة وخفي مكنوناته.

وأنا أسأله جل وعلا متوسلا إليه بنبيه صلى الله وسلم عليه نبي الرحمة، والمنجلي به في هذه الدنيا وفي الأخرى عظائم كل غمة، أن يطهر ظواهرنا وبواطننا من كل ما يكدر نور المعرفة ويقدح في كمال الإيمان، وأن ينعم علينا بصفات حسنة توجب لنا منه الفوز في الدنيا والآخرة والتنعّم بشريف الرضوان، وأن يعيننا في هذا التأليف وفي كل عمل على الإحسان فيه وإخلاص النية، ويكفينا شر أنفسنا وشرّ كل ذي شر حتى نلقاه على أكمل حالة وأحسن طوية، فإنه أهل الجود والمتفضل به لا لغرض بل سعة كرم قبل السؤال، والمفيض على من شاء ولا يبالي ما أعطى ولا لمن أعطى أعظم ما يُنال.

---

(1) نهاية الورقة (1/ظ).

(2) مطموس في: (أ).

ولنشرع فيما قصدناه مستعينين بالله تعالى وهو المنفرد بالإعانة وجميل الهداية، ومصلين على نبيه صلوات الله وسلامه عليه فهو الوسيلة العظمى لكل مطلب والمعتصم الأسنى من كل غواية.

[التعريف بالإمام البخاري]

فنقول: يجب أن نقدم قبل المقصود[1] مقدمة أكيدة في ذكر شيء من مناقب هذا الإمام الذي تصدينا لشرح كلامه، مما يستدل به على علو مقامه، ويوجب التقديم لكلامه واعتقاد كماله، ويستتبع ذلك ذكر نسبه ومولده ورحلته ووفاته، ومصطلحه في أبوابه وتراجمه.

وأما نسبه فهو محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن يَزذبه بياء مثناة من تحت مفتوحة ثم زاي معجمة ساكنة ثم ذال معجمة مكسورة.

ويروى أيضا بالمهملة مكسورة ومفتوحة ثم باء موحدة بعدها هاء التأنيث.

ويزذبه مجوسي مات عليها، والمغيرة ابنه أسلم على يد يمان والي بخارى وكان جعفيا فنسب إلى من أسلم على يديه وهو أيضا مولاه.

ولد يوم الجمعة بعد الصلاة لثلاث عشرة ليلة خلت من شوال سنة أربع وتسعين ومائة، وتوفي ليلة السبت غرّة شوال سنة ست وخمسين ومائتين، عاش اثنتين وستين سنة إلا ثلاثة عشر يوما.

(1) نهاية الورقة (2/و).

ونقل عن الحسن بن الحسين البزاز[1] أنه قال: «رأيت محمد بن إسماعيل شيخا نحيف الجسم معتدلا»[2].

وأما مناقبه وعظيم حفظه فمن ذلك ما نُقِلَ عن محمد بن يوسف بن بشر الفَرَبْرِي[3] أنه قال: «سمعت النجم ابن فضيل وكان من أهل المعرفة والفضل يقول: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام وقد خرج من باب ماستين قرية ببخارى وخلفه محمد بن إسماعيل البخاري، فكلما خطا النبي صلى الله عليه وسلم خطوة خطا محمد بن إسماعيل خطوته»[4].

---

(1) في (أ): الحسن بن الحسن البزار، والصواب ما أثبتناه.

(2) نقله الخطيب في تاريخ بغداد (6/2)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (55/52)، وابن عدي في الكامل (131/1)، والذهبي سير أعلام النبلاء (452/12)، وابن حجر تهذيب التهذيب (42/9)، وابن خلكان في وفيات الأعيان (190/4).

(3) الفربري نسبة إلى فربر بفتح الفاء وكسرها وفتح الراء وسكون الباء الموحدة، وهي من قرى بخارى، وهو المحدث الثقة العالم أبو عبد الله محمد بن يوسف بن مطر بن صالح بن بشر الفربري، راوي الجامع الصحيح عن أبي عبد الله البخاري، سمعه منه بفربر مرتين، الأولى سنة 248 هـ والثانية 252 هـ ورحل إليه الناس وسمعوه منه وهو أحسن من روى الحديث عن البخاري، توفي رحمه الله لعشر بقين من شوال سنة 320 هـ ـ 932م، وقد أشرف على التسعين. له ترجمة في: سير أعلام النبلاء (10/15 ـ 13)، ووفيات الأعيان (290/4)، وشذرات الذهب (286/2).

(4) نقله الخطيب في تاريخ بغداد (10/2)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (77/52)، وابن عدي في الكامل في ضعفاء الرجال (131/1)، وابن عدي في أسامي من روى عنهم محمد بن إسماعيل البخاري من مشايخه (ص: 51)، والمزي في تهذيب الكمال (444/24).

وروي أنه قحط المطر بسمرقند في بعض الأعوام فاستقى الناس مراراً فلم يسقوا[1]، فأتى رجل من الصالحين معروف بالصلاح مشهور به إلى قاضي سمرقند فقال له: إني قد رأيت رأيا أعرضه عليك، قال: وما هو؟ قال: أرى أن تخرج ويخرج الناس معك إلى قبر الإمام محمد بن إسماعيل البخاري وقبره بخرتنك ويستسقوا عنده، فعسى الله أن يسقينا، فقال القاضي: نعمّا رأيت، فخرج القاضي وخرج الناس معه، واستسقى القاضي بالناس وبكى الناس عند القبر وتشفّعوا بصاحبه، فأرسل الله تبارك وتعالى السماء بماء عظيم غزير، أقام الناس من أجله بخرتنك سبعة أيام أو نحوها لا يستطيع أحد الوصول إلى سمرقند من كثرة المطر وغزارته، وبين خرتنك وسمرقند ثلاثة أميال أو نحوها[2].

وروي أن عينيه ذهبتا في صغره فدعت أمه وابتهلت وكانت من المتعبدات فرأت إبراهيم الخليل عليه السلام فقال لها: قد ردّ الله على ابنك بصره رحمة لبكائك ودعائك فأصبح يبصر[3].

وروي في ورعه أنه قال: «منذ وُلدت ما بعت ولا اشتريت بدرهم حتى

---

(1) نهاية الورقة (2/ظ).

(2) نقله ابن بشكوال في الصلة، وسير أعلام النبلاء (469/12)، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي (234/2).

(3) نقله في تاريخ بغداد (10/2)، وتاريخ دمشق (56/52)، وتهذيب الكمال (445/24)، وسير أعلام النبلاء (393/12)، وطبقات الحنابلة لأبي يعلى (274/1)، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي (216/2).

الكاغذ[1] والحبر[2] كنت أُوكِلُ من يفعل ذلك».

قال ابن المُنَيِّر[3]: «كأنه يقلد الوكيل ويخلص من عهدة التصرف مباشرة»[4].

وكانت عنده بضاعة أعطي بها خمسة آلاف فلم يتفق له بيعها، فلما كان الغد أعطاه بها آخر عشرة آلاف فقال: كنت البارحة نويت أن أبيعها لمن أعطى خمسة آلاف فلا أغير نيتي وأمضاها.

قلت: ولا يناقض هذا قوله: منذ ولدت ما بعت ولا اشتريت، إذ لعلّ حكاية البيع بخمسة مائة[5] كانت[6] بوكالة استأذنه الوكيل فيها، أو كانت بعد تلك المقالة.

وكان في رمضان يختم كل ليلة عند الإفطار ويقول: «عند كل ختم دعوة مستجابة»[7].

---

(1) الكاغد والكاغذ: فارسي معرب، وهو ورق الكتابة، وقال السمعاني في الأنساب (326/10): «وهو لا يعمل في المشرق إلا بسمرقند».

(2) في (أ): الخبز، والتصويب من المتواري على أبواب البخاري.

(3) هو العلامة ناصر الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن منصور الجذامي الإسكندري المالكي، المعروف بابن المُنَيِّر، أحد الأئمة المتبحرين في العلوم من التفسير والحديث والفقه والأصلين والنظر والعربية، توفي رحمه الله سنة 683 هـ ـ 1284م. له ترجمة في: الديباج المذهب (ص: 132 ــ 133)، والوافي بالوفيات (128/8)، وشذرات الذهب (381/5)، وشجرة النور (188/1).

(4) المتواري على أبواب البخاري (ص: 43).

(5) كذا في (أ)، وفي القصة المذكورة سابقا: خمسة آلاف.

(6) نهاية الورقة (3/و).

(7) نقله في تاريخ بغداد (12/2)، وتاريخ دمشق (79/52)، وتهذيب الكمال (446/24).

وكان يقرأ في السحر ما بين النصف إلى الثلث من القرآن[1].

وروي أنه صلى في بستان دُعِيَ له بأصحابه الظهر، ثم قـام للتطـوع وأطـال القيـام، فلـما فرغ من صلاته رفع ذيل قميصه فقال لبعض من معه: انظر هل تـرى تحـت قمـيصي شـيئا؟ فإذا زنبور قد أَبَرَهُ[2] في ستة عشر أو سبعة عشر موضعًا وقد تورّم من ذلك جسده، وكان آثار الزنبور في جسده ظاهرة، فقيل له: كيف لم تخرج من الصلاة لأول مـا أبَـرَكَ؟ فقـال: كنـت في سورة فأحببت أن أتمها[3].

وروي عنه أنه قال: «إني لأرجو أن ألقى الـلـه تعالى ولا يحاسبني أني اغتبت أحدًا»[4].

وروي عن الفَرَبْرِي قال: «رأيت النبي صلى الـلـه عليه وسلم في النوم فقال: أين تريد؟

---

(1) نقله في تـاريخ بغـداد (12/2)، وتـاريخ دمشـق (79/52)، وتهـذيب الكـمال (446/24)، وصـفة الصـفوة (170/4)، وطبقات الحنابلة لأبي يعلى (274/1)، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي (224/2).

(2) **أَبَرَهُ:** وَخَزَهُ بإبْرتهِ.

(3) نقله في تاريخ بغداد (12/2)، وتاريخ دمشق (79/52)، وسير أعلام النبلاء (442/12)، وتهذيب الكمال (447/24).

(4) نقله في تاريخ بغداد (13/2)، وتاريخ دمشق (81/52)، وسير أعلام النـبلاء (439/12)، وتهـذيب الكـمال (446/24)، وصفة الصفوة (171/4)، وطبقات الشافعية الكبرى (224/2).

قلت: أريد محمد بن إسماعيل البخاري بالبصرة، فقال: أقرئه مني السلام»[1].

وعن المروزي[2] الفقيه الشافعي: «نمت بين الركن والمقام فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم وقال لي: يا أبا زيد، إلى متى تدرس كتاب الشافعي ولا تدرس كتابي؟! فقلت: يا رسول الله، وما كتابك؟ قال: جامع محمد بن إسماعيل البخاري»[3].

وكان يركب للرمي كثيرا فقال بعض من أطال صحبته: «ما أخطأ سهمه الهدف إلا مرتين»[4].

وكان[5] كثير الإحسان إلى الطلبة مفرط الكرم قليل الأكل جدا، ويستغل في

---

(1) نقله في تاريخ بغداد (10/2)، وتاريخ دمشق (78/52)، وتهذيب الكمال (445/24)، وتهذيب الأسماء واللغات (68/1).

(2) هو أبو زيد محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد المروزي، أحد أئمة المسلمين، ومن أحفظ الناس لمذهب الشافعي، كان نظارا محققا مشهورا بالزهد والعبادة، وحدث بصحيح البخاري عن الفربري وهي أجل الروايات، توفي رحمه الله بمرو سنة 371هـ ـ 981م. له ترجمة في: تاريخ بغداد (314/1)، وتبيين كذب المفتري: (ص: 188 ـ 190)، وسير أعلام النبلاء (313/16 ـ 315)، وطبقات الشافعية الكبرى (71/3 ـ 77).

(3) نقله في سير أعلام النبلاء (438/12)، وتهذيب الأسماء واللغات (75/1)، وهدي الساري مقدمة فتح الباري (ص: 489).

(4) نقله في سير أعلام النبلاء (444/12)، وهدي الساري مقدمة فتح الباري (ص: 480)، وطبقات الشافعية الكبرى (226/2).

(5) نقله في سير أعلام النبلاء (449/12).

كل شهر خمس مائة وينفقها في الطلب ويقول[1]: (وَمَا عِنْدَ اللـه خَيْرٌ وَأَبْقَى) [2].

ومرض فعرض ماؤه على الأطباء فقالوا: يشبه هذا ماء أساقفة النصارى فإنهم لا يأتدمون، فقال: ما ائتدمت منذ أربعين سنة، فألح المشايخ فأجاب بعد امتناع إلى أكل خبز مع سكر[3].

وكان ربما قام في الليل عشرين مرة يقدح النار ويستسرج ويُعَلِّمُ على أحاديث ثم ينام[4]، وكان قليل الكلام، لا يطمع ولا يشتغل بأمور الناس[5].

وقال: «دعوت اللـه مرتين فاستجيب لي، فلا أحب أن أدعو لعله ينقص حسناتي»[6].

قال رجاء بن مرجا[7]: «فضل البخاري على العلماء كفضل الرجال على

---

(1) نهاية الورقة (3/ظ).

(2) [سورة الشورى: 36].

(3) نقله في تاريخ دمشق (80/52)، وهدي الساري مقدمة فتح الباري (ص: 481).

(4) نقله في تاريخ بغداد (13/2)، وتاريخ دمشق (71/52)، وسير أعلام النبلاء (404/12)، وتهذيب الكمال (447/24)، وصفة الصفوة (170/4)، وطبقات الشافعية الكبرى (220/2).

(5) نقله في سير أعلام النبلاء (448/12).

(6) نقله في هدي الساري مقدمة فتح الباري (ص: 480).

(7) هو أبو محمد رجاء بن مرجا بن رافع المروزي، الإمام الحافظ، رحل في طلب الحديث وحدث عنه أبو داود وابن ماجه وابن أبي الدنيا وغيرهم، توفي رحمه اللـه ببغداد في غرة جمادى الأولى سنة 249 هـ 863 م. له ترجمة في: الجرح والتعديل (503/3)، تاريخ بغداد (410/8)، وتاريخ دمشق (127/18 ـ 131)، وسير أعلام النبلاء (98/12 ـ 100)، وتهذيب التهذيب (232/3 ـ 233).

النساء»[1].

وقال البخاري: «رأيتني في النوم وأنا واقف بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم، وبيدي مروحة أذب عنه، فقال لي مُعَبِّرٌ[2]: تذب عنه الكذب، فحملني ذلك على تخريج الصحيح»[3].

وروي عن عمر بن حفص[4] الأشقر قال: «كنا مع محمد بن إسماعيل البخاري بالبصرة نكتب الحديث، ففقدناه أياما فطلبناه فوجدناه في بيت وهو عريان وقد فقد ما عنده ولم يبق معه شيء، فاجتمعنا وجمعنا له الدراهم حتى اشترينا له ثوبا وكسوناه ثم اندفع معنا في كتابة الحديث»[5].

وقال محمد بن منصور[6]: «كنا في مجلس البخاري في المسجد فأخذ أحد الحاضرين من لحية البخاري قذاة فطرحها، فرأيت البخاري ينظر إليها وإلى

---

(1) نقله في تاريخ بغداد (25/2)، وتاريخ دمشق (87/52)، وسير أعلام النبلاء (98/12)، وهدي الساري مقدمة فتح الباري (ص: 483).

(2) أي: من عبَر له الرؤيا وفسرها له.

(3) نقله في تهذيب الأسماء واللغات (74/1)، وهدي الساري مقدمة فتح الباري (ص: 7)، وشذرات الذهب (134/2)، وتدريب الراوي (88/1).

(4) في: (أ)، حفص بن عمر الأشقر، والتصحيح من المصادر الآتية.

(5) نقله في تاريخ بغداد (13/2)، وتاريخ دمشق (58/52)، وسير أعلام النبلاء (448/12)، وطبقات الشافعية الكبرى (217/2).

(6) في: (أ): عثمان بن منصور، والتصويب من المتواري على أبواب البخاري (ص: 44).

الناس يستغفلهم، حتى إذا غفلوا في ظنه أخذها[1] وأدخلها في كمه، فلما خـرج مـن المسـجد مد يده إلى كُمه فأخذها وطرحها في الأرض».

قال ابن المُنَيِّر: «فهم موضع قوله عز وجل: (وَمَن يَعْمَـلْ مِثْقَـالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَـرَهُ) [2]، وكـم في تلك القذاة من ذرة، وكأنه تورع أن تنزّه لحيته عن شيء ولا ينزّه عنه المسجد»[3].

يروى عن عبد الواحد بن آدم الطواويسي قال: «رأيت النبي صـلى اللــه عليـه وسـلم في النوم ومعه جماعة من أصحابه وهو واقف في موضع ذكره فسلّمتُ عليه فرد السلام، فقلت: ما وقوفك يا رسول اللـه؟

فقال: أنتظر محمد بن إسماعيل البخاري، فلما كان بعد أيام بلغنـي موتـه، فنظرنـا فـإذا هو قد مات في الساعة التي رأيت النبي صلى اللـه عليه وسلم فيها»[4].

وروي من نوادر المقري حفظـه اللــه، أنـه لما قـدم بغـداد[5] سـمع بـه أهـل الحـديث فــاجتمعوا وعمــدوا إلى مائــة حــديث فقلبــوا متونهــا وأســانيدها، وجعلــوا مــتن هــذا

(1) نهاية الورقة (4/و).

(2) [سورة الزلزلة: 8].

(3) المتواري على أبواب البخاري (ص: 44).

(4) نقله في تاريخ بغداد (34/2)، وتاريخ دمشق (98/52)، وسير أعلام النـبلاء (468/12)، وتهـذيب الكـمال (466/24)، وطبقات الشافعية الكبرى (232/2)، وشذرات الذهب (135/2).

(5) أي: البخاري رحمه اللـه.

الإسناد لإسناد آخر، وإسناد هذا المتن لمتن آخـر، ودفعوهـا إلى عشرة رجـال لكـل رجـل عشرة أحاديث، وأمروهم إذا حضروا المجلس أن يلقوا ذلك على البخاري، وأخذوا الموعد للمجلـس، فحضر المجلس جماعة من أصحاب الحـديث مـن الغربـاء مـن أهـل خراسـان وغيرهـا مـن البغداديين.

فلما اطمأن المجلس بأهله اقترب إليه كل واحد من العشرة الرجال يعرض عليـه مـا معـه من العشرة الأحاديث المقلوبة، وجعل البخاري يقول في كل حديث[1] يعرض عليه: لا أعرفـه، فاستقصر النظارة حفظه لكثرة ما صدر منه من قوله: لا أعرفه.

فلما عرف البخاري أنهم قد فرغوا التفت إلى الأول منهم فقال: أمـا حـديثك الأول فكـذا، وحديثك الثاني هو كذا وكذا، وكذا الثالث والرابع على الولاء حتـى أتى إلى تمـام الـعشرة، فـرد كل متن إلى إسناده وكل إسناد إلى متنه، وفعل بالآخرين كذلك، وردّ متون الأحاديث كلهـا إلى أسانيدها، وأسانيدها إلى متونها، فأقرّ له الناس بالحفظ والعلم وأذعنوا له بالفضل[2].

---

(1) نهاية الورقة (4/ظ).

(2) نقلت هذه القصة في تـاريخ بغـداد (20/2)، وتـاريخ دمشـق (66/52)، وسـير أعـلام النـبلاء (408/12)، وتهـذيب الكمال (456/24)، ووفيات الأعيان (189/4).

وكان ابن صاعدة[1] إذا ذكر البخاري يقول: «الكبش النطاح»[2].

وذكر أبو [بكر][3] أحمد بن علي بن ثابت الخطيب[4]: أن البخاري ارتحل في طلب [الحديث][5] إلى سائر محدثي الأمصار، وكتب بخراسان والجبال ومدن العراق كلها وبالحجاز، والشام ومصر، وذكر له شيوخا كثيرة[6].

وروي عنه أنه قال: «ألهمت حفظ الحديث وأنا في الكُتَّابِ، قيل: وكم أتى عليك إذ ذاك؟ قال: عشر سنين أو أقل، ثم خرجت من الكُتَّابِ بعد العشر

---

(1) في: (أ)، ابن صاعدة، والصواب ابن صاعد، وهو أبو محمد يحيى بن محمد بن صاعد الهاشمي بالولاء البغدادي، الإمام الحافظ المجود، محدث العراق، والعالم بالعلل والرجال، توفي رحمه الله بالكوفة في ذي القعدة سنة 318 هـ ـ 930 م عن تسعين سنة وأشهر. له ترجمة في: تاريخ بغداد (231/14 ـ 234)، وتاريخ دمشق (356/64 ـ 365)، وسير أعلام النبلاء (14/ 501 ـ 507).

(2) نقله في تاريخ بغداد (21/2)، وتاريخ دمشق (67/52)، وسير أعلام النبلاء (409/12)، وتهذيب الكمال (456/24)، ووفيات الأعيان (190/4)، وهدي الساري مقدمة فتح الباري (ص: 485).

(3) [بكر] ساقط من: (أ) .

(4) هو أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي، الإمام الحافظ الناقد، العلامة الفقيه المفتي، صاحب التصانيف، قال الذهبي: «جمع وصنف وصحح، وعلل وجرح، وعدل وأرخ وأوضح، وصار أحفظ أهل عصره على الإطلاق»، توفي سنة 463هـ ـ 1072 م. له ترجمة في: تاريخ دمشق (31/5 ـ 41)، وسير أعلام النبلاء (270/18 ـ 296)، ووفيات الأعيان (92/1 ـ 93)، وطبقات الشافعية الكبرى (29/4 ـ 39)، وشذرات الذهب (311/3 ـ 312).

(5) [الحديث] ساقط من: (أ).

(6) ذكر ذلك في ترجمة الإمام البخاري في تاريخ بغداد (3/2 ـ 34).

فجعلت أختلف إلى الداخلي وغيره، فقال يوما فيما كان يقرأ للناس: سفيان عن أبي الزبير عن إبراهيم، فقلت له: يا أبا فلان، إن أبا الزبير لم يرو عن إبراهيم، فانتهرني، فقلت: ارجع إلى الأصل إن كان عندك، فدخل فنظر فيه ثم خرج فقال لي: كيف هو يا غلام؟ فقلت: هو عن الزبير بن عدي عن إبراهيم، فأخذ القلم مني وأحكم كتابه فقال: صدقت، فقال له بعض أصحابه: ابن كم كنت إذ رددت عليه؟ فقال: ابن إحدى عشرة سنة»[1].

وروي أنه صنف كتاب التاريخ الكبير عند قبر النبي[2] صلى الله عليه وسلم في الليالي المقمرة وقال: «قلّ اسم في التاريخ إلا وله عندي قصة، إلا أني كرهت تطويل الكتاب»[3].

وروي عن محمد بن أبي حاتم[4] قال: «سمعت البخاري يقول: لو نُشر بعض

(1) نقله في تاريخ بغداد (6/2)، وتاريخ دمشق (57/52)، وتهذيب الكمال (439/24)، وصفة الصفوة (169/4)، وهدي الساري مقدمة فتح الباري (ص: 478).

(2) نهاية الورقة (5/و).

(3) نقله في تاريخ بغداد (7/2)، وتاريخ دمشق (57/52)، وسير أعلام النبلاء (400/12)، وتهذيب الكمال (440/24)، وطبقات الشافعية الكبرى (216/2)، وهدي الساري مقدمة فتح الباري (ص: 478).

(4) هو أبو جعفر محمد بن أبي حاتم البخاري النحوي وراق البخاري أي ناسخ كتبه. قال الحافظ ابن حجر في الفتح (فتح الباري) (60/9): «وأبو جعفر كان يورق للبخاري، أي ينسخ له، وكان من الملازمين له والعارفين به والمكثرين عنه».

أستاذيّ هؤلاء لم يفهموا كيف صنفت كتاب التاريخ ولا عرفوه»[1].

وسمعته يقول: «أخذ إسحاق بن راهويه كتاب التاريخ الذي صنفت فأدخله على عبد الله بن طاهر فقال: أيها الأمير، ألا أريك سحرًا؟ قال: فنظر فيه عبد الله بن طاهر فتعجب منه وقال: لست أفهم تصنيفه»[2].

وروي عن أبي العباس بن سعيد ـ وهو من حفاظ الكوفة في زمانه، ويعرف بابن عقدة ـ أنه قال: «لو أن رجلاً كتب ثلاثين ألف حديث لما استغنى عن كتاب تاريخ البخاري»[3].

وروي عن أبي بكر المديني[4] قال: «كنّا يوما بنيسابور عند إسحاق بن راهويه ومحمد بن إسماعيل حاضر، فمرّ إسحاق بحديث من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم وكان الراوي فيه عن الصحابي عطاء الكيخاراني، فقال له إسحاق: يا أبا عبد الله، أيش كيخاران؟ قال: قرية باليمن، كان معاوية بن أبي سفيان يبعث

(1) نقله في تاريخ بغداد (7/2)، وتاريخ دمشق (75/52)، وسير أعلام النبلاء (403/12)، وتهذيب الكمال (440/24)، وطبقات الشافعية الكبرى (221/2)، وهدي الساري مقدمة فتح الباري (ص: 487).

(2) نقله في تاريخ بغداد (7/2 ـ 8)، وتاريخ دمشق (75/52)، وتهذيب الكمال (441/24)، وتهذيب التهذيب (42/9).

(3) نقله في تاريخ بغداد (7/2)، وتاريخ دمشق (75/52)، وسير أعلام النبلاء (403/12)، وتهذيب الكمال (440/24)، وطبقات الشافعية الكبرى (221/2).

(4) في (أ): المدني.

هذا الرجل من أصحاب النبي صلى الـلـه عليه وسلم إلى اليمن، فسمع منـه عطـاء حـديثين، فقال له إسحاق: يا أبا عبد الـلـه، كأنك قد شهدت القوم»[1].

وروي عنه أنه قال: «أخرجت هذا الكتاب ـ يعني الصحيح ـ مـن زهـاء سـت مئـة ألـف حديث»[2].

وقال محمد بن يوسف الفربري أيضا: إنه قال: «سمع كتـاب الصـحيح للبخـاري تسـعون ألف رجل، فما بقي أحد يرويه غيري»[3].

وروي أن البخاري قال: «صنّفت كتاب الصحيح لست عشرة سنة، وجعلتـه[4] حجـة فـيما بيني وبين الـلـه»[5].

وروي عــن يوســف بــن مــوسى المَــرْوَرُّذيّ[6] قــال: «كنــت بــالبصرة في جامعهــا إذ سمعت مناديا ينـادي: يـا أهـل العلـم، قـد قـدم محمـد بـن إسـماعيل البخـاري، فقـاموا في

---

(1) نقله في تاريخ بغداد (8/2)، وتاريخ دمشق (76/52)، وسير أعـلام النـبلاء (415/12)، وتهـذيب الكـمال (441/24)، وتهذيب التهذيب (42/9).

(2) نقله في سير أعلام النبلاء (402/12)، وتهذيب الكمال (442/24).

(3) نقله في تاريخ بغداد (9/2)، وتاريخ دمشق (74/52)، وسير أعـلام النـبلاء (398/12)، وتهـذيب الكـمال (443/24)، وطبقات الحنابلة (274/2).

(4) نهاية الورقة (5/ظ).

(5) نقله في تاريخ بغداد (14/2)، وتاريخ دمشق (72/52)، وسير أعلام النـبلاء (405/12)، وتهـذيب الكـمال (449/24)، وطبقات الحنابلة (276/2)، وطبقات الشافعية الكبرى (221/2).

(6) المَرْوَرُّذيّ: نسبة إلى مرورذ، وهي مدينة مبنية على نهر، وهي أشهر مدن خراسان؛ انظر وفيات الأعيان (69/1).

طلبه وكنت معهم، فرأينا رجلا شابا لم يكن في لحيته شيء من البياض يصلي خلف الأسطوانة، فلما فرغ من الصلاة أحدقوا به وسألوه أن يعقد لهم مجلس الإملاء فأجابهم إلى ذلك، فقام المنادي ثانيا فنادى: قد قدم أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، فسألناه أن يعقد الإملاء وقد أجاب بأن يجلس غدا في موضع كذا.

قال: فلما كان بالغداة حضر الفقهاء والمحدثون والحفّاظ والنظّار حتى اجتمع قريب من كذا وكذا ألفا، فجلس أبو عبد الله البخاري للإملاء فقال: قبل أن آخذ في الإملاء يا أهل البصرة، أنا شاب وقد سألتموني أن أحدثكم، وسأحدثكم بأحاديث عن أهل بلدكم يستفيد الكل منكم، فتعجبوا من قوله.

ثم أخذ في الإملاء فقال: حدثنا عبد الله بن عثمان بن جبلة بن أبي رواد العتكي بلديّكم قال: أخبرني أبي عن شعبة عن منصور وغيره عن سالم بن أبي الجعد عن أنس بن مالك أن أعرابيا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، الرجل يحب القوم، فذكر حديث «**المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**»[1].

ثم قال محمد بن إسماعيل: هذا ليس عندكم، إنما هو عندكم عن غير منصور عن سالم.

قال يوسف بن موسى: وأملى عليهم مجلسا على هذا النسق، يقول في كل حديث: روى شعبة هذا الحديث عندكم كذا، فأما من رواية فلان فليس عندكم، أو كلامًا

---

(1) الحديث متفق عليه من رواية سالم بن أبي الجعد عن أنس رضي الله عنه. أخرجه البخاري (173/3 رقم: 6171)، ومسلم (2032/4 رقم: 2639).

هذا[1] معناه»[2].

وقال أبو مصعب أحمد بن أبي بكر المديني[3]: «محمد بن إسماعيل أفقه عندنا وأبصر من ابن حنبل، فقال رجل من جلسائه: جاوزت الحدّ، قال أبو مصعب: لو أدركت مالكا ونظرت إلى وجهه ووجه محمد بن إسماعيل، لقلت: كلاهما واحد في الفقه والحديث»[4].

وروي عن أبي بكر بن أبي شيبة ومحمد بن عبد الله بن نمير أنهما كانا يقولان: «ما رأينا مثل محمد بن إسماعيل»[5].

وروي عن محمد بن أبي حاتم قال: سمعت محمود بن النضر أبا سهيل الشافعي يقول: «دخلت البصرة والشام والحجاز والكوفة ورأيت علماءها، فكلما

---

(1) نهاية الورقة (6/و).

(2) نقله في تاريخ بغداد (15/2 ـ 16)، وتاريخ دمشق (67/52)، وسير أعلام النبلاء (409/12 ـ 410)، وطبقات الشافعية الكبرى (219/2).

(3) في (أ): المدني.

(4) نقله في تاريخ بغداد (19/2)، وتاريخ دمشق (86/52)، وسير أعلام النبلاء (420/12)، وتهذيب الكمال (455/24)، وتهذيب التهذيب (43/9)، وهدي الساري مقدمة فتح الباري (ص: 482).

(5) نقله في تاريخ بغداد (19/2)، وتاريخ دمشق (83/52)، وسير أعلام النبلاء (421/12)، وتهذيب الكمال (452/24)، وتهذيب الأسماء (69/1)، وتهذيب التهذيب (43/9)، وهدي الساري مقدمة فتح الباري (ص: 484).

جرى ذكر محمد بن إسماعيل البخاري فضلوه عن أنفسهم»[1].

وكان ابن خزيمة يقول: «ما رأيت تحت أديم السماء أعلم بالحديث من محمد بن إسماعيل البخاري»[2].

وكتب أهل بغداد إلى البخاري رحمه الله[3]:

المُسْلِمُونَ بِخَيْرٍ مَا بَقِيتَ لَهُمْ وَلَيْسَ بَعْدَكَ خَيْرٌ حِينَ تُفْتَقَدُ

وروي عن صالح بن محمد البغدادي ويعرف بجزرة[4] وكان من الحفاظ قال:

---

(1) نقله في تاريخ بغداد (19/2)، وتاريخ دمشق (65/52)، وسير أعلام النبلاء (422/12)، وتهذيب الكمال (452/24)، وتهذيب الأسماء (69/1)، وتهذيب التهذيب (44/9)، وهدي الساري مقدمة فتح الباري (ص: 485).

(2) نقله في تاريخ دمشق (65/52)، وسير أعلام النبلاء (431/12)، وتهذيب الأسماء (70/1)، وتهذيب التهذيب (45/9)، وهدي الساري مقدمة فتح الباري (ص: 485)، وطبقات الشافعية الكبرى (218/2).

(3) نقله في تاريخ بغداد (22/2)، وتاريخ دمشق (90/52)، وسير أعلام النبلاء (434/12)، وتهذيب الكمال (168/10)، وتهذيب التهذيب (44/9)، وهدي الساري مقدمة فتح الباري (ص: 485).

(4) في (أ): جزة، والمثبت هو الصواب. وهو أبو علي صالح بن محمد بن عمرو البغدادي الحافظ، من ولد حبيب بن الأشرس، لقبه جزرة، كان ثقة صدوقا حافظا عارفا، ولد بالكوفة، وسكن بغداد، ورحل في طلب الحديث إلى الشام ومصر وخراسان، وقدم بخارى وأقام بها حتى مات في ذي الحجة سنة 293 هـ 906م. له ترجمة في: تاريخ بغداد (322/9 ـ 328)، وسير أعلام النبلاء (23/14 ـ 33).

«كان البخاري يجلس ببغداد وكنت أستملي له، ويجتمع في مجلسه أكثر من عشرين ألفا»[1].

وسئل الفضل بن العباس الرازي أيهما أحفظ أبو زرعة أو محمد بن إسماعيل؟ فقال: سرت مع محمد بن إسماعيل مرحلة فجهدت الجهد على أن أجيء بحديث لا يعرفه فما أمكنني، وأنا أغرب على أبي زرعة عدد شعره[2].

وروي أن البخاري قال: «أحفظ مائة ألف حديث صحيح، وأحفظ مائتي ألف حديث غير صحيح»[3].

وقال أبو عيسى الترمذي: «لم أر أحدا بالعراق ولا بخراسان في معنى العلل والتاريخ ومعرفة الأسانيد أعلم من محمد بن إسماعيل»[4].

---

(1) نقله في تاريخ بغداد (20/2)، وتاريخ دمشق (68/52)، وسير أعلام النبلاء (433/12)، وتهذيب الكمال (452/24)، وتهذيب الأسماء (70/1)، وهدي الساري مقدمة فتح الباري (ص: 485).

(2) نقله في تاريخ بغداد (23/2)، وتاريخ دمشق (65/52)، وسير أعلام النبلاء (434/12)، وتهذيب الكمال (458/24)، وتهذيب التهذيب (44/9)، وهدي الساري مقدمة فتح الباري (ص: 485)، وطبقات الشافعية الكبرى (225/2).

(3) نقله في تاريخ بغداد (25/2)، وتاريخ دمشق (64/52)، وتهذيب الكمال (461/24)، وتهذيب الأسماء (68/1)، وهدي الساري مقدمة فتح الباري (ص: 487)، وطبقات الشافعية الكبرى (218/2).

(4) ذكره في كتابه العلل الصغير (738/1)، ونقله في تاريخ بغداد (27/2)، وتاريخ دمشق (70/52)، وسير أعلام النبلاء (432/12)، وتهذيب الأسماء (70/1).

وقال أبو عمرو الخفاف: «من قال في محمد بن إسماعيل شيئا فمني عليه ألف لعنة، محمد بن إسماعيل النقي التقي العالم الذي لم أر مثله»[1].

وروي[2] عن محمد بن أبي حاتم قال: سمعت علي بن حجر قال: «أخرجت خراسان ثلاثة: أبا زرعة الرازي بالرّي، ومحمد بن إسماعيل ببخارى، وعبد الله بن عبد الرحمن السمرقندي بسمرقند، ومحمد بن إسماعيل عندي أبصرهم وأعلمهم وأفقههم»[3].

وقال أحمد بن حمدون القصار: «سمعت مسلم بن الحجاج وجاء إلى البخاري فقبل بين عينيه وقال: دعني حتى أقبّل رجليك يا أستاذ الأستاذين وسيد المحدّثين وطبيب الحديث في علله، حدّثك محمد بن سلام قال: حدثنا مخلد بن يزيد الحرّاني قال: أخبرنا ابن جريج عن موسى بن عقبة عن سهيل عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم عن كفارة المجلس[4] فما علته؟ فقال

(1) نقله في تاريخ بغداد (27/2)، وتاريخ دمشق (78/52)، وسير أعلام النبلاء (436/12)، وتهذيب التهذيب (46/9)، وهدي الساري مقدمة فتح الباري (ص: 485).

(2) نهاية الورقة (6/ظ).

(3) نقله في تاريخ بغداد (28/2)، وتاريخ دمشق (88/52)، وسير أعلام النبلاء (421/12)، وتهذيب الأسماء (69/1).

(4) نص الحديث كما جاء عند الترمذي: «مَنْ جَلَسَ فِي مَجْلِسٍ فَكَثُرَ فِيهِ لَغَطُهُ فَقَالَ قَبْلَ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَجْلِسِهِ ذَلِكَ: سُبْحَانَكَ اللهمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ، إِلاَّ غُفِرَ لَهُ مَا كَانَ فِي مَجْلِسِهِ ذَلِكَ».أخرجه أحمد (494/2 رقم: 10420)، والترمذي (494/5

البخاري: هذا حديث مليح، ولا أعلم في الدنيا غير هذا الحديث الواحد في هذا الباب، إلا أنه معلول، نا به موسى بن إسماعيل قال: نا وهيب قال: نا سهيل عن عون بن عبد الله قوله.

قال محمد بن إسماعيل: هذا أولى، فإنه لا يذكر لموسى بن عقبة سماع سهيل.

وذكرها أبو بكر وفي آخرها فقال له مسلم: لا يبغضك إلا حاسد، وأشهد أنه ليس في الدنيا مثلك»[1].

وروي عن أبي بكر بن أبي عمر الحافظ أنه قال: «كان سبب مفارقة أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البلد يعني بخارى أن خالد بن أحمد الذهلي الأمير خليفة الظاهرية ببخارى سأله أن يحضر منزله فيقرأ الجامع والتاريخ على أولاده، فامتنع عن الحضور عنده، فراسله أن يعقد مجلسا لأولاده ولا يحضره غيرهم، فامتنع عن ذلك أيضا وقال: لا يسعني أن أخص بالسماع قوما دون قوم، فاستعان خالد بن أحمد بحُريث بن أبي الورقاء وغيره من أهل العلم ببخارى عليه حتى تكلموا في مذهبه ونفاه عن البلد، فدعا عليهم البخاري فقال: اللهم أرهم ما قصدوني به في

رقم: 3433) وقال: حسن غريب صحيح، وابن حبان (354/2 رقم: 594)، والحاكم (720/1 رقم: 1969) وصححه ووافقه الذهبي، والبيهقي في شعب الإيمان (435/1 رقم: 628).

(1) نقله في تاريخ بغداد (29/2)، وتاريخ دمشق (69/52)، والإرشاد في معرفة علماء الحديث (963/3)، وسير أعلام النبلاء (436/12)، وتهذيب الأسماء (70/1)، وهدي الساري مقدمة فتح الباري (ص: 489).

أنفسهم وأولادهم وأهاليهم، فأما خالد فلم يأت عليه إلا أقل من شهر حتى ورد أمر الظاهرية بأن ينادى عليه، فنودي عليه وهو على أتان وأشخص على إكاف[1]، ثم صار عاقبة أمره إلى ما قد اشتهر وشاع، وأما ابن أبي الورقاء فإنه ابتلي بأهله فرأى فيها ما يجل عن الوصف، وأما فلان أحد القوم وسماه فإنه ابتلي بأولاده وأراه الله فيهم البلايا»[2].

قال ابن المنير: «ومن مناقبه الدينية ومآثره الدالة على خلوص النية أنه امْتُحِنَ بمناوأة محمد بن يحيى الذهلي، وكان محمد هذا من جملة مشايخه، ومتعينا في عصره، تقدما بالسن، وتخصصا بالفضل، وانتصابا للإفادة، واشتهارًا زائدا على العادة، وحقا مطاعا وأمرا مراعى[3].

واقتضى له مجموع هذه الأحوال أن ظهر على البخاري وغَيَّرَ في وجه وجاهته وكدر في اعتقاد الخلق صفو نزاهته، إلى أن نادى عليه أن لا يجلس أحد إليه، فأقام البخاري برهة من الزمان وحيدًا فريدًا، ثم لم يكفه حتى أجلاه عن الوطن غريبا شريدًا، وانقسم الناس في حقه إلى قسمين: أحناهما عليه وأدناهما إليه هو الذي

(1) **الأتان:** أنثى الحمار، **والإكاف:** برذعة الحمار.

(2) نقله في تاريخ بغداد (33/2)، وتاريخ دمشق (97/52)، وسير أعلام النبلاء (464/12)، وتهذيب الكمال (465/24)، وتهذيب التهذيب (44/9)، وهدي الساري مقدمة فتح الباري (ص: 494)، وطبقات الشافعية الكبرى (233/2).

(3) في المتواري على أبواب البخاري «متقدما بالسن، ومتخصصا بالفضل، وانتصابا للإفادة، واشتهارا زائدا على العادة، وآمرا مطاعا، وحقا مراعا».

يبطن فيه الاعتقاد ولا يتجاسر على تعظيمه خشية الانتقاد، حتى قيل عنه ـ رضي اللـه عنه ـ إنه دعا في سجوده ذات ليلة دعوة ورّخها من كان معه وأجابها من قبل دعاءه وسمعه، وذلك أنه قال: اللـهم إنه قد ضاقت علي الأرض بما رحبت فاقبضني إليك، فقبض لشهر من هذه الدعوة[1]، ثم لم يكن إلا أن اجتمع الخصمان في دار الجزاء، وقدِمَا على الحَكَمِ المُنْصِفِ في القضاء، فانقلب خمول البخاري ظهورا، وظهور غيره دثورًا، وقطع الناس بتعظيم البخاري أعصرًا ودهورًا، وقطع ذكر الذهلي حتى كأن لم يكن شيئا مذكورا، فهو إلى الآن لا يعرف اسمه إلا متوغل في معرفة أسماء المشاهير والخاملين، ولا يمر ذكره على الألسنة إلا في الحين بعد الحين، والعاقبة للمتقين، والعمل على الخواتيم وعندها يزول الشك باليقين.

وقصته مع محمد بن يحيى الذهلي أسندها الخطيب، وهذا معناها: قال: حدثني محمد بن أحمد بن يعقوب، نا محمد بن نعيم قال: سمعت محمد بن حامد يقول: سمعت الحسن بن محمد يقول: سمعت محمد بن يحيى الذهلي يقول: لما ورد محمد بن إسماعيل البخاري نيسابور.

قلت: اذهبوا إلى هذا الرجل الصالح العالم فاسمعوا منه، فذهب الناس إليه وأقبلوا بالكلية عليه، حتى ظهر الخلل في مجلس الذهلي فحسده بعد ذلك وتكلم فيه[2].

(1) نهاية الورقة (7/ظ).

(2) تاريخ بغداد (30/2).

قال ابن المُنَيِّر رحمه الـلـه: قلت تحسين الظن يوجب تحرير هـذه العبـارة، وكأنـه أراد ـ والـلـه أعلم ـ فعل معه فعل الحاسدين بتأويل عنده، والـلـه أعلم.

قال ابن الخطيب: وأخبرنا أبو حازم قال: سـمعت الحسـن بـن أحمـد بـن شـيبان يقـول: سمعت أبا حامد يقول: رأيت محمد بن إسماعيل في جنازة أبي عـثمان والـذهلي يسـأله عـن الأسماء والكنى والعلل، وهو يمر فيه كأنه السهم، فما أتى عـلى ذلـك شـهر حتـى تكلـم فيـه، وقال: من اختلف إليه فلا يختلف إلينا، وتعلل بأن أهل بغداد كاتبوه بأنـه تكلـم في اللفـظ، وكان الذهلي يقول: من قال لفظي بالقرآن[1] مخلوق فهو مبتـدع يزجـر ويهجـر، ومـن قـال: القرآن مخلوق فهو كافر يقتل ولا ينظر.

والذي صح عن البخاري رحمه الـلـه أنه سئل عن اللفظ وضـايقه السـائل فقـال: أفعـال العباد كلها مخلوقة، وكان يقول مع ذلك: القرآن كلام الـلـه غير مخلوق.

وذكر أن مسلم بن الحجاج رحمه الـلـه ثبت معه في المحنة، وقال يوما الذهليُّ ـ ومسـلم في مجلسه ـ: من كان يختلف إلى هذا الرجل فلا يختلف إلينا، فعلم مسلم أنه المـراد، فأخـذ طيلسانه وقام على رؤوس الناس فبعث إلى الذهلي بجميع الأجزاء التي كان أخذها عنه.

ومن تمام رسوخ البخاري[2] في الورع أنه كان يحلف بعد هذه المحنـة أن الحامـد والـذّام عنده من الناس سواء.

---

(1) نهاية الورقة (8/و).

(2) في الهامش: ومن تمام رسوخ البخاري رضي الـلـه عنه.

يريد أنه لا يكره ذامّه[1] طبعا، ويجوز أن يكرهه شرعا، فيقوم بالحق لا بالحظ، ويحقق ذلك من حاله أنه لم يمح اسم الذهلي من جامعه، بل أثبت روايته عنه، غير أنه لم يوجد في كتابه إلا على أحد وجهين:

إما أن يقول: حدثنا محمد، أو يقول: حدثنا محمد بن خالد، فينسبه إلى جد أبيه.

قال ابن المنير: فإن قلت: فما باله أغفله، واتقى أن يذكره بنسبه المشهور؟

قلت: لما اقتضى التحقيق عنده أن يبقي روايته عنه خشية أن يكتم علما رزقه الله إياه على يديه، وعَذره في قدحه فيه بالتأويل والتعويل على تحسين الظن، خشي على الناس أن يقعوا فيه بأنه قد عدل من جرحه، وذلك يوهم أنه قد صدّقه على نفسه فيجر ذلك إلى البخاري وهنًا، فأخفى اسمه وغطى رسمه وما كتم علمه، فجمع بين المصلحتين، والله أعلم بمراده من ذلك»[2].

ولنقتصر على هذا القدر[3] اليسير من مناقبه، فإن التشاغل بها على سبيل الإحصاء لا يفي به إلا تأليف مستقل، والمقصود الإشارة إلى علوّ مقامه لتنشط النفوس إلى اقتفاء آثاره، وتعتكف على اقتطاف أنوار المعاني وجواهرها من عقود كلامه، نفعنا الله به وعلّمنا علما نافعا، وأعاننا على العمل به بجاه نبيّه محمد نبي الرحمة صلوات الله وسلامه عليه.

(1) في (أ): ذمه، والتصويب من المتواري على أبواب البخاري (ص: 46).

(2) المتواري على أبواب البخاري (ص: 44 ـ 47).

(3) نهاية الورقة (8/ظ).

[مصطلحات الإمام البخاري في كتابه]

وبقي لنا أن نتعرض لمصطلحه في أبواب جامعه وما قصده من اللطائف في نحو ذلك من منازعه، فنقول:

اعلم أولا أن كتاب الجامع الصحيح للبخاري أجمعت الأمة قديما وحديثا على أنه أصح الكتب في الحديث، وما روى ابن مندة من قول أبي علي النيسابوري: «ما تحت أديم السماء أصح من كتاب مسلم»[1]، يردّه الإجماع قبله وبعده، على أن لفظه لا يقتضي أن كتاب مسلم أصح من كتاب البخاري، لاحتمال تساويهما عنده.

وأما تفضيل بعض المغاربة لصحيح مسلم فلأمر آخر غير الأصحّية، وهو أنه أسهل تناولا وأقرب إلى الضبط، لجمعه متون الباب في موضع واحد تامة بلفظها مفردة لا مفرّقة على الأبواب ولا مقطّعة فيها، ولا يرويها بالمعنى ولا يخلطها بقول صحابي ولا قول عالم غيره، وهذه الجهة أو الجهات من الأفضلية مقابلة بجهات لطيفة ونكت شريفة قصدها البخاري، فتبقى الأصحية له مسلّمة.

وذلك أن البخاري رحمه الله ورضي عنه أفاد في جامعه هذا الجمع بين علم الكتاب والسنة وأقوال الأئمة مما يرجّحه الكتاب أو السنة أو يرده أو يضعفّه أو

(1) نقله في تاريخ بغداد (101/13)، وتاريخ دمشق (274/14)، وسير أعلام النبلاء (566/12)، وهدي الساري مقدمة فتح الباري (ص: 8)، وطبقات الشافعية الكبرى (278/3)، ووفيات الأعيان (194/5).

يتأيد به[1] تفسيره في الحديث، و أشار في تراجمه إلى استنباط الفقه من الأحاديث على وجه خفي وقف هو للتنبيه عليه، وغالب أحواله خصوصا في تراجمه أن يضمّ إلى الحديث الذي على شرطه ما يناسبه من القرآن أو تفسيره أو حديث على شرطه أو أثر صاحب أو تابعي، فحصلت له المزية على الجوامع بجمعه بين علم الكتاب والسنة والتعريف بآراء المقتدى بهم من علماء هذه الأمة.

وأما تفريقه الحديث على الأبواب فلظهوره في بعضها وخفائه في بعضها، لدلالته عليها بتضمّن أو التزام أو قياس، للاشتراك في معنى جامع أو رمز إلى خلاف أو إلى أن المقصود في بعض طرقه لا في اللفظ المذكور، فلذا وشبهه يكرر الأحاديث، ولكون الحديث قد يتضمن أحكاما فيحتاج إلى اختصاره تارة وتعليقه أخرى لما في تكريره من تعليم الاستنباط منه عند وقوع الحادثة والحاجة إليه، وقد يظهر منه في كل مرة معنى لم يظهر في غيرها، ثم ما خفي على الناظر وإن توفرت فطنته أكثر بكثير مما ظهر لقصور إدراك البشر عما احتوى عليه كلام من طاعت له المعاني وملك أزمتها على التمام وأوتي جوامع الكلم صلوات الله وسلامه عليه، فرأى البخاري رحمه الله لو اقتصر على ما فيه من الفوائد مرّة واحدة لكان فيه نوع من التحجير لما هو بحر لا تكدره الدلاء، وقد يقصر النظر في تلك المرة عن أشياء كثيرة ويفتح للناظر في كل نظرة يكررها في معنى آخر، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، ولما احتاج إلى التكرار لهذا وغيره من الفوائد احتاج إلى الاختصار والتعليق

---

(1) نهاية الورقة (9/و).

والنقل[1] بالمعنى، إذ لو أتى بتمام المتن والإسناد في كل مرة لطال الكتاب طولا يفوت الناظر معه الحصر، وقد كاد يفوته مع ما هو عليه من الاختصار، فإن كثيرا ممن يدّعي حفظه ينكر كثيرا من أحاديثه أن تكون فيه لكونه يظنها في مكان يليق بها ببادئ الرأي فلا يجدها فيه وهي مذكورة في غيره مما لا يظنّه، ثم هو في تكراره غالبا يأتي فيه بإسناد جديد، فإن تقدر تغاير السند لانفراد الراوي بالحديث أو لزيادة أبواب الأحكام على الرواة علّق واختصر، فهذا من فوائد التعليق والاختصار.

وإذا عرفت هذه الفوائد التي قصدها هذا الإمام رحمه الله علمت أنه لا تكرار فيه أصلا، لأن التكرار إعادة على ما ذكر لغير فائدة وهو منفي فيه، ثم قصد في تراجمه أن يضمنها معنى الأحاديث، وأن يجعل لكل ترجمة حديثا يناسبها، ولأنه قد لا يجده في الوقت صحيحا على شرطه فيذكر في تلك الترجمة أثرًا أو قول عالم، وتارة لا ينشرح له بسط الحديث في الترجمة فيقول: باب ولا يزيد ويذكر فيه حديثا أو أكثر، وقد يفعل ذلك لكونه شديد التعلق بالباب قبله لكن في حديثه أو أحاديثه بعض مخالفة لأحاديث ما تتعلق به، فيفرد ذلك في باب، فكأنه يقول باب منه أي من المتقدم.

قال بعض الشيوخ المحققين: إن في تراجمه من الدقائق والأسرار ما عجز كل من أتى بعده من استيفاء مقاصده فيها.

قلت: وكيف يبقى إدراك غيره بدقائقها وهو قد توسل في حال وضعها

---

(1) نهاية الورقة (9/ظ).

بوسيلة هي إلى نيل كل مطلب عزّ الوصول إليه أعظم الوسائل، واستمطر الفوائد التي أعيت الأذكياء بالعكوف في موضع ترتعد دون بابه الفرائص وتقصر هيبة خطى الأكابر[1] من العلماء والأفاضل، فقد روي أنه دوّن تراجم كتابه في الروضة المشرفة على ساكنها أفضل صلاة وأزكى سلام، وكان يغتسل ويصلي لكل ترجمة.

وقد تعرض ابن المُنَيِّر لذكر أنواع من أغراضه في تراجمه فقال: «منها ما يتناوله الحديث بنصه أو ظاهره وهذه هي الجليّة، ومنها ما يتناوله أي يصدق عليه بإطلاقه والأصل نفي القيود، ومنها ما يكون فيه ثبوت الحكم بطريق الأولى بالنسبة إلى المنصوصة، ومنها ما يكون فيه حكم الترجمة مقيسا على حكم الحديث قياسا مساويا، وقد يعنّ له نصّ على الترجمة فيعدل عنه اكتفاء بظهوره ويعمد إلى حديث آخر يتلقى منه الترجمة بطريق خفي لطيف فيذكره.

ومنها ما لا ذكر له في الحديث الذي أثبته لكن قد يكون الحديث ذا طرق أثبته من بعضها لموافقة شرط الكتاب ولم يثبته من الطريق الموافقة للترجمة لخلل شرطها، فيأتي بالزيادة التي توافق شرطه في الترجمة، وربما أتى بها في صيغة التعليل كحديث وقع له في اللفظة، وقد ينبه في بعض التراجم على مواقع الخلاف وقد يترجح على صورة ويورد فيها الأحاديث المتعارضة ثم قد ينبه على الجمع إن

---

(1) نهاية الورقة (10/و).

سنح له وقد يكتفي بصورة المعارضة تنبيها على أن المسألة اجتهادية.

قال: ومما يستغربونه من تراجمه أن يضمّن الترجمة ما لم تجر العادة بذكره في كتب الفقه، كترجمته على أكل الجُمَّارِ[1] فيظن أن هذا لا يحتاج إلى إثباته بدليل خاص لأنه على أصل الإباحة كغيره، لكن لَحظَ هو فيه أنه ربما يتخيل أن تجمير النخل إفساد وتضييع للمال فنبه على بطلان هذا الوهم إن سبق[2] إليه أحد.

قال رحمه الله: وقد سبق هذا الوهم إلى بعض المعاصرين فانتقد على من جمّر نخلة بعد أخرى ليقتات بالجمار تحرّجا وتورّعا مما في أيدي الناس لما عدم قوته المعتاد في بعض الأحيان، وزعم هذا المعترض أن هذا إفساد خاص للمال، وفساد عام في المآل وربما يلحقه بنهي مالك رحمه الله عن بيع التمر قبل زهوه على القطع إذا كثر ذلك، لأن فيه تسببا إلى تقليل الأقوات»؛ انتهى كلام ابن المنير[3].

قال بعض الشيوخ: ومن الأبواب ما لا يعرف مقصد البخاري منها إلا بدليل التصدير، كباب قوله تعالى: (وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ) [4]، ثم أدخل حديث ابن مسعود أن قريشا لما أبطأوا عليه دعا عليهم بسبع كسبع يوسف، ثم

---

(1) **الجُمَّارُ:** بضم الجيم وتشديد الميم، جمع جُمَّارة، وهو قلب النخلة، ويسمى شحم النخل، انظر مادة: جمر، في لسان العرب (144/4).

(2) نهاية الورقة (10/ظ).

(3) المتواري على أبواب البخاري (ص: 37 ـ 38).

(4) [سورة يوسف: 23].

صدّر الباب بقوله تعالى: (بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ) [1]، ولم يذكر موضع الفائدة وهو قوله تعـالى: (وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ) [2]، وفيه معنـى تبويبـه، لأنـه شـبه مـا عرض ليوسف عليه السلام مع امرأة العزيز ومع إخوته بما عـرض لمحمـد صـلى اللــه عليـه وسلم مع قومه حين أخرجوه من وطنه وأهلـه وآذوه كـإخراج يوسـف مـن أبيـه وبيعـه، ولم يعنّف محمد صلى اللـه عليه وسلم قومه حين أتـوا تـائبين كيوسـف عليـه الصلاة والسـلام، وقال له أبو سفيان: بعثت بصلة الرحم، وهلك قومك وقالوا ربنا اكشف عنا العـذاب، فـادع لهم، فدعا فكشف كدعاء يوسف يغفر اللـه لكم، واستغفار أبيهم لهم.

ومعنـى(بَـلْ عَجِبْـتَ وَيَسْـخَرُونَ) [3] ــ بفـتح التـاء ـ أي: مـن حلمـي وتمـاديهم في الغـي والسـخرية، وبضـمّها أي: مـن حلمـك عـلى قومـك حـين رأوا العـذاب وتوسـلوا بـالرّحم فـدعوت لهـم بكشـفه كحلـم يوسـف عـن إخوتـه لمـا احتـاجوا إليـه وتـابوا وعـن امـرأة العزيـز حتـى تزوجهـا[4]، فنبّـه البخـاري عـلى أن العفـو عـن الظـالم إن تـاب وتوسـل سـنة لله في عبـاده وسـنة المرسـلين، ولخفـاء مـا يقصـده هـذا الإمـام رحمـه اللـــه ورضي عنـه مـن اللطـائف الشريفـة والـدقائق الرفيعـة والأسرار المنيفـة

---

(1) [سورة الصافات: 12].

(2) [سورة الصافات: 13 ـ 14].

(3) [سورة الصافات: 12].

(4) نهاية الورقة (11/و).

اضطربت الأفهام التي لم توفق للعثور على ذلك، فقائل يقول: اخترم ولم يهذب الكتاب ولم يرتب الأبواب، وقائل يقول: جاء الخلل من النساخ وتحريفهم والنقلة وتحويقهم[1]، وقائل يقول: أبعد المنجع في الاستدلال فأوهم ذلك أن في المطابقة نوعا من الاختلال.

قال ابن المنير: وبلغني عن الإمام أبي الوليد الباجي[2] أنه كان يقول: يُسلّم للبخاري في علم الحديث ولا يسلم له في علم الفقه، يعلل ذلك بأن أدلّته عن تراجمه متقاطعة، ويحمل الأمر على أن ذلك الأمر لقصور في فكرته وتجاوز عن حدّ فطرته.

قلت: وما ضرّ الشمس في سطوع ضوئها قصور الرّمد عن إدراك شعاعها ونورها، ثم ذكر ابن المنير سبب جعله الفقه في التراجم لا ممتزجا مع الأحاديث فقال رحمه الله: «فإنه تحرج أن يصنف في الفقه على لغة التصانيف المشحونة بالوقائع التي عسى كثير منها لم يقع، فيدخل في حيز المتكلف الذي هُدد بأنه لا يعان على الصواب ولا يفتح له باب الحق في الجواب، خليقة بأن يرحم صاحبها

---

(1) جاءت العبارة في المتواري على أبواب البخاري: «وقائل يقول: جاء الخلل من النساخ وتجزيفهم والنقلة وتحريفهم».

(2) هو الحافظ القاضي أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد الباجي الأندلسي، من أعلام مالكية المغرب، برع في الحديث والفقه وعلم الكلام، وصنف كتبا كثيرة منها إحكام الفصول في أحكام الأصول، والمنتقى شرح الموطأ، والتسديد إلى معرفة التوحيد، توفي رحمه الله سنة 474هـ ـ 1081م. له ترجمة في: ترتيب المدارك (802/4 ـ 808)، وتذكرة الحفاظ (1178/3 ـ 1183)، وفوات الوفيات (64/2 ـ 65)، وشجرة النور (120/1).

بالعثور على الصواب، وإنّ تكلّف الجواب عما لم يقع تصنّع أو في معناه يتحرج الخائف من الله من أدناه، ودعوة المضطر لها خصوصية الإجابة وحالة الاختيار تستغرب معها أوصاف الإنابة.

قال: فهذا والله أعلم سرّ كون البخاري رحمه الله ساق الفقه في التراجم سياقة المخلص للسنن المحضة عن المزاحم[1]، المستثير لفوائد الأحاديث من مكامنها[2] المستبين من إشارات ظواهرها مغازي بواطنها، فجمع كتابه العلمين والخيرين[3] الجمّين، فحاز كتابه من السنة جلالتها ومن المسائل الفقهية سلالتها، وهذا غرض ساعده عليه التوفيق ومذهب في التحقيق دقيق»[4].

ولنقتصر على هذا القدر في هذه المقدمة مفتتحا بعده المطلوب بعون الله وتسديده وتسهيله المطالب وتأييده، فنسأل الله العظيم متوسلا بنبيه محمد نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم، النبي المصطفى الكريم أن يوفقني في هذا التأليف وفي غيره من الأقوال والأفعال إلى أرشد المسالك وأفضل الطرق المبلغة إلى رضوانه الذي هو غاية الآمال، وأن يكفينا شر أنفسنا وشر كل ذي شر ويقطع عنا كل قاطع بيننا وبين ما يقرّب إلى رضوانه من أعمال البرّ، إنه المتفضل الجواد الكريم

(1) كذا في (أ)، وفي المتواري على أبواب البخاري: المزاعم.

(2) نهاية الورقة (11/ظ).

(3) في (أ): الحيزين، والتصويب من المتواري على أبواب البخاري.

(4) هنا انتهى كلام ابن المنير في المتواري على أبواب البخاري (ص: 38 ـ 39).

الرؤوف الرحمن الرحيم، المفضل على من شاء بالعمل الصالح ثم يجازي على ما أنعم بـه مـا لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من أنواع النعيم.

* * *

[باب كيف كان بدء الوحي إِلَى رَسُولِ الـلـه صلى الـلـه عليه وسلم]

ص[1]: 1 _ **(باب) كَيْفَ كَانَ بَدْءُ الْوَحْيِ إِلَى رَسُولِ الـلـه** صلى الـلـه عليه وسلم وَقَوْلُ الـلـه تَعَالَى : (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ) [2].

(ش): أقول: وقع في كثير من النسخ بإسقاط باب وفي بعضها ثبوته، وعلى إثباته فهو خبر مبتدأ محذوف، وإضافته إلى كيف على تقدير مضاف، أي: هذا باب بيان كيف...، ويجوز تنوين باب وجعلُ جملة كيف بدلا أو عطف بيان أو خبر مبتدأ محذوف أو تفسير لباب ولا محل لها حينئذ، وأجاز بعضهم تسكين باب على الوقف، كقول العادّ: واحدٌ، اثنان، إذ لم يقصد التركيب الذي يكون معه الإعراب.

قلت: وفيه نظر، إذ ليس المقصود هنا[3] العدد، وإلا لكان يقول في الباب الثاني: بابان، وفي الثالث ثلاثة أبواب، وهكذا.

وقد يجاب عنه بأن غرضه أن الجامع بين ذكر باب وذكر أسماء العدد عند العاد إفادة معانيها الإفرادية لا يفيد نسبتها أو النسبة إليها.

والإشارة لهذا المقدر مبتدأ إلى جملة ما ذكر في هذا الباب، والمشار إليه وإن لم

---

(1) مراده بحرف الصاد بداية قول المصنف، وبحرف الشين بداية الشرح.

(2) [سورة النساء: 163]، وتمام الآية: (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا).

(3) نهاية الورقة (12/و).

يوجد بعد فقد وضع اسم الإشارة ليشار به إليه عند الحاجة عند الفراغ من كتبه ضمن الباب.

وقيل: إشارة إلى ما قدر في ذهنه أن يضعه في الباب، وهذان أولى ما قيل في مثله.

و(**بَدْءُ**) بفتح الباء والهمز، مصدر بدأ، بمعنى ابتدأ وأنشأ، ويروى «بُدُوّ» بالواو مشددة وضم الباء والدال، مصدر بدا يبدو، أي ظهر، ويحتمل أن يكون من المهموز وأبدلت همزته المتطرفة واوا لمجانسة الواو قبلها.

فإن كان من المهموز فالباب لبيان أول حالات الوحي، ورجح بموافقة الرواية الأخرى بأنه يجمع المعنيين، وإن كان من غيره فالباب لبيان ظهوره بإطلاق، وبترجّح مناسبة الترجمة لجميع ما ذكر فيها حتى حديث هرقل.

بخلاف قوله: (**وَقَوْلُ اللـه عَزَّ وَجَلَّ**) مخفوض بالعطف على محل الجملة المضاف إليها.

(**باب**) بتقدير محذوف، أي: هذا باب بيان الحالة التي كان عليها بدء الوحي، وبيان معنى أو تفسير قول اللـه تعالى: **(** إِنَّا أَوْحَيْنَا) [1]**.**

ويحتمل أن يكون مبتدأ والخبر محذوف، والتقدير: وقول اللـه تعالى دليل على ذلك، أو خبر مبتدأ محذوف، أي ودليله قول اللـه تعالى، وهو في غاية الظهور من سياق هذه الآية، ومن لازم قوله تعالى: **(**قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ) [2]**.**

---

(1) [سورة النساء: 163].

(2) [سورة الأحقاف: 9].

ولا يصح عطف (قول) بالرفع على بدء، ولا بالخفض عطفا علـى الـوحي، لأن قـول اللـه تعالى كلامه القديم القائم بذاته جل وعلا، ولا يُكَيَّفُ ولا بدء له، وهما وإن صحّا باعتبار آخر فلا ينبغيان لإيهامهما ما ذُكِرَ.

وقدّر بعضهم[1]: باب كيفية، وهو بعيد، لأنه يفوت استفهام كيف.

والصواب أن «كيف» اسم استفهام بعيد الدلالة عن المصدر، وهو خبر كان مقدما واجب التقديم، وإنما الترجمة عـلى تقـدير سـؤال عـن تعيـين حكـم مـن أحكـام مجهولـة محتملـة، والحديث المذكور في الباب هو الجواب.

وهذه الآية الكريمة التي ذكرها البخاري في الترجمة لا يخفى ما فيها من إشادة قدر نبينا ومولانا محمد صلى اللـه عليه وسلم وتعظيمه، وتوكيد الأمر في صحة نبوته وتكريمه.

فمن ذلك التعبير في الآية بـ (نا) المشعرة بعظمة الفاعل اللازم عنها عظـم مـا يـراد منـه، ومن ذلك التعبير عنه صلوات اللـه وسلامه عليه بحـرف الخطـاب، ولم يقـل: إنـا أوحينـا إلى محمد صلى اللـه عليه وسلم، لاستلزام الخطاب القرب، ففي اللفـظ الإشـعار بقـرب منزلتـه وشرفها عند ربه جل وعلا.

ومن ذلك: تصدير الجملة بـــ «إن» المشـعِرة بالتوكيـد، وحسـن التوكيـد لهـذا الخـبر إمـا لأن المقام طلبي، ولا أقـل مـن ذلـك لتشـوّف كثـير مـن الخلـق إلى السـؤال عـما ظهـر مـن الـوحي أهــو مــن عنــد اللــه أم لا؟ وإمــا أنــه إنكــاري وهــو الظــاهر، لكــثرة منكــري

---

(1) نهاية الورقة (12/ظ).

الوحي لاسيما في ابتداء دعائه.

ومنها: جعل الخبر فعلا، إما للاختصاص بدليل العقل لأن النبوة ليست مكتسبة عند أهل الحق، وإنما هي موهبة يخص بها جلا وعلا من يشاء من عباده، وإما لتقوى الإخبار المستفاد في تكرير الإسناد.

ومنها: تقرير نبوته بذكر الدليل عليها والردّ على جاحديها.

فالدليل: مساواته لمن قبله من الرسل في الطريق الذي ثبتت به نبوتهم، وفي غير ذلك من الصفات التي تليق بهم صلوات اللـه وسلامه على جميعهم.

والرد على جاحدي نبوته بإلزامهم نقض الدليل لوجوده على حدّ واحد في الجميع، ونقض الدليل العقلي محال، هذا وإن كان الجاحد ممن يقر نبوة لغيره، وأما من أنكر أصل النبوة كالبراهمة[1] لزعمهم أنها عبث فالرد عليهم واضح.

وقد أشارت الآية إلى عدم استقلال العقل بمعرفة ما جاء الأنبياء[2] به في قوله جلا وعلا: **(لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللـه حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ).**

ثم ختم جل وعلا الآية بوصفين وهما: **(عزيز)** و **(حكيم)**[3]، ففيهما الردّ على طائفتين:

إحداهما: المعتزلة القائلون بإيجاب البعث عليه جل وعلا، فرد عليهم بأنه جل

(1) نهاية الورقة (13/و).

(2) في (أ): الأنباء.

(3) من قوله تعالى: (لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللـه حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللـه عَزِيزًا حَكِيمًا) [النساء: 165].

وعلا عزيز لا يغلب على فعله، يفعل ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة.

الثانية: البراهمة القائلون باستحالة البعث، فردّ عليهم بأنه حكيم في بعثه الرسل إلى الخلق مع التعبير بصيغة المبالغة، ولا خفاء في ظهور فوائد بعث الرسل وعظيم نعمها: (مَنْ يُضْلِلِ اللـه فَلَا هَادِيَ لَهُ) [(1)]، فختم الآية بالوصفين كالفذلكة لها.

ومنها: تقديمه في الذكر على سائر الأنبياء صلوات اللـه وسلامه عليه وعليهم، نحن الآخرون السابقون، وذكر بعده نوحا لأنه أول رسول كما في حديث الشفاعة، وذُكر النبيّون بعده جملة لكثرتهم، وخص من ذكر بعدهم تشريفا لهم.

وقوله تعالى: (وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا) [(2)]، استلزم الوحي إليه لذكره الموحى، وفيه زيادة تعظيم، ونون العظمة ليس مع الخطاب فهو لتعظيم الزبور، وردّ لما قيل: إن وحيه بما يُلقى في قلبه، وكذا (وَكَلَّمَ اللـه مُوسَى تَكْلِيمًا) [(3)].

* * *

(1) [سورة الأعراف: 186].

(2) [سورة النساء: 163] .

(3) [سورة النساء: 164].

[حديث إنما الأعمال بالنيات]

1 ـ حَدَّثَنَا الْحُمَيْدِي عَبْدُ اللـه بْنُ الزُّبَيْرِ قَالَ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ قَالَ: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ الأَنْصَارِيُّ قَالَ: أَخْبَرَنِي مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِي أَنَّهُ سَمِعَ عَلْقَمَةَ بْنَ وَقَّاصٍ اللَّيْثِي يَقُولُ سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللـه عَنْهُ عَلَى الْمِنْبَرِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللـه صلى اللـه عليه وسلم يَقُولُ: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**»[1].

(ص): حدثنا الحميدي إلى آخر حديث عمر «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**».

(ش): أقول: الحُمَيْدي ـ بضم الحاء وفتح الميم وكسر الدال ـ منسوب لحميد بن زهير بن الحارث بن أسد بن عبد العزّى بن قصي، واسمه عبد اللـه بن الزبير، من شيوخ البخاري[2]، وقد سمّاه في غير هذا الموضع. والكلام على هذا الحديث الكريم من وجوه:

الأول: في وجوب الابتداء به وترك الابتداء بالحمد مع ما ورد من قوله

---

(1) متفق عليه. أخرجه البخاري (9/1 رقم: 1)، وأطرافه في: 54، 2529، 3898، 5070، 6689، 6953). ومسلم (1515/3 رقم: 1907)، [كتاب الإمارة، باب قوله: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِيَّةِ»].

(2) هو أبو بكر عبد اللـه بن الزبير بن عيسى بن عبيد اللـه القرشي الأسدي الحميدي المكي، الإمام الحافظ الفقيه، شيخ الحرم، صاحب المسند، توفي رحمه اللـه سنة 219هـ ـ 834م. لـه ترجمة في: التاريخ الصغير للبخاري (339/2)، الجرح والتعديل (56/5)، وسير أعلام النبلاء (616/10 ـ 621)، وتهذيب التهذيب (214/5).

صلى اللـه عليه وسلم : «**كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْـدَأُ فِيـهِ بِالحَمْـدِ فَهُـوَ أَبْـتَرُ**»، أو «**أَقْطَـعُ**»، أو «**أَجْذَمُ**»[1]، أي ناقص غير تام.

الثاني: في وجه مناسبة هذا الحديث للترجمة في وجه انحصار الأعمال في النية وما يتعلـق به من معنى الحديث.

أما الأول فيحتمل أن يكون البخاري يرى أن الابتداء بالبسملة أولى، لما فيـه مـن الاقتـداء بالكتاب[2] والسنة الشائعة.

أما الكتاب العزيز، فلكتبها فيه أولا في المصحف، وإن قلنا: إنهـا آيـة مـن الفاتحـة كانـت حينئذ متقدمة فيه كتبا وتلاوة.

وأمـا السّـنّة، فلافتتـاح رسـول اللــه صـلى اللــه عليـه وسـلم بمـا كتبـه ككتابـه لهرقـل، وكتابـه في صـلح الحديبيـة، وإنمـا غيرهـا في هـذا الكتـاب ثانيـا لالتزامـه صـلى اللــه عليـه

---

(1) حديث مروي عن أبي هريرة رضي اللـه عنه. أخرجـه أحمـد في مسـنده (359/2 رقـم: 8697)، وأبـو داود (261/4 رقـم: 4840)، والنسـائي في الكـبرى (127/6 رقـم: 10328)، وابـن ماجـة (610/1 رقـم: 1894)، وابـن حبـان (173/1 رقم:1)، والـدارقطني (235/1 رقـم: 872)، وابـن أبي شـيبة (339/5 رقـم: 26683)، والبيهقـي (208/3 رقـم: 5559). وحسنه النووي في المجموع (73/1)، وابن الملقن في البدر المنير (2/3) ونقل عن ابن الصـلاح تحسـينه، وحسـنه أيضا . قال الحافظ في الفتح (220/8): «صححه ابن حبـان وفي إسـناده مقـال، و عـلى تقـدير صـحته فالروايـة المشهورة فيه بلفظ حمد اللـه، و ماعدا ذلك من الألفاظ التي ذكرها النووي وردت في بعـض طـرق الحـديث بأسانيد واهية».

(2) نهاية الورقة (13/ظ).

وسلم فعل ما يرضيهم.

قال بعض الشيوخ: بل سنة الافتتاح بها ثابتة حتى في شرع من قبلنا، قال الله تعالى إخبارا عن كتاب سليمان صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه: (إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ) [1]، إخبار به مجملا، (إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ) إخبار بعنوانه، (وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) [2] ... إلى آخره إخبار بالمكتوب فيه.

وأما حديث الابتداء بالحمد فليس له عند البخاري من القوة ما يقاوم السنة الثابتة في الافتتاح بالبسملة، لا سيما، وقد روي في بعض طرق الحديث: «**لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**»[3].

سلّمنا استواءهما في القوة ولكن لا تعارض، لاحتمال أن يكون المراد بالحمد الثناء، ولا شك أن البسملة من أبلغه، وأيضا فبعض الذكر يقوم مقام بعض، وعليه «**مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ**»[4]،

---

(1) [سورة النمل: 29].

(2) [سورة النمل: 30].

(3) أخرجه الخطيب البغدادي في كتاب الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (69/2 رقم: 1210)، وتاج الدين السبكي في طبقات الشافعية الكبرى (12/1). وقال الألباني في إرواء الغليل (29/1) «ضعيف جدا».

(4) أخرجه الترمذي (184/5 رقم: 2926) وقال: «حديث حسن غريب»، والدارمي (533/2 رقم: 3356)، والبيهقي في شعب الإيمان (353/2 رقم: 2015). قال الحافظ في الفتح (66/9): «رجاله ثقات إلا عطية العوفي ففيه ضعف»، وضعفه الألباني في السلسة الضعيفة (506/3 رقم:

و«**أَفْضَلُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ**»[1].

سلّمنا أن المراد خصوصية لفظ الحمد فلا تعارض أيضا لعدم اقتضاء الحديث البدء به كتبا بل يكفي النطق به عند الابتداء.

ومنهم من جعله مختصا ببدء الخطب ردًّا على الجاهلية في ابتدائها بالشعر والإسجاع لقصد التفاخر وإظهار قوة العارضة في البلاغة.

وقيل: إنما ترك البخاري الابتداء بالحمد رغبة منه أن يكون أول ما يذكر في كتابه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخاف إن قدم عليه شيئا من كلامه يكون شبه التقدم بين يدي الله ورسوله؛ وما أشرف[2] كتابا بدئ وختم بكلام أشرف الخلق المنزّه عن الشهوة والهوى صلى الله وسلم عليه «**اجْعَلُونِي أَوَّلَ**

2850). ولفظه كما في الترمذي: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ حَدَّثَنَا شِهَابُ بْنُ عَبَّادٍ العَبْدِيُّ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الحَسَنِ بْنِ أَبِي يَزِيدَ الهَمْدَانِيُّ عَنْ عَمْرِو بْنِ قَيْسٍ عَنْ عَطِيَّةَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: «يَقُولُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: مَنْ شَغَلَهُ القُرْآنُ وَذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ، وَفَضْلُ كَلَامِ الله عَلَى سَائِرِ الكَلَامِ كَفَضْلِ الله عَلَى خَلْقِهِ».

(1) حديث حسن. أخرجه مالك مرسلا عن طلحة بن عبيد الله بن كريز (214/1 رقم: 500)، ومن طريقه عبد الرزاق (378/4 رقم: 8125)، والبيهقي (284/4 رقم: 8174)، وله شاهد عند الترمذي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنه (572/5 رقم: 3585)، [كتاب الدعوات/باب في دعاء يوم عرفة]، وحسنه.

(2) نهاية الورقة (14/و).

الدُّعَاءِ وَآخِرَهُ»[1].

ولا يعترض بتقديم الترجمة والسند، فإنهما وسيلتان لما بعدهما وليستا مقصودتين في أنفسهما.

قلت: ويحتمل أن يكون البخاري عدل إلى الابتداء بهذا الحديث الكريم لتضمنه معنى أفضل قول قاله النبي صلى الله عليه وسلم والنبيون قبله، وهو لا إله إلا الله وحده لا شريك له على ما في الموطأ، وذلك أن هذا الحديث الكريم فيه الحض على إخلاص العمل لله جل وعلا بأكمل وجه، وترك اعتبار الخلق في الأعمال، وإلقاء كل ما سواه تعالى عن البال، ولا يقوم بهذا الأمر إلا من عرف الحقيقة انفراده جل وعلا بالملك والتدبير، وأن لا نفع ولا ضر بيد غيره أيا كان من صغير أو كبير غني أو فقير، إذ كل ما سواه جلا وعلا مُحدثٌ مفتقر في ذاته وجميع صفاته إلى إمداده تعالى، وإلى العدم والتلاشي من حيث ذاته يصير، وهذا

---

(1) الحديث مروي عن جابر رضي الله عنه. أخرجه ابن أبي شيبة (215/2 رقم: 3117)، وعبد الرزاق (215/2 رقم: 3117)، وعبد بن حميد في المنتخب (ص: 340 رقم: 1132)، والقضاعي في مسند الشهاب (89/2 رقم: 944)، والبيهقي في شعب الإيمان (216/2 رقم: 1578). ولفظه كما في المنتخب لعبد بن حميد عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لاَ تَجْعَلُونِي كَقَدَحِ الرَّاكِبِ، إِنَّ الرَّاكِبَ إِذَا عَلَّقَ مَعَالِيقَهُ أَخَذَ قَدَحَهُ فَمَلَأَهُ مِنَ المَاءِ، فَإِنْ كَانَ لَهُ حَاجَةٌ فِي الوُضُوءِ تَوَضَّأَ، وَإِنْ كَانَ لَهُ حَاجَةٌ فِي الشُّرْبِ شَرِبَ، وَإِلاَّ أَهْرَاقَ مَا فِيهِ، اجْعَلُونِي فِي أَوَّلِ الدُّعَاءِ، وَفِي وَسَطِ الدُّعَاءِ، وَفِي آخِرِ الدُّعَاءِ». قال الهيثمي في مجمع الزوائد (239/10) «وفيه موسى بن عبيدة وهو ضعيف»، وقال الألباني في السلسلة الضعيفة (621/12): «منكر».

المعنى هو نتيجة المواظبة على أفضل ذكر وهو (لا إله إلا الـلـه وحده لا شريك له)، فاستبان بهذا أن الابتداء بهذا الحديث الكريم ابتـداء بأفضـل قـول، وفيـه حمـد الـلــه والثنـاء عليـه بأكمل وجه.

وأما الثاني: وهو وجه مناسبة الحديث للترجمة، فهو مما أشكل قديما وحديثا.

وأجيب عنه بأوجه أحسنها التنبيه على أن مـا أشـار إليـه صـلى الـلــه عليـه وسـلم في هـذا الحديث من تعظيم الهجرة إلى الـلـه ورسوله، وأن مـن هـاجر إليـه تعـالى وجـده عـلى حسـب نيته في هجرته وقدر علو الهمة في رفضه الأكوان كلها حـال توجّهـه إليـه وسـفرته، وحـديث[1]: «**إِذَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي شِبْرًا...**»[2] يدل على ذلك أيضا، كان أعظم شاهد على ذلك من جهـة إبـراز المعلوم إلى مرتبة عين اليقين، ومنصة العيان ما منّ الـلـه به عـلى نبيّنـا صـلوات الـلــه وسـلامه عليه قبل الإيحاء إليه من حسن البداية التي هي على حسن النهاية عنوان، فلم يكن لـه همـة صلى الـلـه عليه وسلم في مبـدإ أمـره إلا في الـتخلي لعبـادة مـولاه جـل وعـلا بكليتـه، والهجـرة إليـه ظـاهرًا وباطنـا بجوارحـه وجميـل نيتـه، رافضـا للتلـذذ بمناجاتـه تعـالى كـل الأكـوان، والأرض كلها حينئذ على ما هي عليه من الامـتلاء بأوديـة الفسـاد وأنـواع الجهـالات والكفـران،

---

(1) نهاية الورقة (14/ظ).

(2) متفق عليه عن أبي هريرة رضي الـلـه عنه. أخرجه البخـاري (485/3 رقـم: 7537)، ومسـلم (2067/4 رقـم: 2675).

ونصه كما في البخاري: عن أنس بن مالك رضي الـلـه عنه عن أبي هريرة رضي الـلـه عنه قـال: رُبَّمَـا ذَكَـرَ النَّبِـيَّ صلى الـلـه عليه وسلم قَالَ: «إِذَا تَقَرَّبَ العَبْدُ مِنِّى شِبْرًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا، وَإِذَا تَقَرَّبَ مِنِّى ذِرَاعًـا تَقَرَّبْـتُ مِنْـهُ بَاعًا أَوْ بُوعًا».

ثم مع ذلك لم يكترث بمضادة الجميع بل نهض منفردًا في حلل التكريم والعناية وسوابغ أدراع العصمة والهداية، يعرج في معارج التقريب والرضوان، فناهيك بهذا الاعتناء العظيم والعقل الكامل الرصين والهمة الرفيعة التي أفصحت من وراء ستر ما آل إليه الأمر من سيادة أهل السموات وأهل الأرضين، فقد تطابقت حالته الشريفة صلى الله عليه وسلم وحديثه الكريم في تعظيم أمر الهجرة إلى الله بعلو همّة وصدق نية وشرف ما يؤول إليه جميل الإخلاص وحسن الطوية، وكل شخص له في ذلك المنح بحسبه، ولا يمكن أن يتجاوز ما كتب أن يناله من راحته أو نصبه، وليس هذا الذي قدمنا على معنى ما ردّه أهل السنة من اعتقد أن النبوة مكتسبة، على معنى أن النبوة ومقدماتها ومتمّماتها كُلٌّ فضل من عند الله، فهو الذي ألهم السؤال وأعطى السّؤل وعلق الأمل وبلغ المأمول، فله الفضل أولا وآخرا وظاهرا وباطنا[1] سبحانه وتعالى.

ولم يذكر البخاري في هذا الحديث «**فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ**»[2]،

---

(1) نهاية الورقة (15/و).

(2) وذكرها في [كتاب الإيمان/باب ما جاء إن الإعمال بالنية والحسبة ولكل امرئ ما نوى]، رقم 54. وفي [كتاب العتق/باب الخطأ والنسيان في العتاقة والطلاق ونحوه ولا عتاقة] رقم: 2529. وفي [كتاب النكاح/باب من هاجر أو عمل خيرا لتزويج امرأة فله ما نوى] رقم: 5070. وفي [كتاب الأيمان والنذور/باب النية في الأيمان] رقم: 6689. وفي [كتاب الحيل/باب في ترك الحيل وأن لكل امرئ ما نوى في الأيمان] رقم: 6953. وأخرجه مسلم [كتاب الإمارة/باب إنما الأعمال بالنية وأنه يدخل فيه الغزو وغيره]، رقم: 1907.

وإن كان أمس بالمقصود على هذه المناسبة التي قدمنا، وكأنه استغنى عنها بقولـه: «**فَهِجْرَتُـهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**»[1]، إذ يدخل في عمومه الهجرة إلى الـلـه، ومـن عادتـه أن يـترك الاسـتدلال بالظاهر الجلي ويعدل إلى الرمز الخفي، حتى قال بعض من جعـل هـذا الحـديث بـدلا مـن الخطبة: إن البخاري بيّن فيه اصطلاحه كما هـو شـأن المصـنّفين في خطـبهم، لأنـه يـرى نقـل الحديث بالمعنى والاختصار منه والاقتصار على دليل الإشارة، وهذا الحديث جمع ذلك كله.

وقيل: إنما استغنى بعموم «**مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**»، لقوله في الأول: «**إِلَى الـلـه وَرَسُولِهِ**». وهجرته صلى الـلـه عليه وسلم في ذهابه إلى حراء لم تكن إلى الرسول بل إلى الـلـه وحده.

وقـال أبـو عبـد الـلــه بـن الفخـار[2]: إن المناسـبة في هـذا الحـديث إنمـا هـو لجـزء الترجمـة، وهـي قـول الـلــه عـزّ وجـلّ: (إِنَّـا أَوْحَيْنَـا إِلَيْـكَ كَـمَا أَوْحَيْنَـا إِلَى نُـوحٍ وَالنَّبِيِّـينَ مِـنْ بَعْـدِهِ) [3]، لأن الـلــه عـزّ وجـلّ أوحـى إليـه وإلـيهم، و«**إِنَّمَـا الأَعْـمَالُ بِالنِّيَّـاتِ**» لقولـه تعـالى: (وَمَـا أُمِـرُوا إِلَّا لِيَعْبُـدُوا الـلــه) إلى قولـه: (وَذَلِـكَ دِيـنُ الْقَيِّمَـةِ) [4]،و (شَرَعَ لَكُـمْ

(1) جزء من حديث الباب، وقد سبق تخريجه.

(2) أبو عبد الـلـه محمد بن عمر بن يوسف بن بشكوال القرطبي، المعروف بابن الفخـار، الإمـام العلامـة الحـافظ، عالم الأندلس في زمانه، من مصنفاته تقييد على الجمل للزجاجي، واختصار المبسوط، والتبصرة، و الرد عـلى أبي عبد الـلـه ابن العطار في وثائقه، تـوفي رحمـه الـلــه سـنة 419 هــ ـ 1028 م. لـه ترجمـة في سـير أعـلام النـبلاء (372/17 ـ 374)، والديباج (ص:367)، وشجرة النور (113/1).

(3) [سورة النساء: 163].

(4) [سورة البينة: 5].

مِنَ الدِّينِ) إلى قوله: (أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ) [1].

قال أبو العالية[2]: وَصَّاهم بالإخلاص في عبادته.

وقال مجاهد[3]: ما أوصاك به والأنبياء دين واحد.

قلت: فيكون شبه اللف والنشر المعكوس، لأن البخاري ترجم لشيئين بما يناسب الأخير منهما.

قال بعض الشيوخ متمما لما قاله ابن الفخار: وإنما بدأ بما يناسب الجزء الأخير دون الأول، لأن الأخير لإثبات أصل الوحي والأول لكيفية ابتدائه، ولا تثبت إلا بعد إثبات الأصل.

---

(1) أي: قوله تعالى: (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ)[سورة الشورى: 13].

(2) هو أبو العالية رفيع بن مهران، الرياحي البصري، الإمام المقرئ الحافظ المفسر، أدرك زمان النبي صلى الله عليه وسلم وهو شاب، وأسلم في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وحفظ القرآن وقرأه على أبي بن كعب رضي الله عنه، توفي رحمه الله سنة 90 هـ ـ 709م. له ترجمة في: التاريخ الكبير للبخاري (326/3)، وحلية الأولياء (217/2 ـ 224)، وسير أعلام النبلاء (207/4 ـ 213)، وتهذيب التهذيب (246/3 ـ 247).

(3) هو الإمام المقرئ المفسر أبو الحجاج مجاهد بن جبر المكي مولى بني مخزوم، روى عن علي والعبادلة الأربعة وأبي هريرة وجابر وأبي سعيد الخدري وغيرهم، قال الفضل بن ميمون: سمعت مجاهدا يقول: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة، وقال ابن سعد: كان ثقه فقيها عالما كثير الحديث، توفي رحمه الله بمكة سنة 102 هـ ـ 720 م وهو ابن ثلاث وثمانين سنة. له ترجمة في: حلية الأولياء (279/3 ـ 310)، وسير أعلام النبلاء (449/4 ـ 457).

فإن قلت: ولِمَ لَمْ يبدأ بالآية في الترجمة لإثباتها أصله؟.

فالجواب[1]: أن كتابه موضوع للحديث والتفسيرُ فيه عارض، والابتداء بالآية يناسب العكس من قصد التأليف.

وقيل: إنما أتى بهذا الحديث في هذا المحل توصية لنفسه ولغيره على ملازمة الإخلاص في كل الأعمال، وحضًّا على جهاد النفس في حسن النية قبل الشروع لئلا يمضي جزء من العبادة على وجه الفساد والاختلال.

لا يقال: لو قصد هذا لكان المناسب تقديم الحديث على الترجمة، لأنا نقول: لو فعل ذلك لم ينتقل الذهن حينئذ من إدراك معنى الحديث إلى مقصوده منه وهو الاعتناء بجهاد النفس وإلزامها العمل به، بل كان يقتصر على استفادة معنى الحديث ويذهل عما عدا ذلك.

وقيل: إنما أتى بالحديث لأن عمله الذي قصد في هذا التأليف لما كان من أشرف الأعمال خاف أو ظن نسبته فيه إلى الرياء والمباهاة، فذكر الحديث إشارة إلى أن مثلي ممن يحفظ هذا الحديث العظيم ويعلم خسران طالب الدنيا لا ينبغي أن يتعب نفسه في أقل شيء فضلا عن هذا السعي العظيم الذي قصدت، وكأنه على هذا إنما اقتصر على قوله: «**وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا**» تحقيرا لشأنها، كأنه يقول: أي شيء قدرها حتى يشتغل بها، فيكون هذا من معنى قول مالك رضي الله عنه لما وضع الناس موطآت عند وضعه للموطأ قال لمن أخبره بذلك: «إن

(1) نهاية الورقة (15/ظ).

عشت فستعلم ما صُنِعَ منها لله مما صُنِعَ لغيره»[1].

ويرد على هذا ما ورد على الذي قبله، والجواب والـلـه أعلم كالجواب.

وقيل: إنما افتتح بحديث الأعمال بالنيات وختم بوزن الأعمال تنبيها على أن ما يقبل مـن أعمال المكلفين ويثقل في الميزان ما نوي به وجه الـلـه تعالى والتقرب به إليه، ومـا لم يُنـو بـه ذلك[2] لا يقبل ويخف وزنه، فكان ما بينهما من الكتـاب محصـورا فـيهما وهـو مثـل الـذين قبله.

وأما الثالث: وهو وجه انحصار الأعمال في النيات وما يتعلق بذلك مـن معنـى الحـديث، فاعلم أنهم اتفقوا أنه ليس المراد من هذا الحصر ما يظهر من اللفظ أن الأعمال لا توجـد إلا بالنيات، لمشاهدة وجودها من المخلص حسـب وجودهـا مـن غـيره، بـل وجودهـا مـن غـير المخلص أكثر (وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ) [3] فإذن لا بد من تقدير بـه يصـح الكـلام، واختلـف فيه على أقوال:

فقيل: المعنى أن الأعمال لا تعتبر إلا بالنيات، وقيل: المعنى لا تصح إلا بالنية.

وقيل: المعنى إنما اختلاف الأعمال بالنيات.

والتقـدير الثـاني هـو المشـهور بيـنهم، والأول أعـم فائـدة، لأن نفـي الاعتبـار تنتفي معه الصحة وغيرها من سـائر الأحكـام، ويـترجح أيضـا بكونـه أقـرب إلى نفـي

---

(1) انظر التمهيد لابن عبد البر (86/1)، وترتيب المدارك (195/1)، وتنوير الحوالك (7/1).

(2) نهاية الورقة (16/و).

(3) [سورة سبأ: 13].

الوجود الذي هو ظاهر اللفظ، لأن الشيء إذ لم يعتبر كان كالعدم.

ويترجح التقدير الثالث بذكر تقسيم الأعمال واختلافها آخر الحديث.

ومن الشيوخ من جعل الحصر باعتبار الثواب، وهو حسن أيضا وأرجح، لبقاء اللفظ حينئذ على عمومه، بخلاف سائر التقادير فإنه لا بد أن يخص فيها لفظ الأعمال بما هو تعبد محض أو كالمحض.

نعم، التقدير الثالث يصح رجوعه لهذا الأخير إذا أخذ فيه الاختلاف باعتبار الثواب.

والمراد بالأعمال في جميع التقادير: الأعمال المرغب فيها شرعا فتخرج الأعمال المباحة، لأن سياق الحديث الترغيب في الأعمال المثاب عليها بتحصيل شرطها وهو النية لله عز وجل وعلا، والمباح لا يرغب فيه إذ لا يثاب فاعله، وما نوى منه التقرب به يرجع إلى المندوب أو الواجب.

وأيضا فهذا المحمل للأعمال هو المسمى الشرعي لها فلا إجمال، إذ الصحيح أن ماله مسمى[1] لغوي ومسمى شرعي يحمل على عرف المخاطب إلا بدليل على إرادة غيره، والأصل عدمه هنا.

ويدل على هذا حديث «**أَيُّ الأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ فَقَالَ: الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا**»[2]، أو

(1) نهاية الورقة (16/ظ).

(2) الحديث متفق عليه عن ابن مسعود رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّ الأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «الصَّلَاةُ لِوَقْتِهَا، وَبِرُّ الوَالِدَيْنِ، ثُمَّ الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ»، أخرجه البخاري

«**الجِهَاد**»[1] أو «**الإيمان**»[2]، وما ورد من مثله، فحمل صلى اللـه عليه وسلم لفظ الأعـمال في كلام السائل على العرفية، وأجاب بالعرفية.

ومنه «**كُلُّ عَمَلِ ابْـنِ آدَمَ لَـهُ...**» الحـديث[3]، و«**مَـا عَمَـلَ آدَمِـيٌّ عَمَـلا أَرْجَـى لَـهُ...**»[4]، ونحوه مما لا ينحصر.

126/1 رقم 527)، ومسلم (89/1 رقم 85).

(1) الحديث متفق عليه عن أبي ذر الغفاري رضي اللـه عنه قال: قُلْتُ: يَـا رَسُـولَ اللـــه، أَيُّ الأَعْـمَالِ أَفْضَـلُ؟ قَـالَ: «الإِيمَانُ باللـه وَالجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ». أخرجه البخاري (553/1 رقم 2518)، ومسلم (89/1 رقم 84).

(2) إشارة إلى حديث أبي هريرة رضي اللـه عنه قال: سُئِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللـــه عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ أَيُّ الْأَعْـمَالِ أَفْضَـلُ؟ قَـالَ: «إِيمَانٌ باللـه وَرَسُولِهِ، قِيلَ ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: جِهَادٌ فِي سَـبِيلِ اللـــه. قِيـلَ: ثُـمَّ مَـاذَا؟ قَـالَ: حَـجٌّ مَـبْرُورٌ». أخرجـه البخاري (336/1 رقم 1519)، ومسلم (88/1 رقم 83).

(3) جزء من حديث أبي هريرة رضي اللـه عنه أنّ رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم قال: «كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصِّيَامَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ...». أخرجه البخاري (415/1 رقم 1904)، ومسلم (807/2 رقم 1151).

(4) الحديث مروي عن معاذ بن جبل رضي اللـه عنـه. أخرجـه ابـن أبي شـيبة (57/6 رقـم: 29452)، وأحمـد (239/5 رقم: 22132)، والطبراني في الكبير (166/20 رقم: 352)، وعبـد بـن حميـد في المنتخـب (ص: 73 رقـم: 127)، وقـال الهيثمي في مجمع الزوائد (70/10): «رواه الطبراني ورجالـه رجـال الصـحيح»، وحسـنه الحـافظ في بلـوغ المـرام (223/2)، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم: 5644). ولفظه كما رواه الطـبراني عـن معـاذ رضي اللـــه عنـه قال: قال رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم: «مَا عَمِلَ آدَمِيٌّ عَمَلاً أَنْجَى لَهُ مِنْ عَذَابِ اللـه مِـنْ ذِكْـرِ اللـــه، قَالُوا: وَلا الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللـه؟ قَالَ: وَلَا، إلاَّ أن تَضْرِبَ بِسَيْفِكَ حَتَّى يَنْقَطِعَ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ».

وقصر الأعمال على النيّة من باب قصر الموصوف على الصفة على سبيل الادعاء، إذ ليست الصحة أو الثواب موقوفا على النية وحدها بل وعلى سائر أركان العبادة وشروطها وانتفاء موانعها.

والألف واللام في «**الأَعْمَال**» لاستغراق الجنس على المشهور، أي كل عمل، وبمقابلتها بالنيات مقابلة الآحاد بالآحاد، أي لكل عمل نية، أو إشارة إلى تنوع النيات وتفاوتها، إذ ليس من قصد بعمله مجرد الامتثال لكون مالكه الموصوف بصفات الكمال أهلا لأن يطاع ولا يعصى كمن قصد بعمله نيل رضاه، وليس من قصد رضاه كمن قصد التنعّم بالحور والجنان والسلامة من الأغلال والنيران.

والباء في «**بِالنِّيَّاتِ**» تحتمل السببية والمصاحبة.

قوله: «**وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى**»، هذه الجملة غير الأولى، فإن الأولى نبهت على الأعمال لا تصير.......... إلا بالنية، والثانية أن العامل يكون له من الثواب والقبول على قدر نيته، ولهذا أخرت عن الأولى لرتبتها عليها.

وقال الخطابي[1]: أفادت الثانية تعيين العمل بالنية، حتى إنه لو نوى في الوضوء مطلق الطهارة وفي صلاة الظهر ونحوها مطلق الصلاة لم يحصل له الوضوء ولا

---

(1) هو أبو سليمان الخطّابي أحمد بن محمد بن إبراهيم بن خطّاب البستي، العلامة المحقق الفقيه الأديب، من تصانيفه معالم السنن في شرح كتاب السنن لأبي داود، وغريب الحديث، وغير ذلك، سكن بنيسابور مدّة، وتوفي رحمه الله ببست من بلاد كابل في ربيع الآخر سنة 388هـ ـ 998م. له ترجمة في: سير أعلام النبلاء (23/17 ـ 28)، ووفيات الأعيان (214/2 ـ 216)، وطبقات الشافعية للإسنوي (223/1).

صلاة الظهر، إذ لم ينوهما وإنما لكل امرئ ما نوى، وكذا لو نـوى في صـلاة فائتـة[1] شـك فيهـا أنها إن فاتته فقد أدّاها وإلا فهي تطوع، لم تجزه عن فرضه لأنه لم يمحض النية ولم يعيّن بها.

وقال الطيبي[2]: فهم من الأول أن الأعمال لا تحسب مسقطة للقضاء إلا مقرونـة بالنيـة، ومن الثاني أن النية إنما تعتبر وتقبل إذ قرنت بالإخلاص وبَعُـدَتْ عـن الريـاء، ويقـرب مـنهما الصلاة في دار مغصوبة تحسب مسقطة للقضاء وإيقاعها فيها حرام يستحق به العقاب، ولذا قيل: أداء الواجب على أكمل وجوهه يسقط فروضه ويحصل الثواب، والصلاة في المغصـوب يحصل الأول لا الثاني.

وقال بعضهم: إن الثانية تفيد تعيين الناوي والأولى تعيين المنـوي، فمـن وضّـأ غـيره بنيـة توضئته ولم ينو ذلك الموضَّأ لم يجزه بمقتضى الثانية، ولولا هي لأجزأ بمقتضى الأولى.

قـال: وهـذا صـحيح ملـيح، ومنـه مـا ذكـر في المدوّنـة مـن أن المغمـى عليـه إذا أحـرم عنـه أصـحابه ووقفـوا بـه بعرفـة أن إحـرامهم عنـه لـيس بـإحرام، وإنمـا الإحـرام مـا يحـرم هـو بعـد إفاقتـه، وإنمـا خـص مـن هـذا غسـل الميـت وإجبـار الذميـة عـلى غسـل

---

(1) نهاية الورقة (17/و).

(2) هو شرف الدين الحسن بن محمد بن عبد اللـه الطيبـي ـ بـكسر الطاء ـ الإمـام المشـهور العلامـة في المنقـول والمعقول والعربية والمعاني والبيان، شرح تفسير الكشاف شرحا كبيرا، وشرح مشكاة المصابيح، تُوفي رحمه اللـه سـنة 743هـ ـ 1342م. لـه ترجمـة في: الـدرر الكامنـة (185/2 ـ 186)، وبغيـة الوعـاة (522/1 ـ 523)، وشـذرات الذهب (137/6 ـ 138).

الحيض لحق الزوج، والإحرام بالصبي والمجنون وفعل المناسك عنهما؛ لأن هؤلاء متعذر منهم النية مطلقا أو زمنا طويلا والمغمى عليه بصرع قريبا عادة.

قوله: «فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللـه وَرسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللـه وَرسُولِهِ»، هذا مما اتّحد فيه الشرط والجزاء، وهما لا بد من تغايرهما إذ لا يكون الشيء سببا في نفسه، ولأنه لا يفيد أيضا.

فقال ابن دقيق العيد[1] في شرح العمدة: إن في الكلام حذفا تقديره: فمن كانت هجرته إلى اللـه ورسوله نية وقصدا فهجرته إلى اللـه ورسوله حكما وشرعا.

قيل: وفيه نظر، لأن المقدر حينئذ[2] حال مبنية فكيف تحذف، ولهذا منع الرُّنْدِي[3] في «شرح الجمل» جعل بسم اللـه متعلق بحال محذوفة، أي: ابتدأ متبركا.

---

(1) هو أبو الفتح محمد بن علي بن وهب بن مطيع القشيري، المعروف بابن دقيق العيد، الإمام الحافظ، الفقيه الأصولي المجتهد، كان علامة في المذهبين المالكي والشافعي، عارفا بالحديث وفنونه، من تآليفه إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، والإمام في شرح الإلمام، وشرح الأربعين النووية، توفي رحمه اللـه سنة 702 هـ ـ 1303 م. له ترجمة في: تذكرة الحفاظ (1481/4 ـ 1484)، والديباج (ص: 411 ـ 412)، وطبقات الشافعية للأسنوي (102/2).

(2) نهاية الورقة (17/ظ).

(3) هو أبو علي عمر بن عبد المجيد بن عمر الأزدي الرُّنْديّ من أهل مالقة، الأستاذ الفقيه النحوي العالم، تفنن في علوم شتى وكان شاعرا ذا مشاركة في علوم الآداب والنحو وله فيه كتاب شرح جمل أبي القاسم الجرجاني سماه الفاخر في شرح جمل عبد القادر، توفي رحمه اللـه سنة 616 هـ ـ 1219م. له ترجمة في صلة الصلة (ص:67)، والإحاطة في أخبار غرناطة (107/4)، وبغية الوعاة للسيوطي (220/2).

قال: لأن حذف الحال لا يجوز، فالأولى أن يكون نية وقصدا نصب على التمييز، وحذفه يجوز إذا دلّ عليه دليل كقوله تعالى: (إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ) [1] أي: رجلا.

قلت: وفي نظره نظر، إذ المعروف أن الحال فضلة يجوز حذفها إذا دل عليها دليل، والمعرِبون يقولون في قوله تعالى: (لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ)[2] إنه متعلق بحال محذوفة تقديره: قائلين أو قائلا، وكذا يقدر في قوله تعالى: (وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا...) [3] حالا محذوفة تقديرها: قائلين ربنا، ومثله: (وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ.....)الآية[4].

وهو كثير، والتفريق بين القول وغيره.....، ثم هذا الذي أشرنا إليه من الجواز هو مفهوم لفظ الارتشاف[5]، فإنه قال: إذا توقف المعنى على ذكر الحال لم يجز

---

(1) [سورة الأنفال: 65].

(2) [سورة البقرة: 285].

(3) من قوله تعالى: (وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) [سورة آل عمران: 191].

(4) أي قوله تعالى: (وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ) [سورة غافر: 7].

(5) الارتشاف للإمام أبي حيان الأندلسي أثير الدين محمد بن يوسف المتوفى سنة 745هـ 1344م، والاسم الكامل للكتاب ارتشاف الضرب من لسان العرب. انظر ترجمته في: غاية النهاية في طبقات القراء (402/1)، وبغية الوعاة (280/1 ـ 285)، وطبقات الشافعية الكبرى (275/9 ـ 306).

حذفها، نحو: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ [1]، وكذا سدّت مسدّ الخبر فظاهره أنها في غير ذلك يجوز حذفها.

وأما ما منعه الرُّنْدِي في «شرح الجمل» فحال خاصة لم يقم عليها دليل، وليس كذلك في الحديث، إلا أن ظاهر تعليله يدل على منع حذفها مطلقا، على أن نية وقصدا المقدّرين فيه يصح أن يُجعلا منصوبين بإسقاط الياء لا على الحال والتمييز، و«**إِلَى اللـه**» خبر «**كَانَتْ**».

ويجوز أن يكون «**نية**» هو الخبر لـ «**كانت**» على حذف مضاف، أي: ذات نية وقصد أو منوية، وتجعل الهجرة نفس النية مبالغة، وحذف الخبر لدليل جائز عند بعض النحاة، نحو: أكنت غنيا؟ فتقول: كنت، وخصه الأكثر بالضرورة، والذي يليق في الحديث على طريق أهل البيان أن المراد[2] بالهجرة المذكورة في الجزاء الهجرة المعهودة المستشعر في النفوس تعظيمها من غير ملاحظة حذف، على حدّ قولهم: أنت أنت، أي: الطريق الذي لم يتغير، وقول الشاعر[3]: [الرجز]

أَنَا أبُو النَّجْمِ وشِعْرِي شِعْرِي[4] ....

---

(1) [سورة الدخان: 38].

(2) نهاية الورقة (18/و).

(3) البيت لأبي النجم العجليّ، انظر الأغاني (340/22)، وخزانة الأدب (418/1).

(4) تمام البيت:

أَنَا أَبُو النَّجْمِ وَشِعْرِي شِعْرِي   لِلهِ دَرِّي مَا يُجِنُّ صَدْرِي

أو يؤول على أنه من إقامة السبب مقام المسبب لاشتهار السبب له، أي: فقد استحق الثواب العظيم المستقر للمهاجرين إلى الله ورسوله، وأوقع الظاهر موقع المضمر، فإن الأصل: فهجرته إليهما، إما للكناية عن عظيم مقدار هذه الهجرة، وفخامة شأنها بإضافتها إلى الله جل وعلا ورسوله صلى الله عليه وسلم، كأنه يقول: لو لم يكن لهذه الهجرة من الشرف إلا وسمها بهذه الإضافة الرفيعة المقدار لكان كافيا، أو لتربية الرغبة في الثواب، أو للاستلذاذ بذكر الله تعالى وذكر رسوله صلى الله عليه وسلم، أو لئلا يجمع بينهما في ضمير واحد لورود النهي عنه في: «**بِئْسَ خَطِيبُ القَوْمِ أَنْتَ**»[1]، ولا يرد «**حَتَّى يَكُونَ الله وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا**»[2]، لأن الإظهار في هذا المقام هو الأصل للتعظيم الشرعي وما سواه نادر بالنسبة إليه.

---

(1) الحديث مروي عن عدي بن حاتم رضي الله عنه؛ أخرجه مسلم، وأخرجه أحمد (379/4 رقم: 19401)، ومسلم (594/2 رقم: 870)، وأبو داود (288/1 رقم: 1099)، والنسائي (90/6 رقم: 3279)، وابن حبان (37/7 رقم: 2798).. ولفظه كما في صحيح مسلم قال: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَمُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الله بْنِ نُمَيْرٍ، قَالَا: حَدَّثَنَا وَكِيعٌ عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ عَبْدِ العَزِيزِ بْنِ رُفَيْعٍ، عَنْ تَمِيمِ بْنِ طَرَفَةَ، عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ أَنَّ رَجُلًا خَطَبَ عِنْدَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: مَنْ يُطِعِ الله وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشَدَ، وَمَنْ يَعْصِهِمَا فَقَدْ غَوَى، فَقَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم : «بِئْسَ الخَطِيبُ أَنْتَ، قُلْ: وَمَنْ يَعْصِ الله وَرَسُولَهُ، قَالَ ابْنُ نُمَيْرٍ: فَقَدْ غَوِيَ».

(2) جزء من حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم : «لَا يَجِدُ أَحَدٌ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَحَتَّى أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ الله، وَحَتَّى يَكُونَ الله وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا». أخرجه البخاري (15/1 رقم: 16)، ومسلم (66/1 رقم: 43).

قوله: «**مَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**» هو مثل الذي قبله إيرادًا وجوبًا.

وورد في سبب الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رجلا خطب امرأة بمكة تسمى أمَّ قيس ليتزوجها فأبت، ثم هاجر إلى المدينة فهاجر بعدها لا يقصد بهجرته إلا تزوجها، فَسُمِّيَ مُهَاجِر أم قيس[1]، فجاء الحديث توبيخا وزجرًا له ولغيره عن قصد الدنيا بعمل الآخرة.

والتوبيخ وقع بتحقير شأن ما قصده حتى إنه لم يذكر باسمه الجواب وكني عنه بما هاجر إليه تنبيها على أنه ينبغي[2] أن لا يذكر لحقارته صونا للسان وترفيعا له عن النطق به، فكيف بأشرف عضو في الإنسان وهو قلبه، فكيف يستعمل في ذلك ذاته وجوارحه، على أنه لو نطق به لأفاد التحقير أيضا، لكن الكناية بـ «**مَا**» الشديدة التوغل في الإبهام في مقام التحقير تفيد غايته مما لا يمكن التعبير عنه حطاطة كما تفيد ضد ذلك من غاية التعظيم في مقامه، نحو: (فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى) [3]، (فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى) [4]، (فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ) [5].

---

(1) رواه الطبراني في معجمه الكبير (103/9 رقم: 8540)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (269/2): «رجاله رجال الصحيح»، وقال العراقي في المغني عن حمل الأسفار (1168/2): «بإسناد جيد».

(2) نهاية الورقة (18/ظ).

(3) [سورة النجم: 10].

(4) [سورة النجم: 54].

(5) [سورة طه: 78].

ولا إشكال في مناسبة الإبهام لكل من التحقير والتعظيم، لأن الشيء الحقير ينزه عنه اللسان، والشيء العظيم ينزّه هو ويصان أن يبتذل بالذكر والبيان، ولهذا نكرت «**دُنْيَا**» و «**امْرَأَةٍ**» للتحقير أيضا، وقد وصف مولانا جل وعلا الدنيا بأجمعها بالقلة في قوله: (قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ) [1]، فكيف بمن نال الشيء اليسير منها الحقير، فكيف بمن لم ينله، وإنما هو على رجاء أن يناله في المستقبل، ولهذا وصفت الدنيا والمرأة بـ «**يُصِيبُهَا**» و «**يَتَزَوَّجُهَا**» وهما مستقبلين غير حاصلين، فقد يحصلان وقد لا، وإن حصلا فعاقبة ذلك الخسران (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا....) إلى (وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [2]،(مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ ..) إلى (وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيب..) [3]، (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ...) إلى (وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا...) [4]، أي: ممنوعا عن الفريقين في الدنيا.

---

(1) [سورة النساء: 77].

(2) أي: قوله تعالى: (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [سورة هود: 15 ـ 16].

(3) أي: قوله تعالى: (مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ) [سورة الشورى: 20]

(4) أي: قوله تعالى: (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا) [سورة الإسراء: 18 ـ 20].

لَا تَعْجَبَنَّـــكَ دُنْيَـــا أَنْـــتَ تَارِكُهَـــا كَـمْ نَالَهَـا مِـنْ أُنَـاسٍ ثُـمَّ قَـدْ ذَهَبُـوا

فَـلَا تَغْتَـبِطْ يَوْمًـا بِـدُنْيَا وَإِنْ صَـفَتْ وَلَا تَأْمَنَن الدَّهْرَ فِي صَرْفِ العَوَاقِبِ

وخرج من هذا أن وصف دنيا وامرأة بالجملة التي بعدها للتحقير والذم تنفيرا من طلبها لذات كونها دنيا تصاب وذات كونها امرأة تنكح لا لغرض[1] ديني مع ذلك.

ويحتمل أن يكون الوصف للتخصيص احترازا مما إذا طُلبا لأمر ديني، وإنما لم يذكر الغرض من الهجرة إلى الله ورسوله، لأن القصد إليه جل وعلا شريف على أي وجه كان من طلب رضوان جنة أو سلامة من عذاب أو نحو ذلك.

ويحتمل أن تكون الإشارة بذلك إلى مقام أرفع وهو أن لا ينوي بهجرته ولا غيرها إلا الله جل وعلا الذي هو أهل أن تخلص له العبادة وتخلص من الشوائب والأغراض التي فيها رائحة حظ النفس، وهذا هو الإخلاص الذي أمر به الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وجاء هذا الحديث لبيانه كما فهم من تعلقه بابتداء الوحي .

تنبيهات

الأول: قال الخطابي: هذا الحديث ليس بمتواتر، إذ من شرطه وجود الكثرة في الطرفين والوسط، ولا أعلم خلافا بين أهل الحديث أنه لا يصح إسناده عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا عن عمر، وغلط نوح بن حبيب في إسناده عن أبي سعيد

(1) نهاية الورقة (19/و).

الخدري، وإنما ذكره عمر رضي اللـه عنه على المنبر بحضرة الصحابة، فسكوتهم على الإنكار دليل إجماعهم على صحته، ومن هذا الإجماع توهم بعضهم تواتره وليس بصحيح، وإنما انتشر هذا الحديث عن يحيى بن سعيد، ورواه عنه نحو المائتين[1]، وما ذكرنا من الإجماع على صحته يدخله الخلاف في الإجماع المنقول بخبر الواحد دخولا أحرويا، لأن ذلك الإجماع النطقي وهذا سكوتي فهو أضعف.

الثاني: قوله في أول الحديث: سمعت رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم، هذا ما يتكرر كثيرا، وقد اختلف في «سمعت» هل يتعدى إلى مفعولين، الثاني منهما مما يسمع، وهو قول الفارسي[2]، والصحيح تعديتها إلى[3] واحد، وما وقع بعده فحال مبنية للمضاف المقدر فيه، إذ السمع لا يقع على الرواة، فمعنى «سمعت رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم يقول»، سمعت كلام رسول اللـه صلى اللـه عليه

---

(1) قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (11/1 ـ 12): «حكى محمد بن علي بن سعيد النقاش الحافظ أنه رواه عن يحيى مائتان وخمسون نفسا، وسرد أسماءهم أبو القاسم بن منده فجاوز الثلثمائة، وروى أبو موسى المديني عن بعض مشايخه مذاكرة عن الحافظ أبي إسماعيل الأنصاري الهروي قال: كتبته من حديث سبعمائة من أصحاب يحيى. قلت: وأنا استبعد صحة هذا، فقد تتبعت طرقه من الروايات المشهورة والأجزاء المنثورة منذ طلبت الحديث إلى وقتي هذا فما قدرت على تكميل المائه، وقد تتبعت طرق غيره فزادت على ما نقل عمن تقدم».

(2) هو أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسي، الإمام المشهور، واحد زمانه في علم العربية، صنف الإيضاح في النحو، والتكملة في التصريف، والأمالي، توفي رحمه اللـه ببغداد سنة 377 هـ ـ 987م. له ترجمة في: تاريخ بغداد (275/7)، وسير أعلام النبلاء (379/16 ـ 380).

(3) نهاية الورقة (19/ظ).

وسلم في حال كونه قائلا.

الثالث: دُنْيَا بضم الدال، وحكى ابن قتيبة[1] كسرها، وهو مقصور غير منون، وحكي تنويها. قال ابن جِنّي[2]: وهي نادرة.

وأورد ابن مالك[3] أنها في الأصل مؤنث أدنى، وهو أفعل تفضيل يلزم الإفراد والتذكير إذ نكّر، وأجاب بأنها خلعت عنها الوصفية وأجريت مجرى ما لم يكن وصفا كرُجعى.

(1) هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، وقيل: المروزي، العلامة الكبير، النحوي اللغوي، ذو الفنون وصاحب التصانيف، ولد ببغداد وسكن الكوفة ثم ولي قضاء الدينور مدة فنسب إليها، وتوفي رحمه الله ببغداد سنة 276 هـ ـ 889 م. له ترجمة في: تاريخ بغداد (170/10 ـ 171)، وسير أعلام النبلاء (296/13 ـ 302)، ووفيات الأعيان (42/3 ـ 44)، وبغية الوعاة (2/ 63 ـ 64).

(2) ابن جِنّي: بكسر الجيم وتشديد النون وبعدها ياء، وهو أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي، النحوي المشهور، إمام العربية في زمانه، وصاحب التصانيف، ولد بالموصل وتوفي رحمه الله ببغداد سنة 392هـ ـ 1002م عن نحو 65 عاما. له ترجمة في: تاريخ بغداد (311/11 ـ 312)، وسير أعلام النبلاء (17/17 ـ 19)، ووفيات الأعيان (246/3 ـ 248)، وبغية الوعاة (132/2).

(3) هو أبو عبد الله، جمال الدين محمد بن عبد الله بن عبد الله بن مالك الطائي الجياني، أوحد عصره في علم النحو والعربية، من أشهر كتبه الألفية في النحو، ولامية الأفعال، وشواهد التوضيح، وغيرها، ولد في جيان بالأندلس، وانتقل إلى دمشق فتوفي فيها رحمه الله سنة 672هـ ـ 1274م. له ترجمة في: تاريخ الإسلام (109/50 ـ 111)، وبغية الوعاة (130/1 ـ 137)، وطبقات الشافعية الكبرى (67/8 ـ 68)، ونفح الطيب (222/2 ـ 226).

[الباب الثاني]

2 _ باب (...)

[حديث كيفية نزول الوحي]

2 ـ حَدَّثَنَا عَبْدُ اللـه بْنُ يُوسُفَ قَالَ أَخْبَرَنَا مَالِكٌ عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللـه عَنْهَا أَنَّ الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ رَضِيَ اللـه عَنْهُ سَأَلَ رَسُولَ اللـه صلى اللـه عليه وسلم فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللـه، كَيْفَ يَأْتِيكَ الْوَحْيُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللـه صلى اللـه عليه وسلم : «أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ فَيُفْصَمُ عَنِّى وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ، وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِيَ الْمَلَكُ رَجُلاً فَيُكَلِّمُنِى فَأَعِي مَا يَقُولُ».

قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللـه عَنْهَا: وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ، فَيَفْصِمُ عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا[1].

(ص) ثنا عبد اللـه بن يوسف....إلى آخره، وفيه حديث عائشة أن الحارث بن هشام سأل النبي صلى اللـه عليه وسلم كَيْفَ يَأْتِيكَ الْوَحْيُ؟.

(ش) أقول: عبد اللـه بن يوسف التنيسي[2] من أجلّ رواة الموطأ عن مالك،

---

(1) أخرجه البخاري (9/1 رقم: 2، وأطرافه في: 3215)، ومسلم (1817/4 رقم: 2333).

(2) له ترجمة في: التاريخ الكبير للبخاري (233/5)، والجرح والتعديل (205/5)، وتاريخ دمشق (392/33 ـ 399)، وتهذيب الكمال (333/16 ـ 336).

منسوب إلى تِنِّيس بتاء مكسورة من فوق ثم نون مكسورة مشدّدة ثم آخر الحروف ثم سين مهملة، بلد من بلاد مصر[1].

قيل: سميت باسم صاحبها تنّيس بن حام بن نوح عليه السلام.

وأصل عبد الله من دمشق، ثم نزل تنّيس.

والحارث بن هشام رضي الله عنه[2] هو أخو أبي جهل لعن.

ومالك رضي الله عنه هو أحد الأئمة المقتدى بهم، وشهرته تغني عن وصفه[3].

وجمع بعض الشعراء الأئمة السبعة والقراء السبعة في أبيات فقال[4]:

جَمَعْتُ لَكَ القُرَّاءَ لَمَّا أَرَدتَهُمْ ... ببيتٍ تراهُ للأئمَّةِ جَامِعَا

أَبُو عَمْرو عَبْدُ الله حَمْزَةُ عَاصِمٌ ... عَلِيٌّ وَلَا تَنْسَ المَدِينِيَّ نَافِعَا

وَإِنْ شِئْتَ أَرْكَانَ الشَّرِيعَةِ فَاسْتَمِعْ ... لِتَعْرِفَهُمْ وَاحْفَظْ إِذَا كُنْتَ سَامِعَا

مُحَمَّدُ وَالنُّعْمَانُ مَالِكُ أَحْمَدُ ... وَسُفْيَانُ وَاذْكُرْ بَعْد دَاوُودَ تَابِعَا[5]

---

(1) انظر معجم البلدان (51/2).

(2) له ترجمة في: الإصابة (605/1 ـ 607)، وتاريخ دمشق (491/11 ـ 506)، وتهذيب التهذيب (140/2 ـ 141)، وتهذيب الكمال (294/5 ـ 304).

(3) له ترجمة في: الجرح والتعديل (11/1 ـ 32)، و (204/8 ـ 206)، وحلية الأولياء (316/6 ـ 315)، والطبقات الكبرى لابن سعد (465/5 ـ 469)، وترتيب المدارك (102/1 ـ 253)، وسير أعلام النبلاء (48/8 ـ 135).

(4) هذه الأبيات لأبي الفضل يحيى بن سلامة بن الحسين الحصكفي الأديب الفقيه، نقلها عنه السبكي في طبقات الشافعية الكبرى (331/7).

(5) نهاية الورقة (20/و).

وقول عائشة رضي اللـه عنها «**أَنَّ الحَارِثَ**» أتت بصيغة «**أَنَّ**» المحتملة للوصل والإرسال، فإن حضرت سؤاله فوصل، وإن بلغها عنه فمرسل صحابي وهو في حكم الوصل.

قيل[1]: وثبت الثاني في مسند أحمد ومعجم البغوي وغيرهما.

وسؤال الحارث هذا ليس داخلا في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ...) الآية[2]، بل هو سؤال مهم عن مسألة عظيمة من أصول الدين، والجواب عنها متعيّن لئلا يتوهم من أمر النبوة ما لا يليق بها.

وقال بعضهم: هو سؤال عن تكميلي الحاجي، وفيه نظر.

ووقع السؤال عن صفة تلقي النبي صلى اللـه عليه وسلم الوحي من المَلَك ولم يقع عن صفة تلقي المَلَك له من اللـه جل وعلا، وذلك إما أن يُخلق فيه علم ضروري بذلك يُقطع بأنه من عند اللـه، وإما يخلق صوت يسمعه ويقطع به

(1) ذكر ذلك ابن حجر في فتح الباري (19/1) فقال: «قوله: «سَأَلَ»، هكذا رواه أكثر الرواة عن هشام بن عروة، فيحتمل أن تكون عائشة حضرت ذلك وعلى هذا اعتمد أصحاب الأطراف فأخرجوه في مسند عائشة، ويحتمل أن يكون الحارث أخبرها بذلك بَعْدُ فيكون من مرسل الصحابة، وهو محكوم بوصله عند الجمهور، وقد جاء ما يؤيد الثاني ففي مسند أحمد ومعجم البغوي وغيرهما من طريق عامر بن صالح الزبيري عن هشام عن أبيه عن عائشة عن الحارث بن هشام قال: سألت، وعامر فيه ضعف، لكن وجدت له متابعا عند ابن منده، والمشهور الأول».

(2) من قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللـه عَنْهَا وَاللـه غَفُورٌ حَلِيمٌ) [سورة المائدة: 101].

كذلك، وإما بسماع نفس كلام اللـه القائم بذاته الـذي لا يُكَيَّـف ولـيس حرفـا ولا صـوتا ولا يوصف بالتقدم ولا التأخر ولا الابتـداء ولا الانتهـاء، وإمـا بـالاطلاع عليـه في اللـوح المحفـوظ فينقله إلى الرسول بعد الإذن له في ذلك فيأتي به أحيانا، أي في أوقات متعـددة يصـوّت صـوتا مترددا مفزعًا كصلصلة الجرس، وهو الجلجـل الـذي يُجعـل في أعنـاق الإبـل وغيرهـا، ووجـه الشبه بينهما التردد وعدم الانقطاع من غير إفصاح، وإلا فهـو في العظـم كالرعـد الشـديد، إذ هو الذي يشق سماعه، وبالجملة فهو صوت يذهل السامع عن كل شيء إلا عما هو فيه.

قال بعض الشيوخ: وكأن هذه الحالة ـ واللـه أعلم ـ حالة يكون فيها المَلَـكُ عـلى هيئتـه التي هو عليها، ولذلك لم يظهر له لئلا يجمع عليه[1] فضاعة المنظر والمسمع فيخاف عليه.

ويؤيد هذا مقابلة هذه الحالة بتمثيله رجلا يكلمه كما يكلم الرجال فيخف عليه منظـرا ومسمعا، وكأن الحالة الأولى إنما يأتيه فيها إذا [ ] فكره بما يخشى معه مزاحمة ما يُلقى إليه من الوحي فلا يعيه فيفزعه بذلك الصوت ليشغله عن ذلك ويفرغ حواسه لما أتى بـه، ولهـذا قال: «**فَيُفْصَمُ عَنِّي**»، أي فيقلع عني الروع حين يتم كلامه ويسكت الصوت، «**وَقَدْ وَعَيْتُ مَا قَالَ**» أي حفظته، إذ لم يبق في فكره عمل لسواه من أجل الروع الذي أدركه من صوته.

وقيـل: إنمـا يـأتي كـذلك إذا نـزل بآيـة وعيـد أو تهديـد، وكأنـه للتنبيـه عـلى عظـم مـا

---

(1) نهاية الورقة (20/ظ).

جاء به، ولهذا كان صلى الـلـه عليه وسلم إذا أنذر في حال خطبته يعلو صـوته ويتغـير حالـه كأنه نذير جيش.

وأما الحالة الثانية: فيأتيه فيها إذا كان في كمال الاستعداد والاستغراق في الفكرة والمراقبة لربه عز وجل والـلـه أعلم، وهذه الحالة هي غالب أحواله صلوات الـلـه وسـلامه عليـه، وفي حديث أبي داود من حـديث عمـر رضي الـلــه عنـه: «**كُنَّا نَسْمَعُ عِنْدَهُ كَدَوِيِّ النَّحْلِ**»[1]، وظاهره أنه أضعف مما شبه به صلى الـلـه عليه وسلم، وذلك لبعده حينئذ حسـا ولـو قـرب لسمعه كالجرس، أو معنى لانخفاض مقامه وقوته عن مقام النبوءة، وكثيرا ما يأتي الملك وهم حاضرون فلا يرون ولا يسمعون شيئا.

ومقـام النبـي صـلى الـلــه عليـه وسـلم في تلقـي الـوحي كمقـام الملائكـة في تلقـيهم،

(1) كذا نسبه إلى سنن أبي داود وليس موجودا فيه، وقد أخرجه الإمام أحمد (34/1 رقم: 223)، والترمذي (326/5 رقم: 3173)، والنسائي في الكبرى (450/1 رقم: 1439)، وقال: «هذا حديث منكر، لا نعلم أحدا رواه غير يونس بن سليم، ويونس بن سليم لا نعرفه»، والحاكم (425/2 رقم: 3479) وصححه وتعقبه الذهبي قائلا: «سئل عبد الرزاق عن شيخه ذا فقال: لا أظنه شيء»، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (394/3 رقم: 1242). ولفظه كما في سنن الترمذي عن عمر بن الخطاب رضي الـلـه عنه قال: «كَانَ النَّبِيُّ صلى الـلـه عليـه وسـلم إِذَا نَـزَلَ عَلَيْـهِ الوَحْيُ سُمِعَ عِنْدَ وَجْهِهِ كَدَوِيِّ النَّحْلِ، فَأُنْزِلَ عَلَيْهِ يَوْمًا فَمَكَثْنَا سَاعَةً فَسُرِّيَ عَنْـهُ فَاسْـتَقْبَلَ القِبْلَـةَ وَرَفَـعَ يَدَيْـهِ وَقَالَ: الـلـهمَّ زِدْنَا وَلاَ تَنْقُصْنَا، وَأَكْرِمْنَا وَلاَ تُهِنَّا، وَأَعْطِنَا وَلاَ تَحْرِمْنَا، وَآثِرْنَا وَلاَ تُؤْثِرْ عَلَيْنَا، وَأَرْضِنَا وَارْضَ عَنَّـا؛ ثُـمَّ قَالَ صلى الـلـه عليه وسلم : أُنْزِلَ عَلَيَّ عَشْرُ آيَاتٍ مَنْ أَقَامَهُنَّ دَخَلَ الجَنَّةَ، ثُمَّ قَرَأَ (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ) [سـورة المؤمنون: 1 ـ 10] حَتَّى خَتَمَ عَشْرَ آيَاتٍ».

ففي حديث أبي هريرة: «**إِذَا قَضَى اللـه الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتْ المَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهَا سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ فَـ (إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ) ـ وسكت الصوت عرفوا**[1] **أنه الحق ونادوا ـ (مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ)** »[2].

إلا أن جرّ السلسلة على الصفوان وهو الحجر الأملس قد يكون أضعف من صوت الجرس، لأنه كلما قرع الصوت محله عن اتصال ضعف صوته، وإن قرع عن انفصال قوي بقدره، إلا أن يراد سقوطها على الصفوان، لكن يفوت معه من التشبيه تتابع الصوت ولا أن يدوم الطنين.

ومن هنا يحسن أن يقال: مقامه صلى اللـه عليه وسلم أرفع في ثبات الجأش لزيادة الصوت بالنسبة إليه، ومع ذلك قال: «**فَيُفْصَمُ عَنِّي، وَقَدْ وَعَيْتُ**»، وهم قالوا عند الانفصام (مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ) [3] .

---

(1) نهاية الورقة (21/و).

(2) أخرجه البخاري (470/3 رقم: 7481)، والترمذي (362/5 رقم: 3223)، وابن ماجه (69/1 رقم: 194)، والحميدي (487/2 رقم: 1151)، وابن حبان (222/1 رقم 36). ولفظ البخاري عن أبي هريرة رضي اللـه عنه يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ صلى اللـه عليه وسلم قَالَ: «إِذَا قَضَى اللـه الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتْ المَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ ـ قَالَ عَلِيٌّ وَقَالَ غَيْرُهُ ـ صَفْوَانٍ يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ، فَـ (إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ) » [سورة سبأ: 23].

(3) من قوله تعالى: (وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ) [سورة سبأ: 23].

وبالجملة فتلقي النبي صلى الله عليه وسلم للوحي على هذه الحالة الأولى مما رد فيها من الوضع البشري إلى الوضع المَلَكي، ولهذا قال: «**وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ**» إما لعظم الصوت أو لعدم الإفصاح بما أتى به من الوحي، قاله الباجي.

قلت: أو لهما معا، وأما الحالة الثانية فمما ردّ فيها الملك إلى الوضع البشري.

قال بعض الشيوخ: فكأنهما تقارضا.

تنبيهات

الأول: «**أَحْيَانًا**» جمع حين، منصوب على الظرفية بـ «**يَأْتِينِي**»، وفاعل يأتي ضمير يعود على الوحي على الإسناد المجازي، أو يعود على المَلَك على الإسناد الحقيقي.

و«**مِثْل**» على الأول حال من الضمير، وعلى الثاني نعت لمصدر محذوف، أي يأتيني الملك بصوت مثل كذا، وبصوت المحذوف في موضع الحال من ضمير الملك.

وقد قيل: يجوز حذف الحال، ويتقوى هنا ببقاء نعت معموله الدال عليه.

وروي «**فِي مِثْلِ**»، ويتمشى فيه أيضا الوجهان السابقان في مرجع الضمير، أي يأتي الوحي في مثل، أو الملك في صوت مثل.

وإنما قدم «**أَحْيَانًا**» على عامله مع أنه هو المسؤول[1] عنه فكان أولى بالتقديم، ولأنه الأصل، لأن المسؤول عنه لما لم يلزم طريقة واحدة بل يختلف بحسب

---

(1) نهاية الورقة (21/ظ).

الأوقات كان المبين له الوقت فكان تقديمه أهم.

الثاني: إنما قال في الأول: «**وَقَدْ وَعَيْتُ**» وفي الثاني «**فَأَعِي**»، لأنه في الحالة الأولى لم يشغل إلا بالسماع لذهوله بروع الصوت عن مراجعة الفكر بتكرير ما هو سامع له، حتى إذا فرغ المفزع له ارتسم دفعة جميع ما سمع في ذهنه بفضل الله وتأييده له وإفهامه له ذلك الصوت العظيم الذي لا إفصاح فيه وجمعه له في حفظه، لأن هذه حالة لا يقدر معها على اكتساب حفظ ولا فهم فلم يعقل فيها ما وعاه إلا بعد أن وجد في ذهنه ومضى، فلهذا عبّر بوعيت الفعل الماضي، وكيفية ذلك على الحقيقة لا يعلمه إلا الله جل وعلا، ورسله الذين أطلعهم على ذلك الصوت العظيم، وإنما قصد النبي صلى الله عليه وسلم أن يقرب للسائل ما سأل عنه من عالم الغيب بقدر ما يحتمله ذهنه وأنسه، بأن ضرب له مثالا من عالم الحسّ والشهادة.

وأما الحالة الثانية: فلما كان المَلَكُ يكلمه كالرجل كان كلما تكلّم بشيء أخذه عنه وردده إن احتاج إلى ذلك، فهو في حال وعي، فلذا عبّر هنا بالمضارع المقتضي للحال، ولهذا أيضا عبّر في الأولى بما قال وفي الثانية بما يقول.

الثالث: يؤخذ من هذا الحديث جواز إلقاء المعلم للمتعلم ما يعمله بصوت عنيف وإظهار صورة قهر، لا سيما لمن يراه مُعرضا عما يلقي إليه ومنشغلا بغيره، وربما ارتقى إلى ضرب فوق ضرب بحسب مقتضى الحال، كما يؤخذ منه رفقه به إن لم يشغل قلبه بغير ما يلقي إليه؛ إذ ذاك نهاية مقدورة.

الرابع[1]: قوله هنا: «**فَيُفْصَمُ**»، وفي قول عائشة: «**فَيُفْصَمُ عَنْهُ**».

قال في المشارق: «بفتح الياء وبضمها على البناء للمفعول»[2].

وفي التعبير بالضم الذي معناه القطع من غير بينونة دون القصم الذي هو القطع ببينونة، إشارة خفية إلا أنها بينونة من غير انقطاع، وأن الملك فارقه ليعود إليه.

الخامس: قول عائشة رضي الله عنها: «**وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ**» بفتح الياء وضمها على البناء للفاعل أو المفعول إلى آخره، قصدت به التوكيد لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «**وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ**»، وفيه مؤكدات توطئتها بلام القسم في «**لَقَدْ**».

وقولها: «**الشَّدِيدِ البَرْدِ**» ولم تكتف بالبارد، ونصبها التمييز من ضمير الجبين، أسندت التفصد أولا للجبين ليوهم أنه السائل ثم تفسيره، فهو من الإفهام بعد الإبهام كما قرر في (وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا) [3].

و«**يَتَفَصَّدُ**»، أي: يسيل ويتصبب.

---

(1) نهاية الورقة (22/و).

(2) مشارق الأنوار على صحاح الآثار (197/2).

(3) [سورة مريم: 4].

والجبين: قال الجوهري[1]: «فوق الصُّدْغِ، وهما جبينان عن يمين الجبهة وشمالها»[2].

ويحتمل أن يكون المراد في قول عائشة رضي اللـه عنها الجبهـة، لأنهـا التـي ترشـح غالبـا عند شدة الأمر، ومنه: يموت المؤمن بعرق الجبين.

وقول البخاري: «**قَالَتْ عَائِشَةُ**» حذف فيه الواو العاطفـة، والأصـل: وقالـت، فيكـون مـن جملة الحديث المسند، والواو قد تحذف دون معطوفها، ويكثر ذلك مع القـول كـما تكـرر في سورة الشعراء في سبعة عشر موضعا أولها: قَـالَ (أَلَـمْ نُرَبِّـكَ فِينَـا وَلِيـدًا) [3]،ومنـه : (اذْهَـبْ بِكِتَابِي هَذَا..) إلى (قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ.....) الآية[4].

وكثر في البخاري وغفل عن هذه النكتة من قال: إنه من تعليقات البخاري وليس بمسند.

* * *

(1) هو أبو نصر إسماعيل بن حماد التركي الجوهري، أحد أئمة اللغـة والأدب المشـهورين، صـنف كتابـا في العـروض ومقدمة في النحو والصحاح في اللغة وهو أشهر كتبه، توفي رحمه اللـه سنة 393 هـ ـ 1003 م، وقيل: في حـدود عام 400 هـ ـ 1010 م. له ترجمة في سير أعلام النبلاء (80/17)، وشذرات الذهب (142/3 ـ 143)، ومعجم الأدباء للحموي (205/2 ـ 211).

(2) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (2091/5).

(3) سورة الشعراء: 18.

(4) أي: قوله تعالى: (اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَـا أَيُّهَـا الْمَـلأُ إِنِّي أُلْقِـيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ) [سورة النمل: 28 ـ 29].

[الباب الثالث]

3 ـ باب (...)

[حديث: أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم مِنَ الْوَحْيِ]

3 ـ حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ بُكَيْرٍ قَالَ: حَدَّثَنَا اللَّيْثُ عَنْ عُقَيْلٍ عَنِ ابْنِ شِهَابٍ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهَا قَالَتْ: **أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لاَ يَرَى رُؤْيَا إِلاَّ جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلاَءُ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ _ وَهُوَ التَّعَبُّدُ _ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ.**

قَالَ: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ».

قَالَ: «فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّى الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ.

قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّى الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ) [1]**».**

فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم يَرْجُفُ فُؤَادُهُ، فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رضي الله عنها فَقَالَ: «زَمِّلُونِي، زَمِّلُونِي»، فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، فَقَالَ لِخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ «لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي».

---

(1) [سورة العلق: 1 ـ 3].

فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلاَّ وَاللهِ مَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِى الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ.

فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ ـ وَكَانَ امْرَأً تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ، فَيَكْتُبُ مِنَ الإِنْجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ ـ فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يَا ابْنَ عَمِّ، اسْمَعْ مِنَ ابْنِ أَخِيكَ.

فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: يَا ابْنَ أَخِي، مَاذَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم خَبَرَ مَا رَأَى.

فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللهُ عَلَى مُوسَى صلى الله عليه وسلم، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : «أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟».

قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلاَّ عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا، ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ وَفَتَرَ الْوَحْيُ»[1].

(ص) ثنا يحيى بن بكير، قال: ثنا الليث عن عقيل[2] عن ابن.....

---

(1) متفق عليه. أخرجه البخاري (9/1 رقم: 3 وأطرافه في: 3392، 4953، 4955، 4956، 4957، 6982)، ومسلم (142/1 رقم: 160 ـ 161).

(2) نهاية الورقة (22/ظ).

شهاب[1]...إلى قوله: «**مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ**».

(ش) أقول: عُقَيل ـ بضم العين وفتح القاف ـ هو عقيل بن خالد الدلائلي صاحب الزهري، روي له البخاري ومسلم كثيرا[2].

ونظيره والد يحيى بن عقيل، يروي عن يحيى بن يعمر، بصري جليل، روى له مسلم في الزكاة عن يحيى بن يعمر[3].

وأما عَقِيل بن أبي طالب وأبو عَقِيل الأنصاري رجل من الصحابة، وهو الذي تصدق بصاع فَلَمَزَهُ المنافقون.

وأبو عَقِيل زهرة بن معبد القرشي المصري يحدث عن جده عبد الله ابن هشام وعبد الله بن الزبير.

---

(1) هو أبو بكر محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهري، من التابعين بالمدينة، وأحد أكابر الحفاظ والفقهاء، وأول من دون الحديث، وشيخ الإمام مالك، متفق على جلالته وإتقانه، توفي رحمه الله سنة 124هـ ـ 742م. له ترجمة في: حلية الأولياء (3/360 ـ 381)، وتهذيب التهذيب (9/445 ـ 451)، وتذكرة الحفاظ (1/102).

(2) عقيل بن خالد بن عقيل أبو خالد بن الأيلي مولى عثمان بن عفان رضي الله عنه، يروي عن أبيه والزهري ويحيى بن أبي كثير وغيرهم، روى عنه الليث بن سعد ورشدين بن سعد وابن لهيعة وغيرهم، وأخرج له الستة، توفي رحمه الله بمصر سنة 141هـ 758م. له ترجمة في: التاريخ الكبير للبخاري (7/94)، تهذيب الكمال (20/242 ـ 245).

(3) أشار بذلك إلى حديث أبي ذر رضي الله عنه «أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالُوا لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم : يَا رَسُولَ الله، ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالأُجُورِ، يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّى، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ»، أخرجه مسلم (2/697 رقم: 1006).

وأبو عَقِيل بشير بن عقبة الدورقي[1] عن أبي المتوكل الناجي.

وأبو عَقِيل يحيى بن المتوكل صاحب بُهَيَّة[2] بالباء المعجمة بواحدة مضمومة والهاء مفتوحة، فهؤلاء كلهم بفتح العين وكسر القاف.

وقول عائشة رضي الله عنها: «**أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم مِنْ الوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ**»، يحتمل أن تكون سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيكون الحديث مرفوعا، ويحتمل أن تكون سمعته من واسطة كأبويها أو غيرهما فيكون مرسل صحابي، وهو حجة خلافا للإسفراييني[3].

و«**مَا**» في «**مَا بُدِئَ**» موصول اسمي أو حرفي أو نكرة موصوفة، وهي واقعة على الوحي، ولأجل احتمالها غير الوحي بينت بمن، أي أول الوحي الذي بدئ

---

(1) في (أ): الزورقي.

(2) بُهَيَّة مولاة أبي بكر، تروي عن عائشة أم المؤمنين، وعنها أبو عقيل يحيى بن المتوكل، قال ابن عمار: «ليست بحجة»، وقال الجوزجاني: «سألت عنها كي أعرفها فأعياني»، وقال الحافظ في التقريب: «لا تعرف». انظر: ميزان الاعتدال (356/1)، وتهذيب التهذيب (355/12)، وتقريب التهذيب (ص: 662).

(3) هو أبو حامد أحمد بن أبي طاهر محمد بن أحمد الإسفراييني، الأستاذ العلامة، وشيخ الشافعية ببغداد، اتفق أهل عصره على تفضيله وتقديمه في جودة النظر، وذكر ابن الصلاح أنه مجدد المائة الرابعة، توفي رحمه الله ببغداد سنة 406 هـ ـ 1016م. له ترجمة في: تاريخ بغداد (368/4 ـ 370)، وسير أعلام النبلاء (193/17 ـ 197)، ووفيات الأعيان (72/1 ـ 74)، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي (61/4 ـ 74).

به رسول الـلـه صلى الـلـه عليـه وسـلم وحـي الرؤيـا، وجـوّز بعضـهم فيهـا التبعـيض، وهـو تكلف. وقال أبو عبد الـلـه القَزَّاز[1]: ليست الرؤيا من الوحي.

و«**مِنَ**» لبيان الجنس لا للتبعيض، نعم هي كالوحي في الصحة، وفيه نظر.

أما أولا: فلأن جعل من لبيان الجنس يقتضي صدق مـا بعـدها عـلى المبـين، وذلـك ينـافي سلب الوحي[2] عن الرؤيا، إلا أن يريد بالجنس المشابه وهو خلاف الاصطلاح.

وأما ثانيا: فنفيه الوحي عن رؤيا من ثبتت نبوته خلاف التحقيق.

ولا يقال: إنما نفي عنها الوحي لتقدمها على النبوة والإرسال، لأنـا نقـول: بـل بهـا وقعـت النبوة والإرسال.

ولهذا قال السهيلي[3]: أنواع الوحي سبعة:

---

(1) هو أبو عبد الـلـه محمد بن جعفر التميمي القيرواني المعروف بالقزاز، والقزاز نسبة إلى عمل القزّ، شـيخ اللغـة في المغرب، ألف كتاب الجامع في اللغة، وله كتاب تفسير غريب صحيح البخاري، تـوفي رحمـه الـلــه بـالقيروان سنة 412 هـ ـ 1021 م. له ترجمة في: سير أعلام النبلاء (326/17)، ووفيات الأعيان (374/4 ـ 376)، وبغية الوعـاة (71/1).

(2) نهاية الورقة (23/و).

(3) هو أبو القاسم وأبو زيد عبد الرحمن بن عبد الـلـه بن أحمد السهيلي المالقي، الإمام الحافظ المحدث النحـوي، صاحب التصانيف، تتلمذ على ابن العربي، دَرَّسَ وصنف واشتهر بكتابه الروض الأنـف في شرح السـيرة النبويـة، توفي رحمه الـلـه سنة 581هـ ـ 1185م. له ترجمة في: وفيات الأعيـان (143/3 ـ 144)، والـديباج (ص: 246 ـ 248)، وشجرة النور (156/1).

ـ الرؤيا لهذا الحديث، ولقوله تعالى: (افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ) [(1)].

ـ والنفث في الروع، لحديث «**إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رَوْعِي...**» الحديث[(2)].

ـ وإتيان الملك مثل صلصلة الجرس، وهذا أشده.

ـ وإتيانه رجلا كدحية[(3)]، وكان شديد الجمال.

ـ وإتيان جبريل في صورته بست مائة جناح ينتشر منها اللؤلؤ والياقوت.

---

(1) من قوله تعالى: (فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللـه مِنَ الصَّابِرِينَ) [سورة الصافات: 102]

(2) جزء من حديث ابن مسعود رضي اللـه عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللـه صلى اللـه عليه وسلم : «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَيْءٍ يُقَرِّبُكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ وَيُبْعِدُكُمْ مِنَ النَّارِ إِلاَّ قَدْ أَمَرْتُكُمْ بِهِ، وَلَيْسَ شَيْءٌ يُقَرِّبُكُمْ مِنَ النَّارِ وَيُبْعِدُكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ إِلاَّ قَدْ نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ، وَإِنَّ الرُّوحَ الأَمِينَ نَفَثَ فِي رُوْعِي أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ نَفْسٍ تَمُوتُ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا، فَاتَّقُوا اللـه وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، وَلاَ يَحْمِلْكُمَ اسْتِبْطَاءُ الرِّزْقِ عَلَى أَنْ تَطْلُبُوهُ بِمَعَاصِي اللـه، فَإِنَّهُ لاَ يُنَالُ مَا عِنْدَ اللـه إِلاَّ بِطَاعَتِهِ». أخرجه ابن أبي شيبة واللفظ له (79/7 رقم: 34332)، وعبد الرزاق في مصنفه (79/7 رقم: 34332)، والحاكم في مستدركه (5/2 رقم: 2136)، والقضاعي في مسند الشهاب (186/2 رقم: 1151)، والبيهقي في شعب الإيمان (299/7 رقم: 10376)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (67/7 رقم: 2866).

(3) هو الصحابي الجليل دحية بن خليفة بن فروة الكلبي، قال ابن حجر: «كان يضرب به المثل في حسن الصورة، وكان جبرائيل عليه السلام ينزل على صورته، جاء ذلك من حديث أم سلمة ومن حديث عائشة، وروى النسائي بإسناد صحيح عن يحيى بن معمر عن ابن عمر رضي اللـه عنهما كان جبرائيل يأتي النبي صلى اللـه عليه وسلم في صورة دحية الكلبي»، وعاش رضي اللـه عنه إلى خلافة معاوية رضي اللـه عنه. له ترجمة في: الإصابة في تمييز الصحابة (384/2)، وتهذيب التهذيب (179/3).

ـ والتكليم يقظة من وراء حجاب كما في حديث الإسراء، وفي المنام لحديث الترمذي: **«أَتَانِي رَبِّي فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ، فَقَالَ: فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى...»** فذكر الوضوء عند الكريهات، ونقل الأقدام، وانتظار الصلاة[1].

السابع: صَحَّ عن الشعبي[2] من طُرُقٍ **«أَنَّ إِسْرَافِيلَ وُكِّلَ بِهِ صلى الله عليه وسلم ثَلَاثَ سِنِينَ يَأْتِيهِ بِالْكَلِمَةِ وَالشَّيْءِ مِنَ الْوَحْيِ، ثُمَّ جَاءَهُ جَبْرِيلُ بِالْقُرْآنِ»**[3].

---

(1) جزء من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أَتَانِي اللَّيْلَةَ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ، قَالَ: أَحْسَبُهُ قَالَ فِي الْمَنَامِ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ هَلْ تَدْرِي فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟ قَالَ: قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَوَضَعَ يَدَهُ بَيْنَ كَتِفَيَّ حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَهَا بَيْنَ ثَدْيَيَّ، أَوْ قَالَ: فِي نَحْرِي، فَعَلِمْتُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، هَلْ تَدْرِي فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فِي الْكَفَّارَاتِ، وَالْكَفَّارَاتُ الْمُكْثُ فِي الْمَسَاجِدِ بَعْدَ الصَّلَوَاتِ، وَالْمَشْيُ عَلَى الْأَقْدَامِ إِلَى الْجَمَاعَاتِ، وَإِسْبَاغُ الْوُضُوءِ فِي الْمَكَارِهِ...». أخرجه أحمد (368/1 رقم: 3484)، والترمذي واللفظ له (367/5 رقم: 3234) وقال: حسن غريب، وعبد بن حميد في المنتخب (ص: 228 رقم: 682)، وصححه الألباني .

(2) هو أبو عمرو عامر بن شرحبيل الحميري الشعبي الكوفي من أعلام التابعين، روى عن أبي هريرة وعائشة وابن عباس وجرير وغيرهم، قال: أدركت خمسمائة من الصحابة، توفي رحمه الله سنة 104هـ ـ 722م، و قيل: سنة 107هـ ـ 725م. له ترجمة في: الجرح والتعديل (322/6 ـ 324)، وحلية الأولياء (310/4 ـ 338)، وسير أعلام النبلاء (294/4 ـ 319).

(3) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (190/1 ـ 191)، والطبري في تاريخ الأمم والملوك (573/1)، وهو من مراسيل عامر الشعبي. قال ابن كثير في السيرة النبوية (388/1): «هذا إسناد صحيح إلى الشعبي». ونصه كما في دلائل النبوة للبيهقي: «عن عامر قال: نزلت عليه النبوة وهو ابن أربعين سنة، فقرن بنبوته إسرافيل ثلاث سنين، فكان يعلمه الكلمة والشيء ولم ينزل =

والرؤيا خبر أول.

والصالحة: قيل هي الحسنة، وقيل: هي الصادقة، وقد رويت كذلك في التفسير[1] والتعبير[2]، فإن أريد بالحسنة الصادقة وهو أحسن للتصريح به في رواية على ما سبق الآن فلا إشكال، وإن أريد بها السارة للرائي فبينها وبين الصادقة عموم وخصوص من وجه، فقد تكذب السارة وتصدق الضارة.

وتفسير الحسنة بالضارة قد لا ينضبط لأنه نسبي، إلا أنه أمر يدرك في الحال باعتقاد الرائي نفعها، وتفسيرها بالصادقة لا ينضبط أيضا ولا يعلم إلا في المآل.

هذا كله[3] بالنسبة إلى الرؤيا على الجملة، وأما رؤيا الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم فصادقة قطعا يستحيل عليها التخلف لاستحالة تسور الشيطان على رفيع مقامهم يقظة ونوما.

القرآن، فلما مضت ثلاث سنين قرن بنبوته جبريل عليه السلام، فنزل القرآن على لسانه عشرين: عشرا بمكة، وعشرا بالمدينة، فمات وهو ابن ثلاث وستين صلى الله عليه وسلم ». وقال ابن سعد في الطبقات بعد أن ذكره: «فذكرت هذا الحديث لمحمد بن عمر فقال: ليس يعرف أهل العلم ببلدنا أن إسرافيل قرن بالنبي صلى الله عليه وسلم، وإن علماءهم وأهل السيرة منهم يقولون: لم يقرن به غير جبريل من حين أنزل عليه الوحي إلى أن قبض صلى الله عليه وسلم ».

(1) أي: في كتاب التفسير من صحيح البخاري (531/2 رقم: 4953) و (532/2 رقم: 4956).

(2) أي: في كتاب التعبير، باب أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة، (355/3 رقم: 6982).

(3) نهاية الورقة (23/ظ).

وقال المارزي في سبب بدئه صلى اللـــه عليـه وسـلم بالرؤيـا الصـادقة: بُـدِئَ بـذلك؛ لأن فُجَاءة الملك وصريح الوحي لا تطيقه القوى البشرية، وليأنس ويسـتعد لعظـيم مـا أريـد بـه حتى لا يأتيه الملك إلا بأمر عنده مقدماته.

ومنه ما كان يراه صلى اللـه عليه وسلم قبل النبوة من الآيات العظام كتظليـل الغمامـة وتسليم الأحجار والأشجار وغير ذلك مما لا ينحصر.

قولها: «**فِي النَّوْمِ**» ذكر احتراسا ودفعا لتوهم غير المراد، لأن الرؤيـا قـد يتجـوز بهـا لرؤيـة العين في اليقظة.

وقولها: «**وَكَانَ لاَ يَرَى رُؤْيَا إِلاَّ جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ**» هذا مما يقـوي تفسـير الصـالحة بالصادقة، ويكون من العطف التفسيري.

وفلق الصبح، هو انصداع الفجر وتبين النهار من الليل، ولهذا يقال: فرق أيضا لانفـراقهما أيضا.

ووجه التشبيه بينه وبين رؤيا النبي صلى اللـه عليه وسلم يحتمل أمورا:

أحدهما: أن يكون معناه وضوح الرؤيـا حـين يراهـا وهـو نـائم كوضـوح فلـق الصـبح لا تخليط فيها كما في رؤيا غيره، بل يراها في النوم كما يراها في اليقظة.

وفاعل «**جَاءَتْ**» على هذا ضمير الرؤيا، وفي ذكر الصبح مع الفلق توكيد التشبيه.

الثـاني: أن يكـون في وضـوح مطابقـة المناميـة لمثالهـا الواقـع في اليقظـة، أي: لا شـك

.... [1] وقع في اليقظة مثل المرئي في النوم، كما لا شك في فلق الصبح.

الثالث: أن يكون في صدقها وعدم التخلف عنها، وهو قريب من الذي قبله.

وفاعل «**جَاءَتْ**»[2] فيهما على حذف مضاف، أي مثالها أو صدقها، من مجاز الحذف، ومثل حال أو خبر جاءت من أخوات كان إن لم يكن موقوفا على السماع في نحو: ما جاءت حاجتك، والمعنى إلا صارت، أي مآل أمرها مثل فلق الصبح.

تنبيهات:

الأول: في التشبيه بفلق الصبح دون ضوء الشمس وإن كان أقوى مناسبات:

ـ **منها:** أن الرؤيا ابتداء أنوار النبوة، فكانت كالفلق الذي هو ابتداء ضياء النهار.

ـ **ومنها:** أنه نور تتبين به الأشياء من غير إذاية شعاع ولا حرّ، ويسهل تناوله، حتى قيل: إن ضوء الجنة كضوء الإسفار بخلاف الشمس، وهذا كما وجه به وصفه صلى الله عليه وسلم بكونه سراجا منيرا[3].

ومنها: أنه أول تمييز نور الحق من ظلمة الباطل، كما أن الفلق أول بياض النهار من سواد الليل.

---

(1) قد يكون ما كُتب في الهامش: أن ما .

(2) نهاية الورقة (24/و).

(3) جاء وصفه صلى الله عليه وسلم بذلك في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللـه بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا) [سورة الأحزاب: 45 ـ 46].

ومنها: الإشارة إلى النعمة العظمى والرحمة الكبرى، وهي الإخراج من سواد الكفر والتخلص من حيرة الخبط في ظلمة الجهل إلى نور الإيمان، والهداية إلى الصراط المستقيم.

قلت: ومنها التنبيه على شرف رؤياه صلى الله عليه وسلم والاعتناء بها، كما اعتني بهذا الوقت حتى جعل محلا للصلاة الوسطى والمواهب الجسام، وناديا للملأ الأعلى والملائكة الكرام صلوات الله وسلامه على نبينا وعلى سائر النبيين والملائكة أجمعين، قال تعالى: (إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا) [1].

وفي الحديث الصحيح: «**يَتَعَاقَبُونَ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الفَجْرِ وَصَلَاةِ العَصْرِ...**»[2].

ومنها: الإشارة إلى نمو أنوار المعارف بعد رؤياه صلى الله عليه وسلم وتزايدها شيئا بعد شيء إلى أن وصلت غاية الكمال[3].

ومنها: الإشارة إلى أن هذا الوقت وهو زمن رؤياه صلى الله عليه وسلم، حان فيه التيقظ من رقدة الغفلات، والتنبّه مما استرسلت فيه النفس من لذيذ الشهوات، والنهوض لإجابة الله ورسوله وحلّ عُقد الشيطان بتطهير الظاهر

---

(1) [سورة الإسراء: 78].

(2) متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه. أخرجه البخاري (131/1 رقم: 555 وأطرافه في: 3223، 7429، 7486)، ومسلم (439/1 رقم: 632).

(3) نهاية الورقة (24/ظ).

والباطن باتباعه صلى اللـه عليه وسلم في مفعوله ومقوله.

الثاني: مما يناسب إشارات التشبيه بفلق الصبح ما ذكره بعض الشيوخ من الإشارة في قسم اللـه جلّ وعلا بالفجر، والضحى، والليل، وما معها من السور، فقال: إن اللـه تعالى أقسم بالفجر ولعله إشارة إلى ابتداء نور نبوته صلى اللـه عليه وسلم، ثم تزايد مدة بقائه في مكة ولم يبلغ إلى أن يظهر فيها كالضحى لاستيلاء الكفر، ولولا كونه صلى اللـه عليه وسلم والمؤمنون فيهم لأهلكوا لمخالفتهم ما هو كفلق الصبح من الحق، ولهذا عقبت السورة بالبلد وهو فيه، وسُلِّيَ صلى اللـه عليه وسلم عن ما شق عليه من مخالفتهم بسبق القضاء بخلق الإنسان في كبد.

ومنه مقاساة مشقة الوحي، ثم لما تكامل ضوء النبوة كضوء الضحى حين هاجر إلى المدينة وتمكن من إقامة الدين كإقامة النهار، أقسم بالشمس وضحاها إشارة لذلك،(وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا) إلى أنوار الخلفاء وسائر الصحابة والتابعين والعلماء الآخذين عنهم رضي اللـه عن جميعهم، حتى انتشر دين الإسلام في الأقطار كانتشار النهار، فأقسم بالنهار إذا جلّاها، وجاء (وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا) إشارة إلى نقص الدين بعد الكمال بدخول ظلمة الابتداع كغشيان الليل ضوء الشمس الذي كان متمكنا حتى يعود الأمر إلى ما كان، «**بَدَأَ الإِسْلَامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ**»[1].

(1) الحديث مروي عن أبي هريرة رضي اللـه عنه، أخرجه مسلم (130/1 رقم: 145)، وابن ماجه (1319/2 رقم: 3986)، وأبو يعلى (52/11 رقم: 6190).

ولهذا بكى عمر أو أبو بكر[1] رضي اللـه عنهما[2] حين نزل (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ) [3]، وقال: ليس بعد الكمال إلا النقصان»[4]، ولذلك خلق هذا العالَم (إِنَّ رَبَّكُمُ اللـه..) إلى قوله تعالى: (يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَار..) إلى (أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ..) [5]، ونتيجة هذا الأمر ومقصوده جواب القسم (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) [6].

قال: وهذا المعنى الذي لاح لي من سورة (وَالْفَجْر)، كأنه لما قرب الختم أشير إلى ضبط معاني القرآن والدين من حين ابتدائه إلى انتهائه كالفذلكة والنتيجة وضبط الأمور وتقريبها لمن رُزِقَ الفهم، وهو مطرد إلى آخر الجنة والناس[7]،

(1) نهاية الورقة (25/و).

(2) كذا ذكر بالشك عن عمر أو أبي بكر رضي اللـه عنه، والمروي عن عمر رضي اللـه عنه.

(3) [سورة المائدة: 3].

(4) الحديث مروي عن عمر بن الخطاب رضي اللـه عنه، أخرجه الطبري في التفسير (519/9 رقم: 11083 و 11084)، وابن نصر في تعظيم قدر الصلاة (351/1 رقم: 352)، قال الحافظ ابن كثير في السيرة النبوية (427/4): «وروينا من طريق جيد أن عمر بن الخطاب حين نزلت هذه الآية بكى».

(5) من قوله تعالى: (إِنَّ رَبَّكُمُ اللـه الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللـه رَبُّ الْعَالَمِينَ) [سورة الأعراف: 54].

(6) [سورة الشمس: 9 ـ 10].

(7) أي: إلى آخر سورة الناس عند قوله: (مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ).

فتتبعه توفّق إلى الاطلاع عليه إن شاء الـلـه تعالى، ومن ضوابطه وهو الإشـارة إلى المـآل (إِذَا زُلْزِلَتِ) [1] وخاتمتها.

(ص): «**ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الخَلَاءُ**» إلى قوله: «**وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ**».

(ش) أقول: أسند «**حُبِّبَ**» إلى المفعول اختصاراً للعلم، بأن لا فاعـل إلا الـلــه جـل وعـلا، وإنما لم تقل: أحب الخلاء وإن كان أخص، لما في الأول من التنبيه على عظيم اعتناء الـلــه بـه في تخصيصه بأشرف مقام من الانقطاع إليه بالعبادة وعـدم الخـوض فـيما عليـه طبـاع أهـل الأرض في ذلك الزمان، فاعتناؤه جل وعلا بنبيه صلوات الـلـه وسلامه عليه هـو الـذي خلصـه من طباع أبناء جنسه من المخلوقات، حتى لم تكن له همة إلا في طاعته جلا وعـلا، والتقـرب إليه بلذيذ المناجاة لا سيما إن قلنا: إن خلوه للعبادة بغار حراء كان قبل الإيحاء إليه كما هو ظاهر كلام أهل الأصول، ففيه من القرابة وعظيم التشريف له صلى الـلـه عليـه وسـلم مـا لا يخفى، وعلى هذا يكون العطف بـ «**ثُمَّ**» لترتيب الأخبار لا للمهملة في الزمان، وأوتي بـ «**ثُمَّ**» للتنبيه على تفاوت ما بين هذا المقام والمقام الأول، لأن المقام الأول وقـع فيـه الإيحـاء نومـا، وهذا[2] المقام وقع فيه الإيحاء يقظة.

وقال بعضهم: حذف الفاعل لعدم تحقق الباعث على ذلك وإن كان كل من عنـد الـلــه، أو لينبه على أنه ليس من باعث البشر، أو لكونه من وحي الإلهام.

---

(1) من قوله تعالى: (إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا) [سورة الزلزلة: 1].

(2) نهاية الورقة (25/ظ).

واعترض عليه بأن عدم تحقق الباعث وهو العلة الحاملة على الفعل لا يناسب حذف الفاعل، ولا ملازمة بينهما إلا إن أريد بالباعث الفاعل، ولا يليق عدم تحققه بعائشة رضي الله عنها حين الإخبار.

وقوله: «أو لينبه» هو معنى العلم به والثالث لا يباينه، فكيف جعله قسيما له.

وفعّل هنا للصيرورة، أي صيّر الخلاء إليه حسبًا، أو لجعل الشيء بمعنى ما صيغ منه، وإنما قصد صلى الله عليه وسلم بالعبادة الخلوة لأنها أجمع للفكر وأبعد من التشويش بما يرى من الموجودات أو يسمع من الأصوات، ولا يمكن توجه القلب إلى المطلوب على الكمال مع المزاحمات، ولذلك لم يكتف صلى الله عليه وسلم بالخلوة في الفضاء الخالي لاحتمال أن يرى من يمر به يوما ويكلمه فيتشوش، بل حتى أضاف إلى خلوة الفضاء خلاء غاره فانزوى إلى خلاء الخلاء حتى لا يرى ولا يُرى ولا يسمع ويُسمع.

فقولها: «**وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ**» إما عطف تفسيري لمجمل الخلاء، وإما عطف خاص على عام لكثرة خلوته بحراء، وباؤه للظرفية.

وحراء بكسر الحار وتخفيف الراء، يمد ويقصر، ويذكر فيصرف وهو الأكثر باعتبار المكان، ويؤنث فلا يصرف باعتبار البقعة كسائر أسماء الأماكن والبلدان.

وهو جبل على ثلاثة أميال من مكة عن يسار الذاهب منها إلى منى.

وقال الخطّابي: يلحنون فيه بضم حائه وهي مكسورة، وبقصره وهو ممدود، وبإمالته ولا تسوغ إمالته، لأن راءه مفتوحة سبقت الألف، وبتكررها تقوم مقام

المستعلي فلا تمال[1] نحو راشد ورافع.

وعن السهيلي: «حراء أحد جبال الحرم، وحين قال ثبير: اهبط عني يا رسول الله فإني أخاف أن تقتل على ظهري فأعذب بالنار، قال حراء: إليّ يا رسول الله»[2].

قال بعض الشيوخ: لعله يعني أن هذا كان حين هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، وأنه الغار الذي كَمَنَ فيه حتى تَأَتَّى له السفر.

وفيه نظر، لأن البخاري قال: غار ثور، وهو المناسب لطريق المدينة.

و «**يَتَحَنَّثُ**» آخره مثلثة، فسره في الأصل بالتعبد فيكون إدراجا.

وقيل: وهو من تفسير الزهري، ويدل عليه ما في التعبير من رواية يونس[3].

ويبعد كونه من تفسير عائشة رضي الله عنها، لأن عروة الذي خاطبته لا يحتاج إلى تفسيره.

وقال المازري[4]: «**يَتَحَنَّثُ**» أي يتعبد، قاله مسلم، فظاهره أنه من إدراج

---

(1) نهاية الورقة (26/و).

(2) الروض الأنف (398/1).

(3) جاءت روايته في كتاب التفسير (531/2 رقم: 4953) بلفظ: «فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ ـ قَالَ: وَالتَّحَنُّثُ التَّعَبُّدُ ـ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ العَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى أَهْلِهِ».

(4) المازري نسبة إلى مازرة، وهي جزيرة بصقيلية. وهو الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن علي بن عمر التميمي المازري، جمع بين الفقه والحديث، وبلغ رتبة الاجتهاد، من مصنفاته شرح صحيح مسلم، وشرح كتاب التلقين للقاضي عبد الوهاب، توفي رحمه الله سنة 536 هـ ـ 1142 م. له

مسلم، وهو بعيد؛ لأن البخاري قبل مسلم وقد نقله كذلك.

وإدخال الفاء في قوله: «**فَيَتَحَنَّثُ**» مشعرة بسببية الخلوة للتحنث، كأنها قالت: يخلو ليتحنث.

وقد اختلف الأصوليون هل كان صلى الله عليه وسلم متعبدا قبل البعث بشرع أم لا؟

وعلى المنع، هل عقلا أو نقلا؟

وعلى الثبوت، هل بشرع نوح أو إبراهيم أو موسى أو عيسى، أو ما ثبت أنه شرع من غير تعيين؟ أقوال[1].

والمختار أنه متعبد بعد البعث بما لم ينسخ.

وقيل: لا، واختاره بعضهم كما اختار في المسألة الأولى الوقف.

وقال بعض الحذاق: الصواب فيما قبل البعث أن يضبط متعبِّد بكسر الباء، إذ لم يكلف قبل البعث، وفيما بعده بفتحها.

قال بعض الشيوخ: وهذا يتم على ثبوت الفترة وتخصيص الشرائع بأهلها،

ترجمة في: سير أعلام النبلاء (104/20 ـ 107)، ووفيات الأعيان (285/4)، والديباج (ص: 374 ـ 375)، وشذرات الذهب (114/4)، وشجرة النور(127/1).

(1) انظر هذه الأقوال في: الإحكام للآمدي (145/4)، والمحصول للرازي (397/3)، والبحر المحيط (346/4)، وكشف الأسرار (315/3)، والإبهاج في شرح المنهاج (275/2)، وإرشاد الفحول (177/2).

وأما على نفيها على ما اختار ابن عطية[1] وغيره، وأن التكليف بالأصول باق من لـدن آدم إلى يوم القيامة، وبآخر ما لم ينسخ من الشرائع، فيصح الفتح بل متعين، للإجماع على أنه لا يقدم على فعل إلا بعلم الحكم فيه وخلافه معصية، لأن الأحكام شرعية لا عقلية وهم معصـومون شرعا وإجماعا عند قوم وعقلا عند آخرين، والمسألة أصلية لا تختلف فيها الشرائع فلـيس إلا الفتح فيما بعد وفيما قبل أيضا، وعلى هذا فإيمان الرسل قبل البعـث بـالتكليف ويظهـر مـن كلام عياض أنه بإلهام.

قلـت: وهـو الظـاهر لا سـيما في حـق نبينـا صـلى اللـــه عليـه وسـلم، لتنـاسي أمـر الشرائـع في ذلـك الزمـان، ولم يكـن منهـا الـبعض إلا عنـد الأفـراد مـن الأحبـار والرهبـان، ولم يعلـم لـه صـلى اللـــه عليـه وسـلم مخالطـة لأحـد ممـن ينسـب لـذلك، ولا كـان يتطلــب ذلــك ويبحــث عــن أهلــه كــما روي عــن ســلمان الفــارسي[2] وقُــس بــن

---

(1) هو أبو محمد عبد الحق بن أبي بكر غالب بن عبد الـرحمن بـن عطيـة المحـاربي الأنـدلسي، كـان فقيهـا واسـع المعرفة، عالما بالتفسير والحديث، وملما باللغة والشعر، من مصنفاته تفسيره المسمى بـالمحرر الـوجيز في شرح كتاب اللـه العزيز، توفي رحمـه اللـــه سـنة 541هــ ـ 1147م. لـه ترجمـة في الـديباج (ص: 275 ـ 276)، وبغيـة الوعاة (73/2 ـ 74)، وشجرة النور (129/1).

(2) هو الصحابي الجليل أبو عبد اللـه سلمان الفارسي ويعرف بسلمان الخير مولى رسول اللـه صـلى اللـــه عليـه و سلم، سئل عن نسبه فقال: أنا سلمان بن الإسلام، صحب النبي صلى اللـه عليـه وسـلم وخدمـه وحـدث عنـه، توفي رضي اللـه عنه سنة 36هـ ـ 656م. له ترجمة في: حلية الأولياء (185/1 ـ 208)، والإصـابة في تمييـز الصـحابة (141/3)، وسير أعلام النبلاء (505/1 ـ 558).

ساعدة[1] وغيرهما، ولا كان يعرف الكتابة حتى يقال: لعله استغنى ببعض الكتب عـن تطلـع ما عند أهلها (وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُـونَ) [2]، بـل أغناه مولانا الكريم جل وعلا عن جميع ذلك وفطره من أول أمـره خَلْقًـا وخُلُقًـا عـلى غايـة الكمال، وجعله نورا كله وشمسا لامعة فلا مطمع أن تحل بساحته ظلمات الجهـل ووسـواس أهل الضلال.

وقدر روي أنه حين وضعته أمه خرّ ساجدا لله جل وعلا وشخص ببصره إلى السماء، والأمر في ذلك بحر يغرق في أدناه عقول البشر على أن معرفته جـل وعـلا والإيمـان وهـو التصـديق تابع لها تدركه العقول ولا تتوقف في حصولها على الشرع المنقول، ومن تولى الرب جلا وعـلا في مبدإ الأمر سياسته وزين بأنواع الكمالات علانيته وسريرته وطهره من الصفات البشرية في أول النشأة باطنه الزّكي الكريم بماء الحضرة المرفقة ماء النعيم، وملأ قلبـه الشريـف وعروقـه إيمانا وحكمة، وختم عـلى تلـك الـذخائر والنفـائس بخـاتم مالـك الملـك، فـما أعظمـه وأعـزّ ختمه، أتـرى يحتـاج بعـدها في الهدايـة والمعرفـة إلى شيء، وقـد صـار لـه الإيمـان والحكمـة المشتملة على ما لا يعلمه إلا الـلـه من أنواع المعارف كالطبيعـة الجسـمانية، وصـار في ذلـك

(1) هو قُسّ بن ساعدة الإيادي، كان من حكماء العرب وأشهر خطبائها وأعقل من سمع به مـنهم، وأول مـن قـال: أما بعد، وأول من خطب وهو متكئ على عصا، وأول مـن آمـن بالبعـث مـن أهـل الجاهليـة مـن غـير علـم، وضُرِبَ المثل بخطابته وبلاغته، توفي نحو 23 قبل الهجرة ـ 600م. له ترجمة في: الإصـابة (551/5 ـ 553)، والأغـاني (236/15 ـ 241)، والأعلام (196/5).

(2) [سورة العنكبوت: 48].

كالملائكة الذين قوام ذواتهم بذكر الله تعالى وعبادته، فباطنه صلوات الله وسلامه عليه ملكي وظاهره بشري، ولعل قوله في حديث الوصال: «**أَبِيتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي**»[1]، إشارة إلى ذلك ولهذا لم يكن ارتياحه صلى الله عليه وسلم إلا لعبادة ربه كان بها قوام ذاته «**وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاَةِ**»[2]، «**أَرِحْنَا بِهَا يَا بِلاَلُ**»[3].

وبالجملة: فالمسألة مبسوطة في علم الأصول، وقد أومأنا إلى نكتة لم يفصحوا بها وبالله سبحانه التوفيق.

وقولها: «**اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ العَدَدِ**» ظرف لـ «**يَتَحَنَّثُ**» لا للتعبد، والإلزام أن يكون قيدا في تفسير التحنث لغة، وليس ذلك مشروطا في معناه، بل هو التعبد مطلقا، وهي جمع كثرة، فتكون عشرة فما فوقها، وإن استعمل لمطلق الجمع أو للقلة دخله خلاف أقل الجمع.

---

(1) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. البخاري (428/1 رقم: 1965)، ومسلم (774/2 رقم: 1103).

(2) حديث صحيح، وهو مروي عن أنس رضي الله عنه. أخرجه أحمد (128/3 رقم: 12315)، والنسائي (61/7 رقم: 3939)، والحاكم (174/2 رقم: 2676)، وصححه ابن حجر في الفتح (345/11).

(3) حديث صحيح. أخرجه أحمد (364/5 و 371 رقم: 23137 و 23202)، وأبو داود (296/4 رقم: 4985 و 4986)، والطبراني في الكبير (277/6 رقم: 6215)، وأبو بكر الشيباني في الآحاد والمثاني (359/4 رقم: 2396). ولفظه كما عند أبي داود عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الجَعْدِ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: ــ قَالَ مِسْعَرٌ: أُرَاهُ مِنْ خُزَاعَةَ ـ لَيْتَنِي صَلَّيْتُ فَاسْتَرَحْتُ، فَكَأَنَّهُمْ عَابُوا عَلَيْهِ ذَلِكَ، فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «يَا بِلاَلُ، أَقِمِ الصَّلاَةَ، أَرِحْنَا بِهَا».

وقولها: «**ذَوَاتِ العَدَدِ**» وصف تأكيدي للزوم العدد الجمع، وأبهمت هذا العدد إما مع العلم رفقا بالناس لئلا يلتزموا الخلوة في مثل ذلك العدد، وإما لعدم انضباطه بالزيادة والنقصان.

ويحتمل أن يكون الوصف بذوات العدد تأسيسي للدلالة على كثرة هذه الليالي، إذ الكثير هو الذي يهتم بشأنه حتى يعد، ويقويه التزود لها، ولا يكون غالبا إلا مع بُعْدِ الغيبة، ويحتمل ضد ذلك وهو التنبيه على قلتها، لأنه الذي يُعَدُّ عادة والكثير يعسر عَدُّه، ولهذا يعبر عنه بكونه لا يحصى ونحو ذلك، ونظيره في هذا المعنى ما قيل في قوله تعالى: (وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ) [1]؛ وفي السيرة[2] أن ذلك العدد شهر رمضان وهو يناسب المعنى الأول.

وقولها: «**قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ**» معمول ليتحنث، ومعناه أن تعبده هنالك الليالي كان متصلا لم يتخلله رجوع إلى أهله حتى يستكملها بالعبادة.

ويحتمل أن يكون حالا من فاعل «**يَتَحَنَّثُ**»؛ أي مقيما فيها مواصلا للعبادة قبل، أو من الليالي، أي متصلة أو مكملة قبل، أو صفة لها لأن تعريفها باللام الجنسية، أو يتعلق بمحذوف، أي ويواصلها قبل.

وربما أخذ منه أن من نوى اعتكاف أيام ودخل فيها وجب عليه تمام المنوي ومواصلته كما هو مذهب مالك.

---

(1) [سورة يوسف: 20].

(2) انظر ذلك في: سيرة ابن هشام (68/2)، والسيرة النبوية لابن كثير (402/1).

و«**يَنْزِع**» بكسر عين المضارع وفتح الماضي كيرجع وزنًا ومعنًى.

الجوهري: «نزعته من مكانه أنزعه نزعا قلعته، ونزع إلى أهله ينزع نزاعا اشتاق، وناقته نازع حنت إلى أوطانها ومرعاها، ونزع عن الأمر نزوعا»[1]. انتهى

ونزع إلى أبيه في الشبه.

قولها: «**وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ**» أي: لليالي، واللام للبيان، أو شبه الملك، أو التعليل.

قولها: «**ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ**» يحتمل أن تكون هي التي كَنَّتْ عنها أولا بالأهل، ويحتمل أن تكون أخص منهم، وتكون عينت هنا خديجة رضي الله عنها؛ لأن حَمْلَ زَادِهِ لم يكن إلا من عندها، والرجوع أولا كان لها ولغيرها فلذاك عبرت هناك بالأهل.

قولها: «**فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا**»، يحتمل أن يكون رجوعه صلى الله عليه وسلم لها للزاد فتكون الفاء سببية، وقوة الكلام تعطي أنه لم يقض وطره من عدد الليالي التي نواها، لأنه إنما رجع للزاد لفراغ ما حمل أولا منه لدلالة الفاء على السببية والتعقيب، فيؤخذ منه خروج المعتكف لحوائجه من طعام وغيره ولا يبطل ذلك اعتكافه إن لم يكن من يكفيه ذلك.

لا يقال: يرد هذا الوجه أولا ويتزود لذلك، فإن ظاهره التزود لجميعها، فهذا غيبة أخرى.

ويؤيد أيضا قولها: «**لِمِثْلِهَا**»، وإلا كانت تقول: لباقيها، فلا يؤخذ منه خروج

---

(1) انظر مادة: **نزع**، في الصحاح في اللغة (1289/3).

المعتكف لما ذكر؛ لأنّا نقول: قد تكون الإشارة بذلك لمطلق الغيبة أو التعبد لا لعدد الليالي.

سلمناه لكن قد يعتقد أن ذلك كان فيه فيخرج الأمر بخلافه، أو يكون لم يقدر على حمل جملة ما أعد لجميعها، فحمل ما يقدر عليه منها ثم رجع للباقي، ويكون معنى «**لِمِثْلِهَا**» أي: لمثل عدد باقيها.

ويحتمل أن تكون الفاء فصيحة، أي يرجع إلى خديجة فيقيم عندها ثم يعزم على تعبد ليال أيضا مثل الأولى فيتزود لذلك المثل، فيكون هذا كآخر قولي مالك،

ورواية ابن نافع[1] أنه لا يخرج لشراء طعام ولا غيره، ولا يدخل معتكفه حتى يعد ما يكفيه حتى لا يخرج إلا لحاجة الإنسان، وإن اعتكف غير مكفي جاز له الخروج[2].

قولها: «**حَتَّى جَاءَهُ الحَقُّ**»، قيل: معناه مثل الحق الذي جاءه في النوم.

فـ«ال» للعهد من غير تقدير، وإنما المجاز في إطلاق الحق عليه إما بمعنى ذو الحق أو المحق أو رسول الحق، ويكون الحق من أسماء الله، وإما أن يجعل نفس الحق

---

(1) هو الإمام أبو محمد عبد الله بن نافع مولى بني مخزوم المدني، المعروف بالصائغ، أحد أئمة الفقه والفتوى بالمدينة، تفقه بمالك وصحبه أربعين سنة، وسمع من ابن أبي ذئب وابن أبي الزناد وغيرهما، وعنه أخذ سحنون، خرج له الستة سوى البخاري، توفي رحمه الله سنة 186هـ ـ 802م، وقيل سنة 206هـ ـ 821م وصححه الذهبي. له ترجمة في: الطبقات الكبرى لابن سعد (438/5)، وترتيب المدارك (356/1 ـ 358)، وسير أعلام النبلاء (371/10 ـ 374).

(2) انظر: التمهيد (327/8)، والذخيرة (535/2).

مبالغة، أو المعنى الحق الذي لا يتطرق إليه تأويل من حذف الصفة للعلم بها.

وفي التفسير[1] «**حَتَّى فَجِئَهُ الحَقُّ**» أي: أتاه بغتة.

قال بعض الشيوخ: وهذه البغتة إنما هي باعتبار اليقظة، لأنه لم يعهد قبل مجيئه فيها، وإلا فقد تقدم مجيئه إياه في النوم كما سبق.

وفَجِئ ـ بكسر الجيم في الماضي وفتحها في المضارع ـ وقد يقال أيضا بفتحها فيهما، والمصدر فُجاء ـ بضم الفاء والمد ـ

والصحيح أنه صلى الله عليه وسلم بعث على رأس الأربعين من مولده عام الفيل[2].

وقيل: أربعين وشهرين.

والأعم بعث الأنبياء صلوات الله وسلامه على جميعهم بعد الأربعين، لأنها بلوغ الأشد.

وقيل: أرسل يحيى وعيسى عليهما السلام صبيّين.

ابن العربي[3]: يجوز ولم يقع، وقول عيسى (إِنِّي عَبْدُ الله) إلى آخره إخبار عما

(1) أي: في كتاب التفسير من صحيح البخاري، (531/2 رقم: 4953).

(2) انظر ذلك في: السيرة النبوية لابن هشام (64/2)، والسيرة النبوية لابن كثير (385/1)، والسيرة الحلبية (362/1).

(3) هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد المعافري الإشبيلي، المعروف بابن العربي، الإمام الحافظ، كان بحرا في الفقه والأصول والتفسير والحديث والعربية، توفي رحمه الله بفاس سنة 546هـ 1151م. له ترجمة في: سير أعلام النبلاء (197/20 ـ 204)، ووفيات الأعيان (296/4 ـ 297)،

وجب له لا عما حصل[1].

واسْتُشْكِلَ جواز بعث الصبي بأنه تكليف وشرطه البلوغ إن كانت الشرائع فيه سواء.

وأجيب بأن جواز إرساله لا يقتضي وجوب التبليغ عليه كحجه وصلاته وصيامه وغيرها، ولئن سلم، فليس من تكليف ما لا يطاق، ولئن كان منه فهو جائز عند السني، والذي أراد ابن العربي الجواز الفعلي ولا نزاع فيه.

قولها: «**فَجَاءَهُ المَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ**»، هذه الجملة بيان لكيفية مجيء الحق، وهذا الأمر يحتمل أن يكون للفور فيكون فيه حجة للأشعري[2] في صحة تكليف ما لا يطاق وقوعه، إن كانت هذه السورة أول ما نزل من القرآن ولم ينزل قبلها شيء.

ولقائل أن يقول: القرآن لما جاء به جبريل عليه السلام وهو معه فتعلمه منه ممكن وليس محالا لذاته ولا لغيره، وهذا هو الإمكان المشترط في التكليف، وقد اختلف أهل الأصول في الناسخ قبل تبليغه عليه الصلاة والسلام، هل يثبت

والديباج (ص: 376 ـ 378)، وشجرة النور (136/1 ـ 138).

(1) انظر أحكام القرآن لابن العربي (248/3).

(2) هو الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق الأشعري، كان متكلما نظارا، قائما بنصرة مذهب أهل السنة، صنف كتبا كثيرة منها: اللمع، والرد على المجسمة، وإيضاح الأصول، ومقالات الإسلاميين، توفي رحمه الله سنة 334هـ ـ 946م. له ترجمة في: تبيين كذب المفتري (ص: 128 و 140)، وسير أعلام النبلاء (85/15 ـ 90)، ووفيات الأعيان (284/3 ـ 286)، والديباج (ص: 293 ـ 294).

حكمه أوْ لاَ؟

ومختار ابن الحاجب[1] وغيره ثبوته، والنبي صلى الله عليه وسلم مع جبريل عليه السلام كالأمة مع النبي.

ولأن الوجوب إذا ثبت شرعا لم يشترط علم المكلف به، بل تمكنه من العلم به، وفيه نظر بيّن، فإن الغرض أن الأمر للفور ولا تراخي فيه أصلا، فلا تمكن من العلم ولا من التعلم.

وقد يقال: إن الأمر للتراخي أو لا يقتضي أمرا ولا تراخي، وهو مختار ابن الحاجب، أو إنما أمره أن يقرأ في المستقبل ما يلقيه إليه بعد سماعه إياه وفراغه، ومن هنا يقال: ليس فيه تأخير البيان عن وقت الحاجة الممتنع إلا عند من يجوِّز تكليفَ ما لا يطاق، بل إلى وقت الحاجة الجائز عند الأكثر، ولا تأخير فيه أصلا لاتصال الوقت وقربه.

وأما إن كان نزل شيء من القرآن قبل هذه السورة، فيحتمل صرف الأمر إليه، ويكون تكليفا بالممكن؛ أي: اعرض عَلَيَّ ما حصل لك من القرآن.

---

(1) هو جمال الدين أبو عمرو عثمان بن عمر بن أبي بكر المعروف بابن الحاجب، الفقيه المالكي المجتهد، والأصولي المحقق، والمتكلم النظار، واللغوي الأديب، صاحب التصانيف المشهورة كالمختصر الفرعي في الفقه، والمختصر الأصولي في أصول الفقه، والشافية في الصرف، والكافية في النحو، ولد بمصر سنة 570 هـ ـ 1174 م، وتوفي رحمه الله سنة 646 هـ ـ 1248م. له ترجمة في: سير أعلام النبلاء (264/23 ـ 266)، ووفيات الأعيان (248/3 ـ 250)، والديباج (ص: 289 ـ 291)، وشجرة النور (167/1 ـ 168).

ويحتمل أن يكون أمرا بقراءة ما يقرأه الآن وهو: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ) [1]، وهو الظاهر، لأنه الذي ثبت آخرا فيعود البحث السابق.

وقد اختلف في أول ما نزل من القرآن، فقيل: (اقْـرَأْ بِاسْـمِ رَبِّـكَ)، لظاهر هذا الحديث، وهو قول عائشة رضي اللـه عنها وجماعة من المفسرين.

وقيل: ﮋ ﮬ ﮭ ﮊ[2]، وهو قول أبي سلمة بن عبد الرحمن، لحديث جابر بن عبد اللـه حسبما يأتي في التفسير إن شاء اللـه تعالى.

وقيل: نزل أولا من (اقْرَأْ) إلى (مَا لَمْ يَعْلَمْ) [3]، كما في الحديث، ثم نزل: (يَا أَيُّهَا الْمُـدَّثِّر)ُ [4]، **وقد يجمع بين القولين** بأن كلا أخبر بما اعتقد، وبأن الأولية أمر إضافي، فهذا الحديث دل على أن أوله نزولا بالإطلاق (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّـكَ) ، وحديث جابر على أن أوله نزولا بعدها وبعد فترة الوحي «المُدثر» و«المزمل»، وهو ظاهر من سياق هذا الحديث.

وقيل: أول ما نزل من الأمر بإنشاء القراءة (اقْرَأْ) ، ومن الأمر بإنشاء الإنذار «المدثر».

---

(1) [سورة العلق: 1].

(2) [سورة المدثر: 1].

(3) أي: قوله تعالى: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) [سورة العلق: 1 ـ 5].

(4) [سورة المدثر: 1].

وقيل: أول ما نزل: فاتحة الكتاب، وعزاه ابن عطية لأبي ميسرة عمرو بن شرحبيل[1]، والزمخشري[2] لأكثر المفسرين[3]، قال: ثم سورة القلم.

وقال القُرطبي[4]: «عن علي رضي الله عنه: أول ما نزل (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ) »[سورة الأنعام: 151] [5].

---

(1) هو أبو ميسرة عمرو بن شرحبيل الهمداني الكوفي من أعلام التابعين ومن العباد الأولياء، روى عن عمر وعلي وابن مسعود وحذيفة وآخرين، توفي رحمه الله سنة 63هـ ـ 683م. له ترجمة في: الجرح والتعديل (237/6 ـ 238)، وحلية الأولياء (141/4 ـ 147)، وسير أعلام النبلاء (135/4 ـ 136)، وتهذيب التهذيب (42/8 ـ 43).

(2) هو جار الله أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد الزمخشري النحوي المفسر، العلامة إمام اللغة والنحو والبيان بالاتفاق، له من التصانيف الكشاف في التفسير، والفائق في غريب الحديث، والمفصل في النحو، وأساس البلاغة، وغير ذلك، توفي رحمه الله سنة 538هـ ـ 1143م. له ترجمة في سير أعلام النبلاء (151/20 ـ 156)، ووفيات الأعيان (168/5 ـ 174)، وبغية الوعاة (279/2 ـ 280)، والجواهر المضية (160/2 ـ 161).

(3) انظر المحرر الوجيز (472/5)، والكشاف (781/4).

(4) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي الأندلسي القرطبي، قال الذهبي: «إمام متفنن متبحر في العلم، له تصانيف مفيدة تدل على كثرة اطلاعه ووفور فضله»، صنف الجامع لأحكام القرآن، والأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، والتذكرة بأحوال الموتى وأحوال الآخرة، توفي رحمه الله سنة 671هـ ـ 1273م. له ترجمة في: تاريخ الإسلام (74/50 ـ 75)، والديباج (ص: 406 ـ 407)، ونفح الطيب (210/2 ـ 212)، وشذرات الذهب (335/5)، وشجرة النور (197/1).

(5) انظر الجامع لأحكام القرآن (117/20).

قالوا: **والصحيح الأول**، وحديث جابر ليس بنص في الأولية كما سبق.

وعن أبي موسى: أول ما نزل: (اقْرَأْ) ، ثم (ن والقلم)، ثم (المدثر)، ثم (والضحى).

وعلى هذا الخلاف تنبني القولات في «مَا» من قوله صلى الله عليه وسلم: «**مَا أَنَا بِقَارِئٍ**»، هل هي نافية بناء على الراجح من أن (اقْرَأْ) هي الأولى، إذ لم يثبت بعد قرآن حتى تتناول سائر الكتب والأذكار والشعر، فقد يحسن الاستفهام.

وقيل: استفهامية.

قال بعض الشيوخ: وهو مرجوح، لبنائه على المرجوح، ولأن الباء إنما تزاد في الخبر مع النفي.

قلت: وقد يصح الاستفهام أيضا على القول الأول الراجح، إذ يلزم من الاستفهام تقديم العلم بالمستفهم عنه لا إجمالا ولا تفصيلا، بل تقدم الشعور به بوجه من الوجوه، وقد وجد الشعور به هنا للأمر به وإلا فهو مشترك اللزوم؛ لأن النفي حكم على القراءة، والحكم على الشيء فرع عن تصوره.

وما يجاب به ثَمَّ هو جوابنا هنا، ويقوي الاستفهام ما ورد في بعض الروايات أنه قال صلى الله عليه وسلم في المرة الثالثة: «**كَيْفَ أَقْرَأُ؟**»[1].

(1) قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (24/1): «ويؤيده أن في رواية أبي الأسود في مغازيه عن عروة أنه قال: «كَيْفَ أَقْرَأُ؟» وفي رواية عبيد بن عمير عن ابن إسحاق: «مَاذَا أَقْرَأُ؟»، وفي مرسل الزهري في دلائل البيهقي: «كَيْفَ أَقْرَأُ؟»، وكل ذلك يؤيد أنها استفهامية، والله أعلم».

وأما زيادة الباء بعد الاستفهام فالأمر فيها قريب، وقد قيل بزيادتها في الخبر في قوله[1]: [الوافر]

فَلَا تَطْمَعْ أَبَيْتَ اللَّعْنَ فِيهَا ... ومَنْعُكَهَا بِشَيْءٍ يُسْتَطاعُ

أي: شيء، وأجاز الأخفش[2] «زيد بقائم»، لقوله تعالى: (جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا) [3] أي: مثلها، وهذا إيجاب محض فكيف بالاستفهام القريب من النفي؟

وأورد بعضهم على النفي إشكالا من جهة علم المعاني فقال: قد تقرر في فن المعاني أن تقديم المسند إليه المعرف يفيد تخصيصه بالخبر الفعلي إن ولي حرف النفي، واسم الفاعل الماضي في هذا كالفعل فقوله صلى الله عليه وسلم: «**مَا أَنَا بِقَارِئٍ**» يقتضي أن هناك قارئا، غيره وهو باطل فإن القرآن عليه أنزل، فكيف يوجد عند غيره من الإنس قبل نزوله عليه؟

هذا إن حمل على إرادة قراءة القرآن ولا بد من ذلك، لأن أمره به هو الذي ظهر آخراً.

---

(1) قائله هو قُحَيط العِجْلي، ويقال: قائله رجل من تميم؛ انظر: خزانة الأدب (291/5).

(2) هو أبو الحسن سعيد بن مسعدة المجاشعي الأخفش الأوسط، البلخي ثم البصري، أشهر أئمة النحو البصريين وأحذق أصحاب سيبويه، قرأ النحو على سيبويه وكان أسن منه، من تصانيفه كتاب الأوسط في النحو، وكتاب تفسير معاني القرآن، وكتاب المقاييس في النحو، توفي رحمه الله سنة 215هـ ـ 830م. له ترجمة في: سير أعلام النبلاء (206/10 ـ 208)، وبغية الوعاة (590/1)، ووفيات الأعيان (380/2 ـ 381).

(3) من قوله تعالى: (وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ) [سورة يونس: 27].

وأجاب الشيخ العلامة سيدي أبو عبد الله محمد بن مرزوق[1] عن هذا الإشكال بأن قال: «الصحيح أن «ما» نافية، وما ذكروه إنما هو إذا كان الخبر فعلا، وما في الحديث اسم فاعل ولا يلحق به قياسا لظهور الفرق من وجوه.

ولئن سلّم فيمكن أن يقال: أراد «**مَا أَنَا بِقَارِئٍ**» قرءانا ولا غيره من الكتب السماوية وغيرها، كقوله تعالى: (وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ) [2]، فأجاب بنفي عموم ما يقرأه كالعام الوارد على سبب، ولا شك أن هناك من الإنس غيره من يقرأ بعض الكتب.

ويمكن أن يقال: أراد بالغير المفهوم للقارئ جبريل عليه السلام، لأنه الذي نزل به عليه». انتهى

قلت: التقييد بالفعل مما يفهم من كلام الشيخ عبد القاهر[3] وإن لم يصرح به،

---

(1) هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق العجيسي التلمساني البلالي المعروف بالحفيد، شيخ الشيوخ، والفقيه المجتهد الحجة، والأصولي المحقق، والحافظ الثبت، من مصنفاته المنزع النبيل في شرح مختصر خليل، وشرح البخاري لم يكمله، وإيضاح المسالك في شرح ألفية ابن مالك، توفي رحمه الله سنة 842هـ ـ 1439م. له ترجمة في: البستان (ص: 201 ـ 214)، ونيل الابتهاج (ص: 499 ـ 510)، والضوء اللامع (50/7 ـ 51)، والدرر الكامنة (360/3 ـ 362).

(2) [سورة العنكبوت: 48].

(3) هو أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، شيخ العربية، كان آية في النحو، من مصنفاته أسرار البلاغة، ودلائل الإعجاز، والجمل في النحو، والمغني في شرح الإيضاح، توفي رحمه الله سنة 471هـ ـ 1078م. له ترجمة في: سير أعلام النبلاء (432/18 ـ 433)، وفوات

وصاحب المفتاح[1] قائل بالحصر فيما إذا كان الخبر من المشتقات، نحو: «وما أنت علينا بعزيز»، وعليه جاء الإشكال.

وجوابه عنه بقصد العموم في النفي فيفيد ثبوت نقيضه للغير وهو البعض، فبناء منه على أن الثابت للغير في التخصيص عند تقدم المسند إليه المعرف مواليا لحرف النفي النقيض، ولا شك أن نقيض الكلية السالبة جزئية موجبة، والتحقيق خلافه، وأن ما نفي عن المسند إليه على سبيل التخصيص هو بعينه يثبت للغير، إن عاما فعام، وإن خاصا فخاص.

وقد صرح بذلك الشيخ عبد القاهر، وهو الحق الذي لا شك فيه، ولهذا حكموا بالخلف وعدم الصحة في قول القائل: ما أنا رأيت أحدا، أو ما أنا قلت شعرا، أو ما أنا أكلت شيئا، ونحو ذلك، لاقتضائه أن يكون إنسان غير المتكلم قد رأى كل أحد من الناس، وقال: كل شعر في الدنيا، وأكل كلّ شيء يؤكل، وذلك معلوم البطلان.

الوفيات (369/2 ـ 370)، وطبقات الشافعية للسبكي (149/5 ـ 150).

(1) صاحب المفتاح هو سراج الدين أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي، كان إماما في النحو والصرف والمعاني ... وله النصيب الوافر في علم الكلام وسائر الفنون، من مصنفاته: مفتاح العلوم في النحو والصرف والبيان، ورسالة في علم المناظرة، توفي رحمه الله بخوارزم سنة 626هـ ـ 1229م. له ترجمة في: الجواهر المضية في طبقات الحنفية (225/2 ـ 226)، وتاريخ الإسلام للذهبي (273/45)، وبغية الوعاة (364/2)، وشذرات الذهب (122/5).

فعلى هذا لو كان المراد: ما أنا بقارئ قرآنا ولا غيره من الكتب السماوية وغيرها، لا اقتضى ذلك أن إنسانا غيره قرأ جميع ذلك وهو محال عادة.

على أن في كلامه في هذا الجواب مع هذا الذي سبق الآن تناقضا، لأن أول كلامه يصرح بأن المراد في الحديث عموم السلب، وآخر كلامه يقتضي أن المراد سلب العموم، لقوله: فأجاب بنفي عموم ما يقرأه، وظَاهِرٌ أن الثاني نقيض الأول؛ لأن الأول كلي والثاني جزئي.

وأما تخصيصه في الجواب الأخير الغير بجبريل عليه السلام فتكلف لا يحتاج إليه، وكذا قوله أول الكلام: «الصحيح أن ما نافية بناء على أن أول ما نزل (اقْرَأ)ْ، وأنه لا يصح عليه إلا النفي وقد سبق ما فيه.

والحق في الجواب على تقدير إرادة النفي وقصد التخصيص أن المراد بقارئ المتصف بمطلق القراءة من غير قصد إلا تعلقه بمفعول لا خاص ولا عام، بل استعمل في ذلك كاستعمال اللازم، وهو مَهِيعٌ[1] شائع في الأفعال وما في معناها، فكان المراد ما أنا بشخص يقال له قارئ حتى تطلب مني القراءة. **ولا شك** أن ثم من الناس غيره من يتصف بهذا الوصف في ذلك الزمان، فضلا عما قبله كورقة بن نوفل وأحبار اليهود والرهبان وغيرهم، وهذا بمثابة من طلب منه أن يجيب في مسألة وليس أهلا للجواب فيقول: لست بعالم، أي: لست من يتصف بهذا الوصف حتى أُسْأَلَ عن هذه المسألة، ولا قصد له في تعلق العلم بمفعول إلى.

(1) **مَهِيعٌ:** وجمعه مَهَايِع، من هَاع يَهِيع، ومعناه واسع.انظر مادة: هيع، في لسان العرب (378/8).

قوله: «**فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي**» أي: ضمني وجمعني بيده، أو ضمه إلى صدره وشد عليه بيده حتى ضغطه وضيق عليه نفسه بسبب جمع أعضائه بعضها إلى بعض، حتى كاد يدخل بعضها في بعض.

ويروى: «**فَسَأَتَنِي**» بدل: «**فَغَطَّنِي**»، والسأت الخنق[1].

ويروى: «**فَأَخَذَ بِحَلْقِي وَسَأَتَنِي**»[2].

قوله: «**حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ**»، أي نهاية جهدي في قدرتي، ويدل على إضافة الجهد إليه صلى الله عليه وسلم.

قوله: «**مِنِّي**»، ولذا قدمه على الجهد اهتماما واحتراسا، لئلا يتوهم قبل ذكره مؤخرا أن المراد حتى بلغ المَلَك جهده في الغط والعصر، وهذا على المعتاد من قوة الملك لا يصح، لأنه لو بذل قوته لأهلك الدنيا بأسرها، ألا ترى كيف حمل مدائن لوط الخمس على خافق جناحه إلى أن سمعت ملائكة السماء صوت ما فيها، وقلب عاليها سافلها، اللهم إلا أن يعطي الله نبيه صلى الله عليه وسلم من القوة

(1) انظر مادة: سأت، في لسان العرب (36/2)، وتاج العروس (534/4)، ومادة: سأب، في لسان العرب (455/1)، وتاج العروس (33/3).

(2) لم نقف على هذه الروايات مسندة في كتب الحديث والسير، وقد أوردها ابن قتيبة في غريب الحديث (382/1)، وابن الجوزي في غريب الحديث (451/1)، والزمخشري في الفائق في غريب الحديث (143/2)، وابن الأثير في النهاية (822/2). قال السهيلي في الروض الأنف (400/1): «وقوله في الحديث «فَغَطّنِي»، ويروى «فَسَأَبَنِي»، ويروى «سَأَتَنِي»، وأحسبه أيضا يروى «فَذَعَتَنِي»، وكلها بمعنى واحد، وهو الخنق والغم».

ما يستفرغ المَلَك معها جهده ولا يضره بأكثر مما وقع، كما قواه الله عز وجل ليلة الإسراء على العروج في منازل لم يستطعها أكابر الملائكة وخافوا لو صعدوا فيها أن يحترقوا بعظيم نورها، أو يضعف سبحانه قوة الملك حتى لا تضر نبيه صلى الله عليه وسلم غايتها.

وفاعل «**بَلَغَ**» على الوجهين يعود على الملك، أو على الغط المفهوم من غطني، والجهد مفعوله، وهو على الأول مضاف في المعنى لضمير الرسول صلى الله عليه وسلم، أي جهدي، وأظهره مجرورا بمن قدمه على مذهب البصريين.

ولم يستغن عنه بـ «ال» على مذهب الكوفيين دفعا للإيهام المذكور، وهو متعلق بالجهد، ولا يضر تقدمه عليه لعدم انحلاله إلى «أن» والفعل حتى يكون كالموصول إذ ذاك في المصدر الذي يقصد به التجرد لا الثبوت.

ويصح تعلقه بـ «**بَلَغَ**» أو بفعل مضمر، أي فنال.

أو يكون حالا من الجهد مقدما.

وعلى الثاني يكون مضافا في المعنى إلى ضمير الملك، أي جهده، فنابت «ال» عن الضمير على مذهب الكوفيين.

أو يقدر بعده على مذهب البصريين.

و«**مِنِّي**» في هذا الوجه يتعلق بما قبله.

ويروي «**الجَهْدُ**» بالرفع فاعل «**بَلَغَ**» منزلا منزلة القاصر، أي انتهى الجهد على الاحتمالين، أو يقدر له مفعول، أي غايته.

أو مبلغا عظيما على الاحتمالين أيضا، ويكون حذفه لتذهب النفس كل مذهب.

وعلى اللزوم يكون الإسناد حقيقيا، وعلى التعدي يكون مجازيا.

واختلف في سبب غط الملك للنبي صلى الله عليه وسلم، وأحسن ما قيل فيه أنه فعل ذلك به إشغالا عن الالتفات إلى شيء من الدنيا، ويتفرغ ويستفيد لعظيم ما جاء به.

قلت: فيكون من معنى مجيء الملك كصلصلة الجرس.

وكون الغط ثلاثا إشارة إلى استحباب تكرير التنبيه ثلاثا، حتى استدل به بعضهم على جواز تأديب المعلم ثلاثا.

وقيل: فعل ذلك ليبلو صبره ويحسن تأديبه فيرتاض لحمل أعباء النبوة، ولذلك كان يعتريه مثل حال المحموم وتأخذه الرحضاء، أي البهر والعرق.

وقيل: ليختبره هل يقول من تلقاء نفسه شيئا إذا أظهر؟.

قلت: فإنما لم يحمله ضغط الملك مع كونه في غاية القوة وكونه ليس من أبناء الجنس، وفي مبدأ الرسالة على أن يتقول شيئا من عنده لوجوب عصمته في جميع أحواله صلوات الله وسلامه عليه، فكيف يمكن أن ينسب إلى التقول بالنسبة إلى الخلق ولا حامل عليه أصلا، بل وجد الحامل على ضده وهو نصب العداوة لأهل الأرض فضلا عن الأقارب والجيران والسعي في الهلاك الديني والدنيوي، ولهذا لو قيل: فعل به ذلك ليكون دليلا على رسوخه في الدين ونزاهته عن كل عيب خصوصا الكذب والافتراء ولو في حال الاضطرار.

وأما قول هذا القائل [ ] ذلك به جبريل عليه السلام ليختبره، هل يقول للضرورة شيئا من تلقاء نفسه، فقد يقال عليه: إن علم جبريل عليه السلام

يوجب العصمة للأنبياء عليهم السلام يمنع من ذلك، إلا أن يقال هذا من جملة طرق علمه بالعصمة أو علم وجوب العصمة على الجملة وأخبر هل يترخص لأجل الضرورة شيء أم لا؟

فإن قلت: وأنتم لا يتم ما ذكرتموه إلا لو فعل به جبريل ذلك بحضرة الناس ليكون ذلك دليلا لهم على ما ذكرت، أما إذا لم تثبت القضية إلا بقوله، فالاستدلال على صدقه مع توقفها على صدقه دور؟

قلت: الذي توقفت عليه هذه القضية من الصدقِ الصدقُ في نقلها، ولا شك في تحقيقه بالمعجزة، والذي جعلت دليلا عليه تحري الصدق وكماله في غيرها فلا دور، على أنا إنما ذكرنا الاستدلال بتلك القضية على سبيل التقوية والتأكيد لمقتضى دليل العصمة، والتنبيه على أن جزئيات قضاياه وأحواله الكريمة قبل النبوة وبعدها متعاضدة في الدلالة على نزاهته صلوات الله وسلامه عليه من كل نقص وتحليه بغاية الكمال، وأن من أضاف إلى ساحته المطهرة الرفيعة نقصا فهو في أقصى ما يكون من الغباوة والمعاندة والضلال.

ونقل عن أبي شامة[1] أنه قال: يحمل قوله: **أولا:** «**مَا أَنَا بِقَارِئٍ**» على الامتناع،

(1) هو شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم الدمشقي، المعروف بأبي شامة لشامة كبيرة فوق حاجبه الأيسر، الإمام المقرئ النحوي المؤرخ، اعتنى بالحديث وأتقن الفقه ودرّس وأفتى وبرع في العربية، له كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، واختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، توفي رحمه الله سنة 665هـ ـ 1266م. له ترجمة في: طبقات الشافعية لابن قاضى شهبة (133/2 ـ 135)، وبغية الوعاة (77/2 ـ 78)، وشذرات الذهب (318/5).

وثانيا على الإخبار بالنفي المحض، **وثالثا** على الاستفهام، ويؤيده أن في بعض الروايات في الثالث: «**كَيْفَ أَقْرَأُ**»[1].

واعترضه بعض الشيوخ، فإن في الحمل على الامتناع نظرا، إذ لا تصح منه المخالفة للعصمة، لاسيما مع ثبوت أنه سيق هذا الوحي المنامي وأن نبوته تقررت، ولو سلم أن هذا أولها لامتنعت أيضا، لأنه يحصل له العلم الضروري بأن مَلَكا جاء بأمر الله لا شيطان وإلا لم نثبت النبوة.

ولا يعارض هذا قوله بعد: «**لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي**»، لما سيذكر في تفسيره، وتبعد أيضا ولو على القول بأنه لا يعمله إلا بمعجزة يريها إياه كهو مع غيره، وأن المخالفة قبل عام الرسالة لا تضر، لأن مختار كثير امتناع المخالفة منهم قبل النبوة أو عدم وقوعها.

وأشار بعض الشيوخ إلى احتمال أن يكون سبب الغط الإشارة إلى أن من طلبه الشرع بأمر ولم يعلمه فاللائق به أن يحتال في تعلمه، لا أن يتعذر عن ترك الامتثال بنفي العلم لاسيما والتكليف بالمحال جائز.

قلت: وهذا إنما يتم على أن المقصود بـ«**مَا أَنَا بِقَارِئٍ**» النفي لا الاستفهام، وفيه مع ذلك نظر، لثبوت الغط مع صريح الاستفهام في المرة الثالثة على ما ثبت في بعض الروايات من قوله فيها: «**كَيْفَ أَقْرَأُ**».

وقد يقال: إن قوله صلى الله عليه وسلم : «**مَا أَنَا بِقَارِئٍ**»، وإن دل بالمطابقة

(1) انظر شرح الحديث المقتفى في مبعث النبي المصطفى لأبي شامة (ص: 113).

على نفس العلم بالقراءة، فالمقصود به التزاما ما طلب العلم بها، على حدّ قولك: أنا عطشان، لما علم من تعطش النفوس إلى تحصيل علم ما لم تعلم، لا سيما نفسه الزكية صلى الله عليه وسلم، ولاسيما بالنسبة إلى ما يرد من مولاه جل وعلا بواسطة المعلم الأكبر جبريل عليه السلام، فكيف لا تكاد النفوس أن تموت شوقا إلى ذلك؟ وقد حمل عظيم الشوق إلى ذلك نبينا صلى الله عليه وسلم عند فترة الوحي وغيبة جبريل عنه ما صار به يعمد بذاته الكريمة ونفسه الزكية العظيمة إلى شواهق الجبال ليلقي نفسه منها، فيظهر له عند ذلك جبريل عليه السلام ليسكن عليه بعض ما يجده من توقد الشوق، ويقول له: «**أَنْتَ رَسُولُ الله حَقًّا**»[1].

فإن قلت: فما باله إذن لم يصرح لجبريل بطلب التعليم حتى فعل به ما فعل من الغط؟

قلت: لا خفاء أن الكناية أبلغ من التصريح، ألا ترى أن طلب الماء بـ«أنا عطشان» أبلغ من طلبه بالتصريح وهو «اسقني»، لما في الأول من إظهار الفاقة الموجبة لعطف القلوب وذكر سبب الحاجة، بخلاف الثاني الذي فيه التصريح بالطلب لاحتمال الطلب مع استغناء أو الاختبار ونحو ذلك.

وكذا نقول هنا: إن النبي صلى الله عليه وسلم عدل عن التصريح بطلب

(1) اللفظ الذي أورده الشارح رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى (154/1). وورد عند أحمد (232/6 رقم: 26001)، والبخاري (355/3 رقم: 6982)، وابن حبان (216/1 رقم: 33) بلفظ: «يَا مُحَمَّدُ، إِنَّكَ رَسُولُ الله حَقًّا».

التعليم إلى الوجه الأبلغ، وهو طلبه بإظهار الفاقة وسبب الاحتياج وإلقاء السلام بين يدي المعلم، فنسب نفسه إلى عدم الدراية الذي يأنف منه عادة من اتصف به فكيف من لم يتصف به، أما الاستفهام وصريح السؤال، فليس فيه كبير حامل على الجواب، إذ كثيرا ما يكون للتعنيت والاختبار وغيرهما.

وفيه أيضا بيان أن السنة في حق من سئل عن ما لم يعلم أن يصرح بعدم الدراية، ولا يأنف من ذلك، ولهذا قال مالك رضي الله عنه: «جُنَّةُ العالم لا أدري، فإذا أخطأها أصيبت منه المقاتل»[1].

وأما غط جبريل عليه السلام له صلى الله عليه وسلم، فيحتمل أن يكون ظهر له بقرائن الأحوال عظيم اشتياق النبي صلى الله عليه وسلم إلى علم ما طلب منه لشدة حرصه قبل ذلك على ما يقربه من مولاه جل وعلا، ولذلك كان يلازم الخلوة للعبادة، ويستوحش من الخلق، فكيف يكون شوقه الآن عند ما ظهرت له مخائل التقريب، وبلوغ الأمنية بوصل الحبيب.

وأبرح ما يكون الشوق يوما[2] إذا دنت الخيام من الخيام

فأخذ يضيق عليه في ذاته ويغطه ليختبره هل ينقص ذلك من عظيم اشتياقه أم

---

(1) رواه عنه ابن معين في تاريخه (252/3)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (363/8)، وابن عبد البر في الانتقاء (ص: 37)، وأورده الذهبي عنه في سير أعلام النبلاء (77/8).

(2) هذا صدر من بيت لإسحاق بن إبراهيم الموصلي، من بحر الوافر، وفي رواية:

وَأَبْرَحُ ما يَكُونُ الشَّوقُ يَومًا إذا دَنَت الدِّيَارُ من الدَّيَارِ

انظر: الأمالي لأبي علي القالي (56/1)، والأغاني (369/5).

لا؟ فوجده لا يزيده ذلك إلا قوة، بل لما بعدت غيبته عنه بعد ذلك أراد صلى الله عليه وسلم أن يفعل بذاته الكريمة من الضرر أكثر مما فعل به جبريل عليه السلام، حتى صار هو يعمد إلى شواهق الجبال ليلقي نفسه منها، وكيف لا وقد ذاق من الوصل ما لا يملك معه صبر الصلا.

وهذا المعنى الذي قررته في قوله: «**مَا أَنَا بِقَارِئٍ**»، وفي سبب الغط شيء لاح لي ولم أره لغيري، وهو ينتج ضد ما ذكره ذلك الشيخ الذي أوردنا هذا الكلام ردا عليه.

قوله: «**فَقَالَ:** (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ)[1]».

قال الزمخشري[2]: محل (اقْرَأْ بِاسْمِ) النصب على الحال، أي: اقرأ مفتتحا باسم ربك ثم اقرأ.

قال بعض الشيوخ: لم يبين ما المقروء، إلا أن يكون الذي خلق إلى آخره.

ويبعد أنه نعت لاسم المسمى، أو لربك، أو يكون (وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ) و (اقْرَأْ) الثاني تأكيدا للأول، ولا يكون (بِاسْمِ رَبِّكَ) هو المقروء لما يلزم عليه من اتحاد المفتتح له والمفتتح.

وقال بعض علماء المعاني: معنى (اقْرَأْ) الأول أوجد القراءة، و(بِاسْمِ رَبِّكَ) متعلق بـ (اقْرَأْ) الثاني، وقدم معموله لأن ذكر الله جل وعلا أهم، ولهذا يقدر

(1) [سورة العلق: 1 ـ 3].

(2) في تفسيره الكشاف (4 ـ 781).

متعلق بسم الـلـه إن جعل فعلا مؤخرا، أي: بسم الـلـه أبدأ كذا، وهذا هو الذي منع جعل (بِاسْمِ رَبِّكَ) متعلقا بالأول.

وغيره يعلقه به ويجعله هو المقروء ويجعل الأهم هنا تقديم العامل، لأنه المقصود بالأمر أول شرع القراءة، ولذا جعله الأول كناية عن فعل قاصد لا يتعلق بمفعول، وفيه حينئذ إفهام بعد إبهام.

وقال ابن عطية: «اقرأ هذا القرآن بسم ربك، أي ابدأ فعلك بسم ربك، نحو (ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ الـلـه مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا) [1].

وقيل: اقرأ في كل سورة بسم الـلـه الرحمن الرحيم.

وقيل: الذي أمر بقراءته هو (بِاسْمِ رَبِّكَ) إلى آخره، أي اقرأ هذا اللفظ». انتهى[2]

وقيل: معنى (بِاسْمِ رَبِّكَ): أي: لا تقرأه بقوتك ومعرفتك، لكن بحول ربك وإعانته، فهو يعلمك كما خلقك، وكما نزع عنك علق الدم ومغمز الشيطان في الصغر، وعلم أمتك حتى صارت تكتب بالقلم بعد أن كانت أمية.

والباء على أن المراد اقرأ ما نزل إليك، أو كل سورة مفتتحا باسم ربك للمصاحبة.

وعلى أن (بِاسْمِ رَبِّكَ) هو المقروء، فيكون محكيا والباء تتعلق بمحذوف على حد ما تعلق به بسم الـلـه الرحمن الرحيم، ومنهم من جعلها زائدة نحو:

---

(1) [سورة هود: 41].

(2) من المحرر الوجيز (502/5).

.... سُــودُ المَحَــاجِرِ لا يَقْــرَأْنَ بالسُّــوَرِ[1]

وقيل: الباء للملازمة والتكرير، أي: الزم القراءة بسم ربك.

وقرر بعض الشيوخ مقصد هذه السورة الكريمة ومعناها على اختصار فقال: مقصد السورة ـ والله أعلم ـ:

ـ إخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن الله تعالى اصطفاه بأن جعله إنسانا أوّلا، وفضله على بني جنسه من المصطفين وغيرهم بما خصه الله من العلوم والمعارف الموجبة منزلة القرب.

ـ وأنه خلقه للانقطاع لعبادته وضمن له ما يهمه من أمر عدوه، فقيل له في فاتحتها: (اقْرَأْ) ، فنبه على أعلى أسباب القرب وهو العلم، وحض في خاتمتها على نتيجة العلم وهو العلم المقرب إليه جل وعلا فقيل له: (وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب) [2].

وحاصله: اعلم واعمل وتقرب، وخص السجود، لأنه أفضل الأعمال، وخص الإنسان لأن تنزيل الوحي والقرآن إليه، ولأنه نسخة من العالم العلوي، وإنما فضله بالعقل والمعارف، ونبه بخلقه من علق على كمال اقتداره؛ إذ صيّر أخس الأشياء وأشرفها.

---

(1) البيت للراعي النميري، من بحر البسيط، وتمامه:

هُــنَّ الحَرَائِــرُ لَا رَبَّــاتُ أَحْمِــرَةٍ ... سُــوْدُ المَحَــاجِرِ لا يَقْــرَأْنَ بالسُّــوَرِ

(2) [سورة العلق: 19].

والعلق: جمع علقة، وهي قطعة من دم يتعلق بما يتصل به[1]، يصير كذلك بعد بقائـه في الرحم أربعين يوما نطفة كما في الحديث[2].

فقد انتهت هذه العلقة على ما هي عليه من الجمادية والخسة إلى موصوف بالعلم بالـلـه والقرب من حضرة الجلال (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ)[3]،(أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ) [4].

وفي الآية أيضا التنبيه على تعريف الإنسان بأصـله ليتـذكره ولا ينسـاه عنـد صـيرورته إلى حال الكمال، فيرى نفسه شيئا فيهلك بالرد إلى أسفل سافلين بعد الكـمال، ولـئلا يطغـى عـلى غيره تكبرا عليه (كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ) [5].

---

(1) انظر مادة: علق، في لسان العرب (261/10)، والقاموس المحيط (275/3).

(2) أشار إلى الحديث الذي أخرجه البخاري (112/2 رقم: 3208)، ومسـلم (44/8 رقـم: 2643). ونصـه كـما في صـحيح البخاري عن ابن مسعود رضي الـلـه عنـه قـال: حَـدَّثَنَا رَسُـولُ الـلــه صـلى الـلــه عليـه وسـلم وَهُـوَ الصَّـادِقُ المَصْدُوقُ قَالَ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِـكَ، ثُـمَّ يَكُـونُ مُضْـغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ الـلـه مَلَكًا، فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، وَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ عَمَلَهُ وَرِزْقَهُ وَأَجَلَهُ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، ثُـمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ، فَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ لَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجَنَّةِ إِلاَّ ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْـهِ كِتَابُـهُ فَيَعْمَـلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، وَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَـيْنَ النَّـارِ إِلاَّ ذِرَاعٌ، فَيَسْـبِقُ عَلَيْـهِ الكِتَـابُ فَيَعْمَـلُ بِعَمَـلِ أَهْـلِ الجَنَّةِ».

(3) [سورة الروم: 20].

(4) [سورة يس: 77].

(5) [سورة العلق: 6 ـ 7].

وإنما أضيف الإنسان في هذه السورة إلى الدرجة الثالثة وهي العلقة، وأضيف في آية إلى الثانية وهي النطفة، وفي آية إلى الأولى وهي التراب، لاقتضاء المقام في كل آية ما ذكر فيها.

ثم أكد سبحانه الأمر بالقراءة تنبيها على التزام أقوى أسباب السعادة، ورفض ما سواه، فإنه أكرم ما أكرم به ربنا الأكرم عبد الله ابن آدم المكرم، ثم عقب ذلك التأكيد بجملة حالية مشتملة على وصف ملازم للالتزام.

كما اشتمل الأمر بإنشائها قبل على وصف مناسب له، أي: إن ربّك الذي جاء عليك بنعمة الخلق التي هي إخراج من ظلمة العدم إلى الوجود مع كونه غنيا عن ذلك الخلق، لأن له الكمال المطلق لا يُسلم من انقطع إليه ومن لازم الانقطاع له، لاح له زيادة ما عمله من أنه كريم أنه الأكرم لا غيره.

ودل على الحصر تعريف المبتدأ أو الخبر، ووصفه جل وعلا بما يوجب أنه أكرم الأكرمين وهو كونه تعالى علم الإنسان بالقلم ـ مع أصالة جهله ـ ما لم يعلم من علم الأصول والفروع وما يتعلق بهما من العلوم، وأخبار الأولين والآخرين والعرش والجنة والنار وسائر المعارف والعلوم، ومعرفة ما يقرب وما يبعد، وما يشقي وما يسعد.

ولا شك أن هذا ما يوهب، لأن الدنيا وما اشتملت عليه من النعم سوى هذه النعمة لا توازيها ولا تقاربها وواهب الأكرم أكرم.

فالذي منّ بنعمة الخلق من غير احتياج إليه كريم، وواهب الأكرم مع ذلك الأكرمين ولم يعلق علم بالقلم بمفعول إما إشعارا بأنه لا يحاط به (وَلَوْ أَنَّمَا فِي

الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ..) [1] الآية، أو لأن المراد الذي تفرد بالتعليم بـالقلم ولم يقصـد تعلقـه بمفعول.

أو الذي علم الإنسان فأجمل ثم فسر بعد بقوله: (عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) [2] كـما تقـدم في (خَلَقَ).

وحاصل الأمر أن الذي أكرمك بنعمة الخلق، ثم بنعمة العلم العظمى، هو متولي أمـورك وناصرك على أعدائك، فلازِمِ القراءةَ والعلمَ والعبادةَ المقرِّبَةَ، ولا تهتم بأمر عـدوك المسـتطيل عليك بأهل ناديه، فلئن دعاهم عليك لندعُوَنَّ الزبانية الذين زبني واحد مـنهم يهلـك الأرض ومن عليها فكيف بجمع منهم فـ (لَا تُطِعْهُ) [3]، لأن بعصيانه إياك مبعـد منـا، (وَاسْـجُدْ)لنـا أنت (وَ) منا فـ (اقْتَرِب)، ودم على دعائك إلينا متوكلا علينا، فالمتوكل علينا مكفي.

وإنما أشير له في هذه السورة إلى هـذا المعنـى، لأنهـا أول ابتـداء الرسـالة ظـاهر، أو كـان مظهرها عادة يخاف من المبلغ إليهم سيما من ناصيته أرشد إلى ما يكفيـه أمـر الخلـق وهـو الانقطاع إلى اللـه والتوكل عليه، ولا يثمر ذلك إلا ملازمـة العلـم والعمـل والكـلام في معـاني باقي السور وضيف التفسير.

---

(1) من قوله تعالى: (وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللـه إِنَّ اللـه عَزِيزٌ حَكِيمٌ) [سورة لقمان: 27].

(2) [سورة العلق: 5].

(3) [سورة العلق: 19].

وإنما جعل (اقْرَأْ) وإن كان أمرا بالقراءة مقروء، لأنه كذلك فهمه النبي صلى اللــه عليـه وسلم عن جبريل عليه السلام، إما بالتصريح وبخلق علم ضروري لـه فهـم بـه ذلـك، وبـذلك فرق بين «اقرأ» الذي هو أمر من الملك، وبين (اقْرَأْ) الذي هو من القرآن.

قلت: ولعل الحكمة في جعل (اقْرَأْ) من السورة التنبيه على أن هذا المأمور بقراءتـه مـما يحق له أن يقرأ ويؤمر بقراءته، وينصح في شأنه بعض بعضا لعظم أمره على حدّ ما قيل في (قُلْ هُوَ اللـه أَحَدٌ) [1] أنها افتتحت بـ (قُلْ) اعتناء بذلك المقول، وأنه محق له أن يقال، ويؤمر بقوله وينبه فيه البعض، لأنه ثلث العلم وأجلـه لاحتوائـه عـلى معرفتـه جـل وعـلا، ومعرفـة صفاته العلية التي غرق في بحار علومها العقول بأسرها.

قوله: «**فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللـه صلى اللـه عليه وسلم يَرْجُفُ فُؤَادُهُ**»، أي رجع مـن حـراء بالآيات أو السورة إن علم جميعها أن القصة التي وقعت في حال كونـه في رجوعـه ووصـوله إلى أهله يخفق قلبه ويضطرب من شدة الخوف ووحشـة رؤيـة مـا لم يعهـد، والمشـقة التـي نالته مع ذلك من الضغط والتكليف بقراءة ما ليس معه، ولولا تثبيت اللـه سبحانه إياه لما اقتصر الأمر في ذلك على مجرد اضطراب القلب وخفقانه اللازم للفزع غالبا.

والسَّببُ في هذا الرَّجف أن الفـزع يـذهب بحـرارة البـدن الباطنـة، وتفـر أمامـه

---

(1) [سورة الإخلاص: 1].

متفرقة إلى مسام سطحه الظاهر فيعقبها البرد فتأتي الرعدة، فطلب صلوات اللـه وسلامه عليه التدثر ليتدفأ فترجع إليه الحرارة، أو كأنه لقرب رؤية ما أفزعه مشاهد له في الحال يتصوره، وشأن الإنسان عند رؤية ما يفزع تغميض عينيه وتغطية رأسه وبدنه عن ذلك المحسوس ويؤيده ما في السير: «**فَرَأَيْتُ جِبْرِيلَ فِي الأُفُقِ، فَجَعَلْتُ أَصْرِفُ بَصَرِي عَنْهُ**»[1].

واعترض على ما ذكرناه من سبب التدثر أولا بأنه قد يعارضه ما في التفسير من قوله: «**دَثِّرُونِي وَصُبُّوا عَلَيَّ مَاءً بَارِداً**»[2]، والبرد لا يطلب صب الماء البارد.

وأجيب بأنه إذا كان سبب البرد تفرق الحرارة إلى سطح البدن يكون صب الماء ردًّا لها إلى الباطن، لأنها تفر أمام البرد للضدية، فتعود إلى مكانها فتسكن الرعدة.

قال بعض الشيوخ: ويحتمل عندي أن رجف فؤاده صلى اللـه عليه وسلم إنما كان فرحا وسرورا بما أوتي من الوحي يقظة وما علم من العلم، وما استشعر من إعطاء اللـه سبحانه له ما لم يعط بَشَرٌ، والفرح قد يرعد الفزع.

ولا يرد هذا قوله: «**لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي**»، لأنه قد يخشى أيضا على النفس من شدة الفرح.

قلت: وما ذكره هذا الشيخ حسن ولائق بالمقام، وقد شاهدنا من تصيبه

---

(1) انظر السيرة النبوية لابن هشام (73/2)، والسيرة النبوية لابن كثير (403/1)، والسيرة الحلبية (386/1).

(2) صحيح البخاري، كتاب التفسير، (520/2 رقم: 4922).

الرعدة والبكاء من الفرح، ومن هذا المعنى قول الطائي[1] يصف سحابا:

دُهْــمٌ إِذَا وَكَفَــتْ فِي رَوْضَــةٍ طَفِقَــتْ عُيُــونُ أَزْهَارِهَــا تَــبْكِي مَــنَ الفَــرَحِ

قال أبو الطيب[2] وزاد على هذا المعنى: [المتقارب]

فَـــلَا تُنْكِـــرْنَ لَهَـــا صَرْعَـــةً فَمِـــنْ فَــرَحِ الــنّفْسِ مَــا يَقْتُــلُ

قال بعض المُحْدَثِينَ[3]:

وَرَدَ الكِتَــابُ مِــنَ الحَبِيــبِ بِأَنّــهُ سَـــيَزُورُنِي فَاسْـــتَعْبَرَتْ أَجْفَـــانِي

غَلَـــبَ السّرُورُ عَـــلَيّ حَتّـــى إنّـــهُ مِـــنْ فَــرْطِ مَــا قَــدْ سَرّنِي أَبْكَــانِي

يَــا عَــيْنُ صَــارَ الــدّمْعُ عِنْــدَك عَــادَةً تَبْكِــــينَ فِي فَـــــرَحٍ وَفِي أَحْـــــزَانِ

وقد ذكر لي من لا أتهمه أنه شاهد امرأة قدم ولدها وكان صغيرا، فلما رأته أو قرب من دارها شككت أي ذلك، قال: غشي عليها من شدة الفرح فلم تفق إلا بعد حين. ويدل على عظيم سروره صلى الله عليه وسلم وابتهاجه بما رأى ما كان يفعله بنفسه عند فترة الوحي وغيبة جبريل عنه، وقد قدمنا ذلك قبل هذا.

قوله: «**فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، فَقَالَ لِخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الخَبَرَ: لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي**».

---

(1) هو حبيب بن أوس الطائيّ، وقد أورده ابن عبد ربه في العقد الفريد (274/4)، والسهيلي في الروض الأنف (311/2).

(2) أي: أبو الطيب المتنبي.

(3) أورده القضاعي في التكملة لكتاب الصلة (358/2)، والمقري في نفح الطيب (292/4)، والسهيلي في الروض الأنف (311/2).

قال ابن بطال[1] عن بعضهم: في كون النبي صلى الله عليه وسلم لم يخبر بشيء حتى ذهب عنه صلى الله عليه وسلم الروع، دليل أنه لا يجب أن يسأل الفزِع عن شيء من أمره ما دام فزعه، وكذلك قال مالك وغيره: إن المذعور لا يلزمه بيع ولا إقرار ولا غيره في حال فزعه[2].

وقوله عليه السلام: «**لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي**» يدل على أن من نزلت به ملمة أن له أن يشارك فيها من يثق بنصحه ورأيه، ولا ينافي ذلك التوكل، ويستحب لمن ذكر له ذلك تيسير الأمر وتهوينه على صاحب القضية، كما فعلت خديجة رضي الله عنها.

ومعنى قوله صلى الله عليه وسلم : «**لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي**» أي: أن تهلك أو تقارب من شدة ما تلقاه من المشاق عند تلقيها الوحي وما يعتريها من الكرب عند ذلك.

ويحتمل أن يكون المعنى: خفت أن لا أقوم بأعباء ما كلفته من الرسالة والتبليغ لما علي من تلقيه من المشقة وفي إلقائه للناس أيضا فأقصر فأعاقب، وهذا خوف من الله جل وعلا وهو محمود، وكان هذا القول منه صلوات الله وسلامه عليه في ابتداء الأمر، وقبل أن يعلم أن أمره يتم ويكمل به وله الدين (هُوَ

---

(1) هو أبو الحسن علي بن خلف بن بطال البكري القرطبي ثم البلنسي، يعرف بابن اللجام، الإمام العلامة شارح صحيح البخاري، كان من أهل العلم والمعرفة، عني بالحديث العناية التامة، توفي رحمه الله سنة 449هـ - 1081م. له ترجمة في: سير أعلام النبلاء (47/18)، وترتيب المدارك (827/4)، والديباج (ص: 298)، وشجرة النور (115/1).

(2) شرح صحيح البخاري لابن بطال (38/1).

الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) [1].

وقد علمت مشقة ابتداء الأمور لاسيما هذا الأمر العظيم الذي كلف به النبي صلى الله عليه وسلم، من تعليم العلوم وإيصالها دقيقة كانت أو جليلة لكل عاقل عربي أو أعجمي، غبي كان أو فطن، متواضع أو متكبر، قريب كان أو بعيد، ذكر أو أنثى، حرّ أو عبد، جن أو إنس، على وجه لا يؤثر في ذلك أحدا على أحد ولا يضجر لجفاء أجلافهم وسوء آداب جهالهم.

ثم لم يكتف منه بذلك حتى طلب منه أن يحمل الناس كلهم على الخروج عن المألوف، وما هو أعظم عندهم من أنفسهم من أديانهم واعتقاداتهم الفاسدة التي ربوا عليها خلفا عن سلف ولو بأن يباشر بنفسه الكريمة ومن معه من المؤمنين قتالهم الذي ربما يؤدي إلى أن تصل بعض الإذايات إلى ذاته المرفعة، ويفجع بقتل بعض ناصريه من أقاربه ومن معه.

فانظر هذا الأمر العظيم الذي لا يحوم حوله إلا من اعتنى بتأييده الرب الرؤوف الرحيم، لو عرض على السموات والأرضين على ما هي عليه من القوة لما استطاعت أن تثبت له، وأنى لها الثبات وقد أشفقت مما دون ذلك بكثير (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ ...) الآية[2].

---

(1) [سورة التوبة: 33].

(2) أي: قوله تعالى: (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا

وليس معنى الحديث ما يتوهم أنه خشي أن يكون ما ظهر له شيطان يؤذيه، وأن ذلك من عند غير الله، فإنه صلى الله عليه وسلم معصوم من ذلك قبل النبوة، فكيف يظن به ذلك بعد حصول اليقين له بما خلق له من العلم الضروري أو غيره بأن الآتي إليه ملك جاءه من الله بوحي؟ كلا.

وقال السهيلي: «تكلم العلماء في معنى هذه الخشية بأقوال كثيرة، فذهب أبو بكر الإسماعيلي[1] إلى أن هذه الخشية كانت منه قبل أن يحصل له العلم الضروري بأن الذي جاءه ملك من عند الله، وكان أشق شيء عليه أن يقال عنه: مجنون.

ولم ير الإسماعيلي أن هذا محال في مبدإ الأمر، لأن العلم الضروري قد لا يحصل دفعة واحدة، وضرب مثلا بالبيت من الشعر تسمع أوله فلا تدري أنظم هو أم نثر، فإذا استمر الإنشاد علمت قطعا أنه قصد به الشعر.

وكذلك لما استمر الوحي واقترنت به القرائن المقتضية للعلم القطعي حصل العلم القطعي، وقد أثنى الله عليه بهذا العلم فقال: (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ

الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا) [سورة الأحزاب: 72]

(1) هو أبو بكر أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن العباس الإسماعيلي، الإمام الحافظ، شيخ الشافعية بجرجان، جمع بين الفقه والحديث ورياسة الدين والدنيا، له مؤلفات منها: المعجم، والمستخرج على الصحيح، ومسند عمر رضي الله عنه، توفي رحمه الله سنة 371 هـ ـ 982 م. له ترجمة في: تبيين كذب المفتري (ص: 192 ـ 195)، وسير أعلام النبلاء (292/16 ـ 296)، وطبقات الشافعية للسبكي (7/3 ـ 8).

رَبِّهِ..) الآية[1]؛ فإيمانه عليه السلام وملائكته إيمان كسبي موعود عليه بالثواب الجزيل كما وعد على سائر أفعاله المكتسبة كانت من أفعال القلب، أومن أفعال الجوارح.

وقد قيل: المعنى خشيت ألا أنتهض بأعباء النبوة وأن أضعف عنها، ثم أزال الله خَشْيَتَه ورَزَقَه الأيد والقوة والثبات والعصمة.

وقد قيل: إن خشيته كانت من قومه أن يقتلوه ولا غرور، فإنه بشر يخشى من القتل والإذاية ما يخشاه البشر، ثم يهون عليه الصبر في ذات الله كل خشية، ويجلب إلى قلبه كل شجاعة وقوة.

وقد قيل في معنى الخشية أقوال غير هذه، رغبت عن التطويل بذكرها». انتهى[2]

قوله: «**فَقَالَتْ خَدِيجَةُ كَلاَّ وَاللهِ مَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَداً**» هذه اليمين منها رضي الله عنها إن كان حصل لها العلم من ورقة أو غيره بأن ما رأى لا يراه إلا نبي، فهي بارة سالمة من اللغو والغموس، وإن كانت قد اعتمدت فيها على ما أجرى الله به العادة من أن حسن المبدأ والسيرة دليل على حسن العاقبة.

إِنَّ الهِلاَلَ إِذَا رَأَيْتَ نُمُوَّهُ أَيْقَنْتَ أَنْ سَيَصِيرُ بَدْرًا كَامِلاَ[3]

فأدنى حالها أن تكون لغوا غير مؤاخذ بها.

---

(1) أي: قوله تعالى: (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ......) الآية [البقرة: 285].

(2) من الروض الأنف (400/1).

(3) البيت لأبي تمام.

وقولها: «**إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ...**» إلى آخره هو من الاستئناف البياني، لأنه جواب سؤال مقدر عن علة الحكم الخاص الذي حكمت به، كأنه قال لها: من أين حكمت بأن اللـه سبحانه لا يفعل بي ما ذكرت؟ فقالت: «**إِنَّكَ...**».

ولما كان المقام إنكاريا لأنه ينبغي أن ينكر على من يحكم على اللـه بما لا علم له، بدليل إنكاره صلى اللـه عليه وسلم على أم العلاء[1] ثناءها على عثمان بن مظعون[2] رضي اللـه عنه[3]، أكدت خديجة رضي اللـه عنها هذه الجملة بما ترى.

---

(1) هي الصحابية الجليلة أم العلاء بنت الحارث بن ثابت بن حارثة الأنصارية الخزرجية، قال أبو عيسى الترمذي: هي والدة خارجة بن زيد بن ثابت، أسلمت وبايعت رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم وروت عنه وشهدت معه خيبر. لها ترجمة في: الإصابة في تمييز الصحابة (263/8)، وتهذيب الكمال (375/35)، وتهذيب التهذيب (422/12).

(2) هو الصحابي الجليل أبو السائب عثمان بن مظعون بن حبيب القرشي الجمحي المدني، أسلم قديما بعد ثلاثة عشر رجلا، وهاجر الهجرة الأولى إلى الحبشة، ثم هاجر عثمان إلى المدينة وشهد بدرا، وكان من أشد الناس اجتهادا في العبادة يصوم النهار ويقوم الليل ويجتنب الشهوات ويعتزل النساء، وهو أول رجل مات بالمدينة من المهاجرين مات سنة اثنتين من الهجرة، وهو أول من دفن بالبقيع رضي اللـه عنه. له ترجمة في: معجم الصحابة لابن قانع (258/2)، والإصابة في تمييز الصحابة (461/4).

(3) حديث أم العلاء الأنصارية رضي اللـه عنها أخرجه أحمد (436/6 رقم: 27497)، والبخاري (594/1 رقم: 2687)، والنسائي في الكبرى (385/4 رقم: 7634)، والحاكم (534/1 رقم: 1401)، والطبراني في الكبير (140/25 رقم: 339)، وعبد بن حميد في المنتخب (ص: 461 رقم: 1593). ولفظه كما في البخاري عن خارجة بن زيد بن ثابت أَنَّ أُمَّ الْعَلاَءِ ـ امْرَأَةً مِنَ الأَنْصَارِ ـ بَايَعَتِ النَّبِيَّ صلى اللـه عليه وسلم أَخْبَرَتْهُ أَنَّهُ اقْتُسِمَ المُهَاجِرُونَ قُرْعَةً فَطَارَ لَنَا عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ،

=

ومثل أن هنا في إفادة التعليل والتأكيد لكون المقام طلبيا لتقدم ما يلوح بالطلب (وَاصْنَعِ الْفُلْكَ...) إلى قوله: (إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ) [1]، ولما كان هذا المقام إنكاريا زيدت اللام، وإن كان الخبر في الآية يفيد تأكيد الاسمية، فكأنهم مفروغ من غرقهم للحكم به، وعبرت هنا بالمضارع لتصور تلك الأحوال الحسنة الشاقة على الكثير.

وقولها: «**وَتَحْمِلُ الْكَلَّ**» كناية عن صبره على ما يثقل على النفس الصبر عليه.

والكَلُّ: الثقل[2].

وقولها: «**وَتَكْسِبُ**» بوزن تَضْرِب، «**المَعْدُومَ**»، أي تقدر على كسب الشيء الذي يكون معدوما وتحتاج إلى تحصيله لمعرفتك بطرق الاكتساب، فمدحته بما يستلزم كمال الفعل الذي هو أشرف شيء مَنَّ به سبحانه وتعالى، والنشاط الذي يكتسب به الإنسان المصالح الدنيوية والأخروية لنفسه ولغيره ما عليه العاجز من الرجال الذي لا ينفع نفسه ولا غيره.

فَأَنْزَلْنَاهُ فِي أَبْيَاتِنَا، فَوَجِعَ وَجَعَهُ الَّذِى تُوُفِّيَ فِيهِ، فَلَمَّا تُوُفِّيَ وَغُسِّلَ وَكُفِّنَ فِي أَثْوَابِهِ، دَخَلَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم فَقُلْتُ: رَحْمَةُ الله عَلَيْكَ أَبَا السَّائِبِ، فَشَهَادَتِي عَلَيْكَ لَقَدْ أَكْرَمَكَ الله. فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم : «وَمَا يُدْرِيكِ أَنَّ الله قَدْ أَكْرَمَهُ». فَقُلْتُ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ الله، فَمَنْ يُكْرِمُهُ الله، فَقَالَ: «أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ اليَقِينُ، وَالله إِنِّي لأَرْجُو لَهُ الخَيْرَ، وَالله مَا أَدْرِي ـ وَأَنَا رَسُولُ الله ـ مَا يُفْعَلُ بِي». قَالَتْ: فَوَالله لاَ أُزَكِّ أَحَدًا بَعْدَهُ أَبَدًا».

(1) أي: قوله تعالى: (وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ) [هود: 36].

(2) انظر مادة: كلل، في لسان العرب (590/11)، وتاج العروس (336/30).

ولا شك أنه إذا اجتمع في الرجل كمال العقل المميز بين الحسن والقبيح ومطاوعة الأعضاء لإشارات العقل لنشاطها وعدم العجز فيها والكسل، كان الرجل أكمل الرجال مهيأً لنيل الأشرف من أحوال الدنيا والآخرة، والاتصاف بأعلى المراتب وأشرف الخلال، كأنها رضي الله عنها تقول له: ما شرفت به من النبوة وقصدت به من الرسالة أنت أهله وهيئت له بما أودع سبحانه فيك من الخلال الكريمة اللائقة لذلك (اللـه أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ) [1]، فهون عليك ولا تخف ولا تجزع ألا تقوم بواجب الحق في ذلك، وإنما يخاف النقص والإخلال من لم يؤهل لما ظهر فيه وجوه الكمال فيخشى من طرد الأصلي فيه لما عرض........ بحسب الحال، أما من أيده سبحانه وتعالى أولا بالصفات الجميلة، وأكمل عليه بعد ذلك بما يناسب كل واحد منها ويسلك سبيله، فكيف يخاف النقص وقد تعاضدت وتكاثرت منه محاسن صفاته؟

نعم يكون ذلك منه للكمال والتواضع ونسيان الأكمل شريف سماته قال تعالى: (وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا) [2]، فلله در خديجة رضي الله عنها، فما أرق تسليتها للنبي صلى الله عليه وسلم وأجملها.

ويروى «**وتُكْسِبُ**» رباعيا بوزن تُكْرِمُ، أي تُصَيِّر الشخص الفقير الذي يشبه المعدوم في عدم القدرة على التكسب كاسبا، لما تعطيه من المنافع، فهو مضارع

---

(1) [سورة الأنعام: 124].

(2) [سورة الفتح: 26].

«أَكْسَبَ غيره مالاً»، فالهمزة للتعدية.

وقد قيل أيضا: إن الثلاثي بمعناه، وأنه يتعدى إلى مفعولين كالذي بالهمزة، والمعدوم مفعوله الأول، والثاني حذف اقتصار، لأنه من باب أعطى أي ما ينفعه.

وقال: الخطابي[1]: الصواب المعدم من أعدم، أي: صار عديما، والهمزة للصيرورة كـ «أحصد الزرع»، أي صار صالحا للحصاد.

وقولها: «**وَتَقْرِي**» بفتح التاء بوزن «تَجْرِي»، أي تحسن إلى الضيف بما يرضى به.

وقولها: «**وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ**»، قيل: معناه تعين الملهوف على ما أصابه من النوائب التي يحق على حماة الحقيقة المعاونة فيها. وقال بعض الشيوخ: يحتمل أن تعني كما تكسب المعدم مالا، كذلك تعين الغني الواجد الذي هو ضد المعدم على ما ينوبه، أي: يعرض له من الحقوق الشرعية فإنفاقه على العيال، ونحو وليمة النكاح مما يجب أو يندب إليه، والعاديات المباحة مما يستحسن في العادة أن يعان فيها الغني والفقير. فقد جمع صلوات الله وسلامه عليه مكارم الأخلاق كلها واحتوى على المحاسن بأسرها شرعيها وعاديها. ويحتمل أن تريد وتعين نفسك على ما ينوبك من الحقوق وغيرك على ما ينوبه منها، ويكون وضعا جامعا لما تقدم

(1) هو أبو سليمان الخطّابي أحمد بن محمد بن إبراهيم بن خطّاب البستي، العلامة المحقق الفقيه الأديب، من تصانيفه معالم السنن في شرح كتاب السنن لأبي داود، وغريب الحديث، وغير ذلك، سكن بنيسابور مدّة، وتوفي رحمه الله ببست من بلاد كابل في ربيع الآخر سنة 388 هـ ـ 998 م. له ترجمة في: سير أعلام النبلاء (23/17 ـ 28)، ووفيات الأعيان (214/2 ـ 216)، وطبقات الشافعية للإسنوي (223/1).

من مكارم الأخلاق وغيرها مما لم تذكره. أو كأنها فذلكة ونتيجة، وكأنها قالت: جمعت المحاسن فما عسى أن أعد منها.

ووجه الترتيب في هذه الجمل أنها جاءت بها على حسب ما تقتضيه السنة من مراعاة الأقرب فالأقرب. فبدأت بإحسانه إلى الرحم، وحمل كلّهم إن كان هو المراد، وإذا حمل كلهم مع تكرره عادة فأجرى كل غيرهم لقلته بالنسبة إليهم. ويحتمل المراد كلّ غيرهم، وإذا حمله مع بعد الأجانب فكل رحمة أخرى، **ويحتمل** أن يكون المراد الجميع، وهو أبين. ثم بإكساب المعدم من الخير أن الأجانب في النسب وأهل مدنيّته. ثم بإكرام الضيف الذي لا يكون من أهل البلد غالبا. ثم الإعانة على نوائب الحق الشاملة للجميع.

* * *

تنبيهات

الأول: يؤخذ من تحنث النبي صلى الـلـه عليه وسلم بغار حراء طلب الخلوة للعبادة والعزلة عن الناس للاستعانة بها على حضور القلب والأمن من الرياء والسمعة، وفيها السلامة من أكثر أنواع الشر، وقد تنهي إلى حد الوجوب بحسب الأزمنة والأحوال.

وقد بين النبي صلى الـلـه عليه وسلم زمان العزلة ونعت أهله وأمر فيه بالتفرد، فروي عن عبد الـلـه بن عمرو بن العاص رضي الـلـه عنه أنه قال: «**بَيْنَمَا نَحْنُ حَوْلَ رَسُولُ الـلـه صلى الـلـه عليه وسلم إِذْ ذَكَرَ الفِتْنَةَ فَقَالَ: إِذَا رَأَيْتُمُ النَّاسَ قَدْ مَرِجَتْ عُهُودُهُمْ وَخَفَّتْ أَمَانَاتُهُمْ وَكَانُوا هَكَذَا ـ وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ ـ .**

قَالَ: فَقُمْتُ إِلَيْهِ فَقُلْتُ كَيْفَ أَفْعَلُ عِنْدَ ذَلِكَ جَعَلَنِى الـلـه فِدَاكَ؟

قَالَ: الْزَمْ بَيْتَكَ وَامْلِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ وَخُذْ بِمَا تَعْرِفُ وَدَعْ مَا تُنْكِرُ وَعَلَيْكَ بِأَمْرِ خَاصَّةِ نَفْسِكَ وَدَعْ عَنْكَ أَمْرَ الْعَامَّةِ»[1].

وذكر في خبر آخر أنه عليه السلام قال: «**تِلْكَ أَيَّامُ الهَرْجِ.**

قِيلَ: وَمَا أَيَّامُ الهَرْجِ؟

---

(1) حديث صحيح، أخرجه أحمد (212/2 رقم: 6987)، وابن أبي شيبة (447/7 رقم: 37115)، وعبد الرزاق (447/7 رقم: 37115)، وأبو داود (124/4 رقم: 4343)، والنسائي في الكبرى (59/6 رقم: 10033)، والحاكم (315/4 رقم: 7758) وصححه ووافقه الذهبي. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (414/1 رقم: 205).

قَالَ: حِينَ لاَ يَأْمَنُ الرَّجُلُ جَلِيسَهُ»[1].

وذكر ابن مسعود في خبر آخر للحارث بن عميرة أنه قال: «**أن يرفع عن عمرك، فسيأتي زمان كثير خطباؤه، قليل علماؤه، كثير سؤاله، قليل معطوه، الهوى فيه قائد العلم.**

قال: ومتى ذلك؟

قال: إذا أميتت الصلاة، وقبلت الرشا، ويباع بعرض يسير من الدنيا، فالنجاء ويحك ثم النجاء»[2].

قال الإمام الغزالي[3]: «وجميع ما ذكر في هذه الأخبار تراه بعينك في زمانك

---

(1) حديث صحيح، وهو مروي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. أخرجه أحمد (448/1 رقم: 4286)، وأبو داود (99/4 رقم: 4258)، وابن أبي شيبة (485/7 رقم: 37429)، والحاكم (473/4 رقم: 8314) وصححه ووافقه الذهبي، والطبراني في الكبير (8/10 رقم: 9774)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (336/62). قال الهيثمي في مجمع الزوائد (302/7): «رواه أحمد بإسنادين، ورجال أحدهما ثقات»، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (34/9 رقم: 3254).

(2) أخرجه مالك في الموطأ (173/1 رقم: 417)، والبخاري في الأدب المفرد:ج1/ص275 ح789)، والطبراني في الكبير (108/9 رقم: 8566) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (436/10): «رواه الطبراني بإسنادين، ورجال أحدهما رجال الصحيح غير قيس».

(3) هو حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد الطوسي الغزالي، من أعلام الشافعية وأعيان الصوفية، كان بحرا في الفقه والأصلين، وإماما قدوة في علم التزكية والتربية، ترك مصنفات كثيرة النفع في غاية الإتقان، منها إحياء علوم الدين، والمستصفى في أصول الفقه، والمنقذ من

وأهله، فانظر لنفسك.

ثم إن السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين أجمعوا على التحذير من زمانهم وأهله، وأمروا بالعزلة وتواصوا بها، ولا شك أنهم أبصر وأنصح، وأن الزمان لم يكن بعدهم إلا أشر وأمر.

وذكر عن يوسف بن أسباط[1] قال: سمعت الثوري[2] يقول: «والله الذي لا إله إلا هو، لقد حلت العزلة في هذا الزمان».

قال الإمام الغزالي رضي الله عنه: قلت أنا: ولئن حلت في زمانه ففي زماننا هذا وجبت وافترضت.

الضلال، توفي رحمه الله سنة 505 هـ ـ 1111 م. له ترجمة في: تبيين كذب المفتري (ص: 291 ـ 306)، وسير أعلام النبلاء (322/19 ـ 346)، وطبقات الأسنوي (242/2 ـ 245)، ووفيات الأعيان (216/4 ـ 219).

(1) يوسف بن أسباط بن واصل الشيباني الكوفي الزاهد، من سادات المشايخ، له مواعظ وحكم، وكان من عباد أهل الشام وقرائهم، توفي رحمه الله سنة 195 هـ ـ 811م. له ترجمة في: سير أعلام النبلاء (169/9 ـ 171)، وتهذيب التهذيب (358/11 ـ 359)، وميزان الاعتدال (462/4).

(2) هو الإمام الحافظ أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي، أمير المؤمنين في الحديث، والفقيه المجتهد، والعابد المتنسك، قال سفيان بن عيينة: ما رأيت رجلا أعلم بالحلال والحرام من سفيان الثوري، وقال ابن المبارك: لا أعلم على وجه الأرض أعلم من سفيان الثوري، وقال وكيع: كان سفيان بحرا، توفي رحمه الله بالبصرة سنة 161هـ ـ 778م. له ترجمة في: حلية الأولياء (356/6 ـ 393)، والجرح والتعديل (55/1 ـ 126) و (222/4 ـ 225)، وتذكرة الحفاظ (203/1 ـ 207)، وغاية النهاية في طبقات القراء (308/1).

وعن سفيان أيضا أنه كتب إلى عباد الخواص[1] رحمهما اللـه: أما بعد، فإنك في زمان كان أصحاب محمد صلى اللـه عليه وسلم ورضي عنهم يتعوذون باللـه من أن يدركوه فيما بلغنا، ولهم من العلم ما ليس لنا، فكيف بنا حين أدركناه على قلة علم، وقلة صبر، وقلة أعوان على الخير، وكدر من الدنيا، وفساد من الناس»؛ انتهى.

قلت أنا: فكيف لو رأى هؤلاء الأئمة رضي اللـه عنهم زماننا هذا الذي أدركناه ـ واللـه المستعان وإليه المشتكى ولا حول ولا قوة إلا باللـه ـ وهو آخر القرن التاسع الذي آن فيه خروج الدجّال، وطلوع الشمس من مغربها، ونحو ذلك من الأشراط الكبرى، فإن زمانهم وإن كان على ما كان عليه، فلم يخل ظهور علماء عاملين، ولا من وجود أولياء في معاملتهم صادقين، بحيث يجد المسكين الطالب للآخرة من يصح الاقتداء به في أقواله وأفعاله، ويجد من يعينه على عزمه والزيادة في أحواله، وأما زماننا هذا الصعب النكد، فلم يظهر فيه إلا قطاع طريق اللـه، وإن خالطهم أحد لأخذ علم أو دين ضل إن لم يأخذ اللـه بيده، واتخذ إلهه هواه، وإن أمسك برأ عن المخالطة ليسلم له دينه وعقله احتوشته الشياطين، وأعانهم على ما قصدوا منه جهله، فأنى له بالسلامة في كلتا الحالتين؟ وكيف له بالنجاة في تعاطي

(1) هو أبو عتبة عباد بن عباد الرملي الأرسوفي الخواص، فارسي الأصل سكن أرسوف من فلسطين، كان من فضلاء أهل الشام وعبادهم، وكتب إليه سفيان الثوري الرسالة المشهورة في الوصايا والآداب والحكم والأمثال والمواعظ، وثقه ابن معين، وقال العجلي: ثقة رجل صالح. له ترجمة في حلية الأولياء (281/8 ـ 282)، وتهذيب الكمال (134/14 ـ 135)، وتهذيب التهذيب (85/5).

الخصلتين؟ وكيف لا يبكي الدم في زماننا هذا وغاية ما يتصف به أكابر علمائنا الذين إليهم المرجع في أمر الدين وإقامته لو وفق الله وأشرف أحوالهم أن يصيروا من أكابر أعوان الظلمة على ظلمهم ومشاركتهم لهم في ذلك قولا وفعلا من غير مبالاة في ذلك؟ كأنهم سلبوا حقيقة من دينهم وعلمهم.

وأما من يظهر من أولياء زماننا فأكملهم من له حسن نية حتى يفسدون عليه ذلك، ويردونه إن لم يعصمه الله إلى أقبح حال، ويقرونه بإظهار القبيح في قالب الحسن، حتى يشاركهم فيما هم عليه من فاسد الخلال، فـ (إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) [1].

هَذَا الزَّمَانُ الذيْ كُنَّا نُحَاذِرُهُ فِي قَوْلِ كَعْبٍ وَفِي قَوْلِ ابْنِ مَسْعُوْدِ

إِنْ دَامَ هَذَا وَلَمْ يحْدُثْ لَهُ غَيْرٌ لَمْ يُبْكَ مَيْتٌ وَلَمْ يُفْرَحْ بِمَوْلُوْدِ [2]

فعلى العاقل في زماننا هذا أن يستعمل ما يقدر عليه من الحيل في تحصيل ما يحتاج إليه من العلم، على وجه يحتاط معه أن لا يسرق طبعه شيئا من الطباع القبيحة التي توجد في علماء هذا الزمان، فإذا حصل ذلك فرّ بنفسه وترك الناس جملة، وأخمل ذكره ما استطاع وليحذر صحبة الظلمة وأعوانهم، وأخذ خطة من الخطط التي تؤدي إلى معرفتهم، ويعينه على ذلك مع توفيقه جل وعلا القناعة والرضا بالدون في الملبس والمأكل والمسكن، وبالله سبحانه التوفيق، ولا حول ولا قوة إلا به.

---

(1) [سورة البقرة: 156].

(2) نقلهما أبو منصور الثعالبي في خاص الخاص (ص: 70).

الثاني: قال الشيخ سيدي محمد بن مرزوق: «في تزوده صلى اللـه عليـه وسـلم في تخليـه يرد قول الصوفية: إن من أخلص لله عز وجل أنزل عليه طعاما، والنبي صلى اللـه عليه وسلم أولى بهذه المنزلة.

فإن قيل: إنما فعل ذلك لكونه مشرعا رفقا بأمته.

قيل: أجل فإذا كان التشريع يلزمنا الاقتداء به فلنحمل الزاد كما حمل، وأيـن دليـل تركـه وهو سنته وسنة المرسلين قبله، (قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا)[1]، مع أن ذلك السفر كان لطلب العلم، وهو من أجلّ الطاعات، ومثله في القرآن كثير جدا». انتهى

قلت: حمل الزاد ليس مقصودا لنفسه، وإنما القصد به حفـظ البنيـة عنـد الحاجـة إليـه، فمن جرى له حال مع مولاه جل وعلا بإنائه عـن الطعـام والشراب بمـا شـاء أو يسـهل عليـه وجوده عند الاحتياج إليه من غير إحراج إلى مشقة الحمل، فإن حمل الزاد بالنسـبة إلى هـذا لا فائدة له، ومثل هذا وقع كرامة الأولياء، ونقل عنهم بالتواتر المعنـوي ولا ينكـره إلا مـن لم يذق شيئا من أحوالهم، وذلك ومثله زيادة في أدلـة صـدق النبـي صـلى اللــه عليـه وسـلم، وبرهان واضح على شرف شريعته زادها اللــه شرفـا وتعظـيما، إذ لم ينـل أحـد مـا نـال مـن المراتب العلية إلا ببركة تعلقه بأذيال ملته المرقّعة صلوات اللـه وسلامه عليه.

أمـا الأنبيـاء صـلوات اللــه وسـلامه علـيهم، فلـما كـانوا في مقـام القـدوة لجميـع

---

(1) [سورة الكهف: 62].

الخلق ضعيفهم وأقواهم وجاهلهم وعالمهم وأعلمهم، ارتكبـوا أسـلم الطريـق وأيسرهـا عـلى الخلق، بحيث يأنس ويأوي إليهم القوي والضعيف، والوضـيع مـن النـاس والشريـف، وذلـك معلوم من أحوالهم قطعا.

وما ذكر في الجواب من أن التشريع يلزمنـا الاقتـداء بـه، إن أراد بلـزوم الاقتـداء وجـوب الفعل علينا فظاهر المنع، لأن التشريع يكون للمباح كما يكون للواجب، واللازم فعله الثاني لا الأول، ولا شك أن حمل النبي صلى الـلـه عليه وسلم للـزاد مـن قبيـل تشريـع المبـاح لا مـن تشريع الواجب.

وإن أراد لزوم الاقتداء به في الوجـه الـذي فعلـه عليـه وهـو الإباحـة، فمسـلم ولا يعيـد مطلوبه إذ لا ريب أن الصوفية رضي الـلــه عـنهم مقـرّون بإباحـة حمـل الـزاد، وإنمـا القـوم مخبرون بما أنعم الـلـه عليهم من شريف الأحوال وما أوصلهم إليه حسن الاتباع للنبي صـلى الـلـه عليه وسلم في الأقوال والأفعال.

وقوله: «وأين دليل تركه» أي ترك حمل الزاد؟ نقول: كثير.

منها الإجماع على أن حمل الزاد ليس مقصودا لنفسه، فمن حصل لـه المقصـد لم يطلـب بالوسيلة.

ومنها قوله تعالى : (وَمَنْ يَتَّقِ الـلـه يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِـبُ)[1]، وقوله تعالى: (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى الـلـه فَهُوَ حَسْبُهُ) [2].

(1) [سورة الطلاق: 2 ـ 3].

(2) [سورة الطلاق: 3].

وقوله تعالى: (وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ) [1].

وقوله تعالى: (وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ) [2].

وقوله صلى الله عليه وسلم : «**لَوْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى الله حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرُزِقْتُمْ كَمَا تُرْزَقُ الطَّيْرُ تَغْدُو خِمَاصاً وَتَرُوحُ بِطَاناً**»[3].

على أن الأولياء رضي الله عنهم لضعفهم بالنسبة إلى مرتبة الصحابة فضلا عن مرتبة النبوة، إذا منَّ عليهم بحال شريف تاهوا في بحره ولم يضبطوا أنفسهم في بعض الأوقات، حتى يقوموا بما يطلب بظاهر الشرع معه، بل هم في ذلك كالسكارى والبله الذين لا يكلفون بما ذهلوا عنه.

وأما الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم فهم وإن حصلت لهم مقامات وأحوال لم يطق أكابر الأولياء الدنوّ من أدناها، ضابطون مع ذلك لأنفسهم

---

(1) [سورة المائدة: 66].

(2) [سورة الجن: 16 ـ 17].

(3) حديث صحيح، وهو مروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه. أخرجه أحمد (30/1 رقم: 205)، والترمذي (573/4 رقم: 2344)، وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (1394/2 رقم: 4164)، وابن حبان (509/2 رقم: 730)، والحاكم (354/4 رقم: 7894) وقال: «صحيح الإسناد»، وابن المبارك في الزهد (ص: 196 رقم: 559)، والطيالسي (ص: 11 رقم: 51)، وأبو يعلى (212/1 رقم: 247)، والبيهقي في شعب الإيمان (66/2 رقم: 1182)، والضياء (333/1 رقم: 227) وقال: «إسناده صحيح».

مالكُون لأحوالهم، لعظيم رزانة عقولهم ورسوخ معرفتهم ونباهة شأنهم، فلم تغلبهم الأحوال مع قوة أمرها ورفعة لمعان أنوارها أن تشغلهم إلى الالتفات إلى ما هم بصدده من كمال النصيحة للخلق، وسوق جميعهم بألطف وجه إلى عبادة الله عز وجل.

قال الإمام الغزالي رضي الله عنه: «فإن قلت: فالمتوكل هل يحمل الزاد معه في الأسفار؟

فاعلم أنه ربما يحمل ولا يعلق القلب به بأنه لا محالة رزقه وفيه قوامه، وإنما يعلق القلب بالله تعالى ويتوكل عليه ويقول: إن الرزق مقسوم مفروغ منه، والله تعالى إن شاء أقام بنيتي بهذا أو غيره؛ وربما يحمل بنية أخرى بأن يعين مسلما أو نحو ذلك، وليس الشأن في أخذ الزاد وتركه إنما الشأن بالقلب، لا تعلق قلبك إلا بوعد الله وحسن كفايته وضمانه، فكم من حامل الزاد وقلبه مع الله تعالى، وكم تارك للزاد وقلبه مع الزاد دون الله تعالى، فالشأن إذًا في القلب.

ثم قال: فإن قيل: فالنبي صلى الله عليه وسلم كان يحمل الزاد، وكذلك الصحابة والسلف الصالح رضي الله عنهم.

يقال: فلا جرم أن ذلك مباح غير حرام، وإنما الحرام تعليق القلب بالزاد وترك التوكل على الله سبحانه، فافهم ذلك، ثم ما ظنك برسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال تعالى له: (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ)[1]، أعطاه في ذلك وعلق

(1) [سورة الفرقان: 58].

قلبه بطعام أو شراب أو درهم أو دينار، كلا وحاشا أن يكون ذلك، بل كان قلبه مع اللـه تعالى وتوكله عليه جل وعلا، فإنه الذي لم يلتفت إلى الدنيا بأسرها ولم يمد يده إلى مفاتيح خزائن الأرض كلها، وإنما كان أخذ الزاد منه؛ ومن السلف الصالح لنيات الخير لا يميل قلوبهم عن اللـه تعالى...

ثم قال: فإن قلت: فأيهما أفضل أخذ الزاد أو تركه؟

فاعلم أن هذا يختلف باختلاف الحال، إن كان مقتدى به يريد أن يبين أن أخذ الزاد مباح أو ينوي به عون مسلم أو إعانة ملهوف ونحو ذلك فالأخذ أفضل، وإن كان منفردا قوي القلب باللـه تعالى يشغله الزاد عن عبادته جل وعلا فالترك أفضل».

وقال رضي اللـه عنه في موضع آخر: «فإن قلت: هل تدخل البرية بلا زاد؟

فاعلم إن كان لك قوة القلب باللـه تعالى والنية والثقة البالغة بوعد اللـه فادخل، وإلا كنت كالعوام.

ولقد ذكر عن إبراهيم بن أدهم رحمه اللـه[1] لما أراد أن يدخل البادية أتاه الشيطان فخوفه أن هذه بادية مهلكة ولا زاد معك ولا سبب، فعزم على نفسه رحمه اللـه أن يقطع البادية على تجرده ذلك ولا يقطعها حتى يصلي تحت كل ميل

---

(1) هو أبو إسحاق إبراهيم بن أدهم بن منصور التميمي البلخي، الإمام القدوة سيد الزهاد، مناقبه وكراماته لا تحصى، توفي رحمه اللـه سنة 161 هـ ـ 778م. له ترجمة في تاريخ دمشق (277/6 ـ 350)، وحلية الأولياء (367/7 إلى 58/8)، وسير أعلام النبلاء (387/7 ـ 396).

من أميالها ألف ركعـة، وقـام بمـا عـزم عليـه، وبقـي في الباديـة اثنتـي عشرة سـنة، حتـى إن الرشيد[1] حج في بعض تلك السنين فرآه تحت ميل يصلي فقيل له: هـذا إبـراهيم بـن أدهـم، فأتاه فقال: كيف تجدك يا أبا إسحاق؟ فأنشأ إبراهيم يقول:

نُرقِـــعُ دُنْيَانَـــا بِتَمْزِيْـــق دِيْنِنَـــا   فَـــلا دِيْنُنَـــا يَبْقَـــى وَلا مَـــا نُرَقّـــعُ

فَطَــوبَى لِعَبْــدٍ آثَــر اللـــه وَحْــدَهُ   وَجَـــادَ بِـــدُنْيَاه لِـــمَا يُتَوَقَّـــعُ

وعن بعض الصالحين رحمه اللـه أنه كان في بعض البوادي فوسوس إليه الشـيطان بأنـك متجرد، وهذه بادية لا عمران فيها، فعزم على نفسه بأن يمضي على تجرده، وأن يترك الطريـق حتى لا يقع بأحد من الناس ولا يأكل شيئا حتى يجعل في فيه السمن والعسل، ثم عدل عـن الشارع ومضى على وجهه.

قال رحمه اللـه: فصرت ماشـيا مـا شـاء اللـــه، فـإذا بقافلـة قـد أضـلت الطريـق وهـم يسيرون، فلما رأيتهم رميت بنفسي إلى الأرض لعلهم لا يبصرون، فسيرهم اللـــه حتـى وقفـوا علي، فغمضت عيني فدنوا مني، وقالوا: منقطع غشي عليه من الجوع والعطش، فهاتوا سمنا وعسلا نجعله في فيه لعله يفيق، فأتوا بسمن وعسل، فشددت فمـي وأسـناني، فـأتوا بسـكين فعالجوا حتى فتحوه، فضحكت وفتحت فمي، فلما رأوا ذلـك قـالوا مجنـون أنـت؟ قلـت: لا والحمد لله، وأخبرتهم ببعض ما جرى لي مع الشيطان.

وعن بعـض مشـايخنا رحمـه اللـــه قـال: نزلـت في بعـض أسـفاري أيـام التعلـيم

---

(1) أي: الخليفة العباسي هارون الرشيد.

مسجدا، وكنت متجردا على عادة أوليائنا، فوسوس إليَّ الشيطان بأن هـذا مسـجد بعيـد عـن الناس لو صرت إلى مسجد بين الناس لرآك أهله وقاموا بكفايتك.

فقلت: لا أبيت إلا هاهنا وعلي عهد اللـه لا آكل شيئا إلا الحلواء، ولا آكله حتـى يوضـع في فمي لقمة لقمة، فصليت العتمة، وأغلقت الباب.

فلما مضى صدر من الليل، إذا أنا بإنسان يدق الباب ومعه سراج، فلما أكثر الـدق فتحـت الباء، فإذا أنا بعجوز قد دخلت فوضعت بين يدي طبقا من الخبيص[1] وقالـت: هـذا الشـاب ولدي صنعت له هذا الخبيص، وجرى مني كلام وحلف[ت أن لا يأكل حتى يأكل معه] رجل غريب، أو قالت: هذا الغريب الذي في المسجد فكل رحمه اللـه، وأخذت تضـع في فيَّ لقمـة وفي في ولدها لقمة.

وعن إبراهيم الخواص قال: «لقيت غلاما في التيه كأنه سبيكة فضة.

قلت: إلى أين يا غلام؟ قال: إلى مكة.

قلت: بلا زاد ولا راحلة؟

فقال: يا ضعيف اليقين الذي يقدر عـلى حفـظ السـموات والأرض يقـدر أن يوصـلني إلى مكة بلا زاد ولا راحلة. فلما دخلت مكة فإذا هو في الطواف يقول:

يـــا نـــفسي ســـحي أبـــدا	يـــا نـــفسي مـــوتي كمـــدا
ولا تحبــــــــي أحــــــــدا	إلا الجليــــــــل الصــــــــمدا

(1) **الخَبِيصُ:** الحلواء المخبوصة من التمر والسمن، وجمعها أخبصة. انظر مادة: **خبص**، في تاج العروس.

فلما رآني قال: يا شيخ أنت بعد [على] ذلك الضعف [من اليقين]».

وقال أبو مطيع[1] لحاتم الأصم[2]: «بلغني أنك تقطع المفاوز بالتوكل من غير زاد.

قال حاتم: زادي أربعة أشياء.

قال: ما هي؟

قال: أرى الدنيا والآخرة مملكة لله عز وجل، وأرى الخلق كلهم عبيداً لله وعياله، وأرى الأرزاق والأسباب كلها بيد الله سبحانه، وأرى قضاء الله نافذا في جميع أرض الله»[3].

ولأجل حوز الأولياء رضي الله عنهم هذه الخصلة العظيمة، وهي خصلة التوكل تفرغوا بسبب أحكامها لعبادة الله تعالى وتمكنوا من التفرد عن الخلق، والسياحة في الأرض، واقتحام الفيافي، واستيطان الجبال والشعاب، فصاروا

---

(1) هو أبو مطيع الحكم بن عبد الله بن مسلمة بن عبد الرحمن البلخي الخراساني، صاحب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه وكان من كبار أصحابه وهو راوي الفقه الأكبر عنه، وروى عن مالك بن أنس وسفيان الثوري، ضُعِّفَ في رواية الحديث، توفي رحمه الله ببلخ ليلة السبت لاثنتي عشرة خلت من جمادى الأولى، سنة 199هـ ـ 815م. له ترجمة في: تاريخ بغداد (223/8)، والجواهر المضية في طبقات الحنفية (ص: 265 ـ 266)، ولسان الميزان (334/2 ـ 335).

(2) هو أبو محمد حاتم بن علوان بن يوسف الأصم من أهل بلخ، الزاهد القدوة الرباني، صحب شقيقا البلخي، وله في التوكل شأن عجيب، توفي رحمه الله سنة 237هـ ـ 851م. له ترجمة في: حلية الأولياء (73/8 ـ 83)، وتاريخ بغداد (241/8 ـ 245)، والجواهر المضية (ص: 182)، وسير أعلام النبلاء (484/11 ـ 487)

(3) ذكره ابن أبي الوفاء في الجواهر المضية في طبقات الحنفية (ص: 182).

أقوياء، ورجال الدين أحرار الناس وملوك الأرض بالحقيقة يصيرون حيث يشاؤون، وينزلون حيث يشاؤون، ويقصدون من الأمور العظام علما وعبادة ما يشاؤون، لا عائق لهم ولا حاجز دونهم، وكل الأماكن لهم واحد، وكل الأزمان لهم واحد، وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم : «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَقْوَى النَّاسِ فَلْيَتَّقِ الله، وَمَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَغْنَى النَّاسِ فَلْيَكُنْ بِمَا فِي يَدِ الله أَوْثَقَ مِنْهُ بِمَا فِي يَدِهِ**»[1].

وعن سليمان الخواص[2]: «لو أن رجلا توكل على الله سبحانه بصدق النية

(1) أخرجه الإمام أحمد في الزهد (ص: 295)، والحاكم (301/4 رقم: 7707) وقال: صحيح، وتعقبه الذهبي فقال: هشام متروك، ومحمد بن معاوية كذبه الدارقطني فبطل الحديث، ورواه عبد بن حميد في مسنده (ص: 225 رقم: 675)، والطبراني في الكبير (320/10 رقم: 10781)، والعقيلي في الضعفاء (340/4 في ترجمة هشام بن زياد بن سعدويه) وقال: ليس لهذا الحديث طريق يثبت، والبيهقي في السنن (272/7 رقم: 14365)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (132/55)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (59/8): «فيه هشام بن زياد أبو المقدام، وهو متروك»، ولفظه كما في مستدرك الحاكم: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ أَقْوَى النَّاسِ فَلْيَتَوَكَّل عَلَى الله، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ أَكْرَمَ النَّاسِ فَلْيَتَّقِ الله عَزَّ وَجَلَّ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ أَغْنَى النَّاسِ فَلْيَكُنْ بِمَا فِي يَدِ الله أَوْثَقَ مِمَّا فِي يَدِهِ».

(2) هو أبو أيّوب سليمان الخواص، من العابدين الكبار بالشام وزهادهم، ومن أقران إبراهيم بن أدهم، قال الذهبي في تاريخ الإسلام: «ما ظفرت له بوفاة، ولكنّ وفاته قريبة من وفاة إبراهيم بن أدهم، رحمهما الله». له ترجمة في: حلية الأولياء (276/8 ـ 277)، والثقات لابن حبان (277/8)، وسير أعلام النبلاء (8/ 178 ـ 179)، وتاريخ الإسلام (251/10 ـ 254).

لاحتاج إليه الأمراء ومن دونهم، وكيف يحتاج ومولاه الغني الحميد».

واعلم أن المضمون من الرزق ما به قوام البنية دون سائر الأسباب.

قال الإمام الغزالي رضي الله عنه: فإن قيل لهذا الرزق المضمون أسباب فهل يلزمنا طلبها؟

قيل: لا يلزم ذلك، إذ لا حاجة للعبد إليه، فإنه سبحانه يفعل بسبب وبغير سبب، فمن أين يلزمنا طلب السبب.

ثم إن الله تعالى ضمن لك ضمانا مطلقا من غير شرط الطلب والكسب.

ثم كيف يصحّ أن يأمر العبد بطلب ما لا يعرف مكانه فيطلبه إذ لا يعرف أي سبب منها رزقه الذي يتناوله لا غير، وما هو سبب غذائه وتربيته.

ثم حسبك أن الأنبياء صلوات الله عليهم والأولياء المتوكلون لم يطلبوا رزقا في الأكثر وتجردوا للعبادة. **فإن قلت:** هل يزيد الرزق بالطلب؟

قيل: كلا، إنه مقدر مؤقت ولا تبديل لحكم الله ولا تغيير لقسمته.

هذا هو الصحيح عند علمائنا رضي الله عنهم، خلاف ما ذهب إليه بعض أصحاب حاتم وشقيق، قالوا: إن الرزق لا يزيد ولا ينقص بفعل العبد، لكن المال يزيد وينقص، وهذا فاسد، لأن الدليل في الموضعين واحد، قال تعالى: (لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ)[1]، ولو كان للطلب فائدة لكان الأسى والفرح موضع إذا قصر وتوانى، وقال رسول الله صلى الله عليه

(1) [سورة الحديد: 23].

وسلم : «**هَاكَ، وَلَوْ لَمْ تَأْتِهَا لَأَتَتْكَ**»[1].

فإن قيل: فنحن نجد الطالبين يجدون الأرزاق والأموال والتاركين يعدمون ويفتقرون؟

قيل، كأنك لا تجد مع ذلك طالبا محروما فقيرا وفارغا مرزوقا غنيا، بل إن هذا هو الأكثر، لنعلم أن ذلك تقدير العزيز العليم، وتدبير الملك الحكيم، وأنشدني أبو بكر محمد بن سابق الصقلي الواعظ[2] رحمه الله بالشام[3]:

كَمْ مِنْ قَوِيٍّ قَوِيٍّ فِي تَصَرُّفِهِ ... مُهَذَّبُ الرَّأْيِ عَنْهُ الرِّزْقُ مُنْحَرِفُ

وَكَمْ ضَعِيفٍ ضَعِيفٍ فِي تَقَلُّبِهِ ... كَأَنَّهُ مِنْ خَلِيجِ الْبَحْرِ يَغْتَرِفُ

هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الإِلَهَ لَهُ ... فِي الْخَلْقِ سِرٌّ خَفِيٌّ لَيْسَ يَنْكَشِفُ

انتهى.

---

(1) رواه ابن حبان (33/8 رقم: 3240)، والبيهقي في شعب الإيمان (70/2 رقم: 1190)، ونسبه الهيثمي في مجمع الزوائد (71/4) للطبراني وقال: «رجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن أحمد، وهو ثقة مأمون»، وقال المنذري في الترغيب (340/2): «رواه الطبراني بإسناد جيد»، وقال العراقي في المغني عن حمل الأسفار (1126/2) «ووصله الطبراني عن هذيل عن ابن عمر، ورجاله رجال الصحيح».

(2) هو أبو بكر محمد بن سابق الصقلي، كان خبيرا بعلم الكلام، صنف البديع في فروع المالكية وتخريج ما لم يقع لهم منها على مذهبهم من تفاريع الشافعية، توفي رحمه الله بمصر في ربيع الأول سنة 493هـ ـ 1100م. له ترجمة في: الصلة (872/3)، وتاريخ الإسلام (164/34)، وكشف الظنون (236/1).

(3) هذه الأبيات نسبها أبو نعيم في الحلية (276/7) لسفيان بن عيينة رحمه الله.

قلت: وإنما أطلنا في هذا التنبيه، لأن هلاك أكثر الخلق بسبب أمر الـرزق، وقـد قـالوا: إن الشك في الرزق شك في الرازق.

وقد روي أن نبّاشا تاب على يدي أبي يزيد البسطامي[1] رضي اللـه عنه، فأخبره أنه نـبش ألف قبر فلم ير وجوههم إلى القبلة إلا رجلين.

فقال أبو يزيد: مساكين أولئك تهمة الرزق حوّلت وجوههم عن القبلة.

وقد رأى بعض أصحاب الإمام الغزالي رجلا من أهل الصلاح فسأله عن حاله فقـال: هـل سلمت بإيمانك؟

فقال: إنما يسلم الإيمان للمتوكلين.

وعن أويس القرني[2] رضي اللـه عنه: «لو عبدت عبادة أهل السموات والأرض، لما تقبـل منك حتى تصدقه.

قيل: وكيف نصدقه؟

---

(1) هو أبو يزيد طيفور بن عيسى بن شروسان البِسْطَامِي، الإمام العارف الزاهد المشهور، توفي رحمه اللـه سنة 261هـ ـ 875م. له ترجمة في: حلية الأولياء (33/10 ـ 42)، وسير أعلام النبلاء (86/13 ـ 89)، وميزان الاعتدال (346/2 ـ 347)، ووفيات الأعيان (531/2).

(2) هو أبو عمرو أويس بن عامر بن جزء بن مالك القرني المرادي أصله من اليمن، القدوة الزاهد، سيد التابعين في زمانه، أدرك حياة النبي صلى اللـه عليه وسلم ولم يره، فوفد على عمر بن الخطاب ثم سكن الكوفة، شارك مع علي رضي اللـه عنه في معركة صفين واستشهد بها سنة 37هـ ـ 657م. له ترجمة في: حلية الأولياء (79/2 ـ 87)، وتاريخ ابن عساكر (408/9 ـ 455)، وسير أعلام النبلاء (19/4 ـ 33).

قال: تكون آمنا مما تكفل اللـه تعالى من أمر رزقك، وترى جسدك فارغا للعبادة».

ولقد قال له هرم بن حبان: «أين تأمرني أن أقيم؟

فأومأ إلى الشام.

فقال له: كيف المعيشة بها؟

فقال أويس: أف لهذه القلوب، لقد خالطها الشك فما تنفعها الموعظة».

نسأل اللـه أن يصلحنا بفضله، ولا يؤاخذنا بما نحن أهله، إنه أرحم الراحمين.

الثالث: في غط جبريل عليه السلام للنبي صلى اللـه عليه وسلم إشارة إلى أن نيل معالي الأمور لا يكون إلا بالصبر على ما يكره الإنسان، وتحمل المشاق العظيمة بحسب تلك المعالي سنة اللـه تعالى في عباده.

قال تعالى: (يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ) [1]،(وَكَتَبْنَا لَـهُ فِي الْأَلْـوَاحِ) الى (فَخُـذْهَا بِقُـوَّةٍ) [2]،(وَجَعَلْنَـا مِـنْهُمْ أَئِمَّـةً يَهْـدُونَ بِأَمْرِنَـا لَـمَّا صَـبَرُوا) [3]، (وَأَوْرَثْنَـا الْقَـوْمَ الَّـذِينَ كَـانُوا يُسْتَضْـعَفُونَ مَشَـارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَـا الَّتِـي بَارَكْنَـا فِيهَـا وَتَمَّـتْ

(1) [سورة مريم: 12].

(2) من قوله تعالى: (وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ) [سورة الأعراف: 145].

(3) [سورة السجدة: 24].

كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا) [1]،(أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا) [2]، (سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ) [3].

تُريـــدِينَ إدراكَ المعـــالي رَخِيصـــةً ... ولا بُـدَّ دونَ الشـهْدِ مـن إبـرِ النَّحْـلِ[4]

***

وَمَــنْ لَـمْ يَـذُقْ ذُلَّ الـتَّعَلُّمِ سَـاعَةً ... تَجَـرَّعَ كَـأْسَ الْجَهْـلِ طُـولَ حَيَاتِـهِ

***

الصَّــــبْرُ مِفْتَــــاحُ مَـــا يُرجـــى ... وَكُــــلُّ خَــــيْرٍ بِـــــهِ يَكُـــونُ

فَاصْــــبِرُوا وَإِنْ طَالَـــتْ اللَّيَـــالِي ... فَرُبَّمَــــا أَمْكَــــنَ الْحَـــــزُونُ

وَرُبَّمَــــا نِيــــلَ بِاصْــــطِبَارِ ... مَـــا قِيـــلَ هَيْهَـــاتَ لَا يَكُـــونُ

***

لَا تَيْأَسَـــنَّ وَإِنْ طَالَـــتْ مُطَالَبَـــةٌ ... إِذَا اسْـتَعَنْتَ بِصَـبْرٍ أَنْ تَـرَى فَرَجَـا

أَخْلِقْ بِذِي الصَّبْرِ أَنْ يَحْظَـى بِحَاجَتِـهِ ... وَمُـدْمِنِ الْقَـرْعِ لِلْأَبْـوَابِ أَنْ يَلِجَـا[5]

وقد تقدمت فوائد أخرى في غط جبريل عليه السلام للنبي صلى اللـه عليه وسلم.

* * *

---

(1) [سورة الأعراف: 137].

(2) [سورة الفرقان: 75].

(3) [سورة الرعد: 24].

(4) البيت للمتنبي.

(5) البيتان لمحمد بن يسير البصري الشاعر، انظر الأغاني (43/14).

3 ـ حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ بُكَيْرٍ قَالَ: حَدَّثَنَا اللَّيْثُ عَنْ عُقَيْلٍ عَنِ ابْنِ شِهَابٍ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهَا قَالَتْ: أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لاَ يَرَى رُؤْيَا إِلاَّ جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلاَءُ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ ـ وَهُوَ التَّعَبُّدُ ـ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، قَالَ: فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ)، فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم يَرْجُفُ فُؤَادُهُ، فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رضي الله عنها فَقَالَ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي، فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، فَقَالَ لِخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ: لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي، فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلاَّ وَالله مَا يُخْزِيكَ الله أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ، فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ ـ وَكَانَ امْرَأً تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ، فَيَكْتُبُ مِنَ الإِنْجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ الله أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ ـ فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يَا ابْنَ عَمِّ، اسْمَعْ مِنَ ابْنِ أَخِيكَ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: يَا ابْنَ أَخِي، مَاذَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم خَبَرَ مَا رَأَى، فَقَالَ لَهُ

وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللـه عَلَى مُـوسَى صلى اللــه عليـه وسـلم، يَـا لَيْتَنِـي فِيهَـا جَذَعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُـكَ قَوْمُـكَ، فَقَـالَ رَسُـولُ اللــه صلى اللــه عليـه وسـلم : **أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟، قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَـطُّ بِمِثْـلِ مَـا جِئْـتَ بِـهِ إِلاَّ عُـودِيَ، وَإِنْ يُـدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا، ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ وَفَتَرَ الْوَحْيُ».**

(ص) «**فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ، حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلٍ...**» إلى قوله: «**وَفَتَرَ الْوَحْيُ**»[1].

(ش) أقول: لما عرفت خديجة رضي اللـه عنها كرامته صلى اللــه عليـه وسـلم عـلى ربـه واستشعرت على سبيل الإجمال أنه قصد به أرفع الأمور وأرادت أن تعـرف ذلـك عـلى سـبيل التفصيل، فانطلقت به إلى ورقة لما معه من العلم بأمر ذلك.

وفيه عدم الاستبداد بالرأي، والاستعانة بالعلماء لا سيما في المهمات من الأمور.

قوله: «**وَكَانَ ـ وَرَقَةُ**[2] **ـ يَكْتُبُ الْكِتَابَ**» يحتمـل أن يكـون الكتـاب اسـما بمعنـى الخـط، ويحتمل أن يكون مصدر «كتب» نحو كَذَبَ كِذَاباً.

و«**الْعِبْرَانِيّ**» نعت له على الاحتمالين، وهو خط أهل التوراة المنتمين لشريعة موسى.

---

(1) أطرافه في: 3392، 4953، 4955، 4956، 4957، 6982.

(2) كلمة «ورقة» لم ترد في رواية البخاري.

وفي مسلم والرؤيا من البخاري[1] «**الْكِتَابَ الْعَرَبِيَّ فَيَكْتُبُ مِـنَ الإِنْجِيـلِ بِالْعَرَبِيَّـةِ**»، قيـل: وهو أصح لاتفاقهما.

قال بعض الشيوخ: وهو أصح لاتفاقهما عليه.

قال بعض الشيوخ: ولا منافاة بينهما تقتضي الحكم بالأصحية، لاحتمال أنه تعلـم الخطـين واللسانين فعرفهما.

وهو الظاهر، لأنه لا يتمكن من تعلم ذلك الدين حق التمكن إلا بذلك، وإنما كان يكتـب من الإنجيل ليراجعه عند الحاجة إليه على العادة في الكتب، أو ليدرسه ويحصله حفظا.

لا يقال: إنما وصف بالكتب دون الحفظ، لأن حفظ التوراة والإنجيل لم ييسر حفظهما كما يسر حفظ القرآن.

لأنا نقول: الذي لم ييسر فيهما حفظ الجميع أو الكثير.

قوله: «**وَكَانَ شَيْخًا كَبِيراً قَدْ عَمِـيَ**»، جملـة وكـدت تحقـق العلـم وزيـادة العقـل بطـول التجارب وكثرة ممارسة العلم وأهله.

قولها: «**يَا ابْنَ عَمٍّ، اسْمَعْ مِنِ ابْنِ أَخِيكَ**».

قالت رضي اللــه عنهـا: «**مِـنِ ابْـنِ أَخِيـكَ**»، ولم تقـل: «مـن محمـد»، تلطفـا منهـا فـيما يوجب إقباله عليه بجميع فكره وكمال نصحه، إذ جعلتـه عـمًّا لـه، والعـم أحـد الأبـوين، ولهـذا تلطـف هـو أيضـا فـيما يزيـل الوحشـة عـن النبـي صـلى اللــه عليـه وسـلم،

---

(1) أي: في صحيح مسلم وكتاب الرؤيا من صحيح البخاري.

حتى لا يكتم عنه من أمره شيئا، بأن قال له: يا ابن أخي، ما ترى؟ ولم يقل له: يا محمد.

وفي عدولها رضي الله عنها عن حكاية أمر النبي صلى الله عليه وسلم مع معرفتها به إلى أن أحالت عليه حسن أدب، لا سيما في حق النساء لاستعظام تقدّمهن بنقل الكلام الذي يمكن ممن حضر من الرجال مطلقا، فكيف بصاحب القضية الذي هو أفصح الفصحاء وأبلغ البلغاء، ومن أوتي جوامع الكلم، وتستحي الألسنة واللّسن أن تفوه بكلمة عند حضوره الرفيع المعظم صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم.

ويحتمل أن تكون أحالت عليه لتتلذذ بسماع الحكاية من فيه ثانيا.

أو للاحتياط، لاحتمال التقصير في النقل.

وأيضا فقرائن الأحوال عند سماع القضية من صاحبها لها أثر عظيم في زيادة فهم السامع، ولهذا رأينا بعض شيوخنا الأكابر رضي الله عنه يزجر من ينقل له سؤال سائل مع حضوره.

ومن هذا المعنى اشتراط أهل المذهب في النقل عن الشاهد تعذر السماع منه، وقوّوه مع ذلك باشتراط أن ينقل عنه اثنان فأكثر.

قوله: «**هَذَا النَّامُوسُ**» على وزن فاعول، وهو صاحب سرّ الملك.

والملك هنا هو الله جل وعلا، وجبريل عليه السلام هو الذي يلقي إليه سبحانه وتعالى ما يوصل إلى أنبيائه عليهم السلام.

وقال ابن دريد[1]: ناموس الرجل: صاحب سرّه، وكل شيء سترت فيه شيئا فهو ناموس له.

قوله: «**الَّذِي نَزَّلَ اللـه عَلَى مُوسَى**»، إنما خص موسى عليه السلام بالذكر دون عيسى وإن كان على شريعته، لأنه لم يكن في غير هذه الشريعة أكثر تكاليف من قوم موسى، فكان يكثر عليه تردّد جبريل عليه السلام، ولأن عيسى جاء بتصديق موسى، والتوراة ولم تنسخ شريعته من أحكامها إلا قليلا (وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ) [2]، ولأنه أرسل إلى بني إسرائيل كموسى، وهذا أولى ما قيل.

وقال بعضهم: خص موسى لأنه بعث بالنقمة على فرعون، وبعث محمدا صلى اللـه عليه وسلم بالنقمة على فرعون هذه الأمة وهو أبو جهل، أو لاتفاق أهل الكتابين على نزوله على موسى عليه السلام، وأما عيسى عليه السلام فكثير من اليهود ينكرون نبوته، وفيها نظر.

أما الأول: فلأن هذا القول قبل أن يعرف هل ينتقم اللـه من أبي جهل على يد النبي صلى اللـه عليه وسلم أم لا.

---

(1) هو أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي البصري، أحد أئمة اللغة والأدب، قيل عنه: هو أشعر العلماء وأعلم الشعراء، كان آية من الآيات في قوة الحفظ، توفي رحمه اللـه سنة 321هـ ـ 933م. له ترجمة في: تاريخ بغداد (195/2 ـ 197)، وسير أعلام النبلاء (96/15 ـ 98)، ووفيات الأعيان (323/4 ـ 329).

(2) [سورة آل عمران: 50].

وأما الثاني: فهو خلاف ما نطق به القرآن في قوله تعالى: (وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ) [1] الآية.

وقال السهيلي: إنما ذكر موسى دون عيسى وإن كان أقرب، لأنه تنصّر والنصارى لا تقول عيسى نبي يأتيه جبريل بل هو عندهم أقنوم من الثلاثة، لكن ورقة آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ورآه في المنام وعليه ثياب بيض[2].

ورده بعض الشيوخ بأن من يعتقد معتقد النصارى لا يشك في كفره ولا في أنه أجهل الجاهلين، وكان كسائر المشركين عبدة الأصنام أو أشر، فكيف يستفتى أو يلجأ إليه في المسائل الدقيقة لا سيما ما سئل عنه من أمر النبوءة، وإنما اختص عن قريش حتى لجأ إليه في السؤال لكونه على الحق، كمن أخذ عنه من الرهبان الذين لم يبدلوا ولم يغيروا.

وأيضا فمعتقد ما ذكر من النصارى منكر لنبوة موسى عليه السلام، إذ لو آمن بموسى لآمن بعيسى ما هو عليه، ولو قال السهيلي: إنما خص موسى ليسأل عن ذلك أهل العلم، فيوافقون عليه ويصدقون ورقة فتقوم له الحجة في فتواه، بخلاف النصارى فإنهم إنما يعلمون لعيسى الألوهية لا النبوّة لكان أبين.

ونقول: لو قال عيسى لتوهم أنه يعتقد فيه اعتقاد المبطلين، وهذا ضد ما ذهب إليه السهيلي.

---

(1) [سورة البقرة: 113].

(2) انظر الروض الأنف (400/1).

أو نقول: لو أحال على عيسى لذهب بعض من يسمعه من الجهلة إلى من ضل من النصارى، فيسأله عن الناموس المنزل على عيسى؛ لأن ورقة لم يفسّره فيفسره له باتحاد أقنوم العلم به، لا سيما يسمونه روح القدس وجبريل عليه السلام يسمى بذلك أيضا، فيعتقد السائل ذلك أيضا في محمد عليه الصلاة والسلام، فيكفر من حيث لا يشعر مستندا لفتوى ورقة الذي هو من أهل العلم في ذلك الوقت، فعدل إلى موسى عليه السلام الذي لم يعتقد فيه من آمن به إلا أنه نبي مرسل نزل عليه جبريل بالوحي كغيره من الأنبياء، ورغبة المفتي أبدأ فيما يصدق فتواه أو يقويها.

وهذا الاعتذار كله باعتبار ما ورد في الصحيح، وإلا فعند الزبير بن بكار من طريق عبد اللـه بن معاذ عن الزهري أنه قال: «**نَامُوسُ عِيسَى**»[1]، إلا أن عبد اللـه بن معاذ ضعيف.

وفي دلائل أبي نعيم[2] بإسناد حسن إلى هشام بن عروة عن أبيه «**أَنَّ خَدِيجَةَ أَتَتْ وَرَقَةَ أَوَّلاً فَأَخْبَرَتْهُ الخَبَرَ، فَقَالَ: إِنْ صَدَقْتِ إِنَّهُ لَيَأْتِيهِ نَامُوسُ عِيسَى الذِي لاَ يُعَلِّمُهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ أَبْنَاءَهُمْ**»[3].

---

(1) انظر السيرة الحلبية (389/1).

(2) هو أبو نعيم أحمد بن عبد اللـه بن أحمد الأصبهاني الشافعي، الإمام الحافظ الثقة، له مصنفات عدة منها حلية الأولياء وطبقة الأصفياء، ومعرفة الصحابة، والمستخرج على البخاري ومسلم، وغيرها، توفي سنة 336هـ ـ 947م. له ترجمة في: تذكرة الحفاظ للذهبي (1092/3)، وشذرات الذهب (245/3)، وطبقات الشافعية للأسنوي (264/2).

(3) لم نقف عليه في دلائل النبوة، وقد رواه ابن عساكر بهذا الإسناد في تاريخ دمشق (6/63).

فعلى هذا فورقة تارة يقول: موسى، وتارة يقول: عيسى[1].

قال بعض الشيوخ: ووجه ذلك إن صح أنها هي أخبرته بمجيء الملك ومخاطبته إياه على الجملة، ولم تذكر له ما أمره به من القراءة، فاقتصر لها على عيسى، وهو صلى الله عليه وسلم أخبره على التفصيل، فرأى ورقة ما أفاده مطلع السورة الكريمة من العلوم الكثيرة التي لا تكاد تحتوي على علم التوراة، وتكون براعة استهلال من الإشارة إلى إثبات الربوبية والوحدانية، لقيام الدليل العقلي على تفرده جل وعلا بخلق العالم كله، وإلى جميع الكائنات الغائبة الحاضرة المعلم كتبها بالقلم، فهذه إشارة إلى كل معلوم، فلا يقصر إجمال هذا المطلع وحده عن علم التوراة.

ويؤيد هذا ما قيل: إن أول سورة الأنعام أول التوراة، وهو قريب من معنى اقرأ، فرأى ورقة أنه بما أنزل إلى موسى أقوى مناسبة فارتقى عن التشبيه به، والجواب على قدر السؤال، ولكل مقام مقال.

---

(1) ورد هذا النص عند الحافظ ابن حجر في فتح الباري (26/1) حيث قال: «على أنه قد ورد عند الزبير بن بكار من طريق عبد الله بن معاذ عن الزهري في هذه القصة أن ورقة قال: «ناموس عيسى»، والأصح ما تقدم، وعبد الله بن معاذ ضعيف، نعم في دلائل النبوة لأبي نعيم بإسناد حسن إلى هشام بن عروة عن أبيه في هذه القصة أن خديجة أَوَّلًا أتت ابن عمها ورقة فأخبرته الخبر فقال: «لئن كنت صدقتني إنه ليأتيه ناموس عيسى الذي لا يعلمه بنو إسرائيل أبناءهم»، فعلى هذا فكان ورقة يقول تارة ناموس عيسى وتارة ناموس موسى، فعند إخبار خديجة له بالقصة قال لها: ناموس عيسى بحسب ما هو فيه من النصرانية، وعند إخبار النبي ﷺ له قال له: ناموس موسى للمناسبة التي قدمناها، وكل صحيح، والله سبحانه وتعالى أعلم».

قوله: «**لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا**» رواية الجماعة فيه بنصب العين، ورواه الأصيلي[1] بالرفع على أصل خبر ليت. ووجه النصب بأنه على لغة من ينصب بها الجزأين.

وزعم ابن سلام[2] أنها لغة رؤبة[3] وقومه.

وخرّجه الخطابي[4] على أنه خبر كان مضمرة، أي: يا ليتني كنت فيها جذعا.

---

(1) هو أبو محمد عبد الله بن إبراهيم بن محمد الفقيه الأموي المعروف بالأصيلي، رحل إلى المشرق فلقي شيوخ إفريقية ومصر والحجاز والعراق، ألف كتاب الدلائل إلى أمهات المسائل، شرح به كتاب الموطأ، قال القاضي عياض: كان من حفاظ مذهب مالك ومن العالمين بالحديث وعلله ورجاله، ولي قضاء سرقسطة، وتوفي رحمه الله سنة 392هـ ـ 1002م. له ترجمة في: جذوة المقتبس (400/1 ـ 401)، وسير أعلام النبلاء (560/16)، والديباج (ص: 224 ـ 225)، وشجرة النور (100/1 ـ 101).

(2) هو أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي الأزدي الخزاعي بالولاء، من أئمة الحديث واللغة والأدب والفقه، وكان ورعا تقيا ثقة حسن الرواية، من مؤلفاته: الغريب المصنف في اللغة، وغريب الحديث، والأمثال، والأموال، توفي رحمه الله بمكة سنة 224هـ ـ 838م. له ترجمة في: تاريخ بغداد (403/12 ـ 416)، والسير (490/10 ـ 509)، وبغية الوعاة (253/2 ـ 254).

(3) هو أبو الجحّاف رُؤْبَة بن العجّاج التّميميّ السّعديّ، الراجز، من أعراب البصرة، وكان رأسا في اللغة، أكثر اللغويون من الاحتجاج بشعره، توفّي رحمه الله سنة (145هـ ـ 762م. له ترجمة في: سير أعلام النبلاء (162/6)، ووفيات الأعيان (303/2)، وشذرات الذهب (223/1).

(4) هو أبو سليمان الخطّابي أحمد بن محمد بن إبراهيم بن خطّاب البستي، العلامة المحقق الفقيه الأديب، من تصانيفه معالم السنن في شرح كتاب السنن لأبي داود، وغريب الحديث، وغير ذلك، سكن بنيسابور مدّة، وتوفي رحمه الله ببست من بلاد كابل في ربيع الآخر سنة 388هـ ـ 998م.له ترجمة في: سير أعلام النبلاء (23/17 ـ 28)، ووفيات الأعيان (214/2 ـ 216)،

وبعضهم على أنه حال.

ثم منهم من قدّر الخبر محذوفا، أي: يا ليتني فيها حي أو موجود في حال فتوة كالجذع، وكأنه عنده حال من الضمير المرفوع بالخبر المحذوف.

وقال السهيلي: الخبر (فيها) وعامل الحال ما تعلق به من الاستقرار.

ومن رفعه علق به فيها لما فيه من معنى الفعل، كأنه قال: ليتني شاب فيها.

قال بعضهم: ويجوز مع نصبه حالان يعمل فيه معنى التمني، ومع رفعه أن يكون المجرور حالا من الضمير فيه، لأنه بمعنى المشتق أو مشتق حقيقة، لأنه يقال: أجذع يجذع، وإن كان القياس مجذع.

وخرجه بعضهم على أنه منصوب بفعل محذوف، أي: جعلت فيها جذعا.

وقال بعضهم: المشهور عند أهل اللغة والحديث كأبي عبيد[1] وغيره جذع بسكون الأخير[2]، ووجهه أنه مثل أو كالمثل من شعر مقيد القافية وشطره الآخر:

وطبقات الشافعية للإسنوي (223/1).

(1) هو أبو عبيد أحمد بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن القاشاني الهَرَوِي، اللغوي المشهور، كان من العلماء الكبار، أخذ عن أبي منصور الأزهري وهو أشهر تلاميذه وأكثرهم مصاحبة له، أخذ عنه علم اللغة، وعن أبي سليمان الخطابي، اشتهر بكتابه الغريبين، وهو تفسير غريب القرآن الكريم والحديث الشريف، توفي رحمه الله في رجب سنة 401هـ ـ 1011م. له ترجمة في: سير أعلام النبلاء (146/17 ـ 147)، ووفيات الأعيان (90/1 ـ 96)، وطبقات الشافعية للإسنوي (291/2)، وشذرات الذهب (161/3).

(2) انظر الغريبين في القرآن والحديث (324/1).

[منهوك الرجز]

.... أَخُـــــبُّ فِيهَـــــا وأَضَــــعْ[1]

والضمير في قوله: «**فِيهَا**» يرجع للنبوءة أو الدعوة أو الدولة، أي: في زمن أحدها.

ومركب هذا الكلام تشبيه بليغ، وليس باستعارة على المختار، لاشتماله على ذكر طرفي التشبيه.

ويحتمل أن يكون استعارة وأحد طرفي التشبيه الشاب، ولم يذكر إلا موصوفه المذكور، فكأنه يقول ليتني أكون شابا، فحذف الشاب واستعار له لفظ الجذع، وهو من استعارة محسوس لمحسوس، والجامع عقلي، إذ المراد ما يترتب عليهما في الكفاية والإغناء.

وعبر بعضهم عن هذا الجامع بالقوة على النصرة.

وبعضهم جعله تشبيها، وجعل وجه الشبه الأولية، أي: ليتني أول من يجيئك ويؤمن بك كالجذع الذي هو أول الأسنان، ولا خفاء بما فيه من الضعف.

وهو مع ذلك يقتضي أن ورقة لم يؤمن به في الحال، وإنما تمنى أن يكون أول مؤمن به عند إظهار دعوته، وكأنه عند هذا القائل لم يحقق نبوته وإنما ظهر له منها مخائلها، وسياق الحديث.

---

(1) البيت لدريد بن الصمة، وتمامه:

يَـا لَيْتَنِـي فِيهَـا جَـذَعْ أَخُـبُّ فيهـا وأَضَـعْ

انظر الأغاني (73/9)، ولسان العرب (396/8).

وقوله: «**هَذَا النَّامُوسُ**» بصيغة التحقيـق ولم يقـل كالنـاموس، ورؤيـا رسـول اللـــه صـلى اللـه عليه وسلم له في النوم يقتضي ذلك كله أنه من آمن به في الحال.

قال بعض الشيوخ: وعندي أن في تخصيص الجذع بالذكر مـع كونـه يـدل عـلى أول زمـن القوة لطيفة أخرى، وهي تمني أن يكون عند ظهور الحـرب في سـن الجاهـل الغمـر الـذي لم يجرب الأمور بتحنيك السن إياه فيقرأ العواقب فيقتصر في الإقدام، بـل يقـذف بنفسـه فيهـا كما يفعل الجاهل، لأن في تلك الحرب إحدى الحسنيين، غنيمة أو شهادة». انتهى

قلت: كمال النصرة إنما يكون باجتماع الأمرين:

ـ حسن المعرفة بالأمور لطول التجربة وممارسة الخطوب.

ـ وقوة الجسد لتقع النكاية بها في الحروب.

ورُبَّ رأي أنفع من جيش عظـيم كـل مـنهم قـوي شـجاع، وقـد حصـل لورقـة الأول مـن الأمرين، فتمنى أن يحصل له الثاني منهما.

وقد علمت أن الثواب يتفاوت بقدر تفاوت مراتب النصرة، وورقـة مـن العلـماء، فَحَمْـلُ أمنيته على هذا الوجه الذي أشرنا إليه أولى من حملها على ما أشار إليـه هـذا الشـيخ رحمـه اللـه، واللـه سبحانه أعلم.

قوله: «**لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ!**

فَقَالَ النَّبِيُّ[1] صلى اللـه عليه وسلم : **أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟**».

---

(1) في صحيح البخاري: فقال رسول اللـه...إلخ.

كأنه رأى ما تمناه أولا مستحيلا عادة، فانتقل إلى تمني ما هو داخل في الإمكان وهو استمرار الحياة على حالته التي هو عليها وجعله متمنى، وإن كان الأصل في المتمنى أن يكون غير ممكن، لأن الإنسان عرضة للموت في كل وقت ولا سيما مثله ممن طعن في السن، فكأنه انتقل من تمني النصرة إلى تمني أدناها وهو الرأي والتحريض على اتباعه.

ولما كان ما تمنى له الشباب أمرا عظيما كالقتال ونحوه أبهمه بقوله: «**فِيهَا**»، للتنبيه على عظمه، وللتبقية على رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا يحزنه.

ولما كان الإخراج أقل مفسدة عينه ليوطن نفسه عليه فتخف مشقته عند الوقوع، كما قرر في قوله تعالى: (سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ) [1] و (سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ)[2] و(لَتُبْلَوُنَّ)[3].

قال السهيلي: «**إن ورقة قال لرسول الله** صلى الله عليه وسلم **: لَتُكَذَّبَنّهْ. فَلَمْ يَقُلْ لَهُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ شَيْئًا.**

(1) من قوله تعالى: (سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) [سورة البقرة: 142].

(2) من قوله تعالى: (قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ) [سورة الفتح: 16].

(3) من قوله تعالى: (لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا) [سورة آل عمران: 186]

ثُمّ قَالَ: وَلَتُؤْذَيَنّهْ.

فَلَمْ يَقُلْ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ شَيْئًا.

ثُمّ قَالَ: وَلَتُخْرَجَنّهْ.

فَقَالَ: أَوَ مُخْرِجِيّ هُمْ؟».

ففي هذا دليل على حب الوطن وشدة مفارقته على النفس.

وأيضا فإنه حَرَمُ اللـه وجوار بيته، وبلدة أبيه إسماعيل، فلذلك تحركت نفسه عند ذكر الخروج منه ما لم يتحرك قبل ذلك، فقال: «**أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟**».

والموضع الدال على تحرك النفس وتحرقها إدخال الواو بعد ألف الاستفهام مع اختصاص الإخراج بالسؤال عنه، وذلك أن الواو ترد إلى الكلام المتقدم وتشعر المخاطب بالاستفهام على جهة الإنكار أو التفجع لكلامه أو التألم منه»[1]، انتهى.

وقال غيره: يحتمل أن يكون الاستفهام للتعجب استعظاما وفرحا وسرورا بما أكرمه اللـه به من الإذاية في ذاته بالإخراج من وطنه الذي هو شقيق الموت.

أو استعظاما لظلم قومه له بمثل ذلك وهو قد أتاهم بما هو شرف لهم وعز في الدنيا والآخرة.

قال: وخرج من هذا أنه إنما راجعه في الإخراج تصريحه له بخلاف ما أبهمه أولا بقوله: «**فِيهَا**»، فإنه لم يدر ما هو حتى يشق عليه فيراجعه فيه.

قلت: وهذا إنما يستقيم على ما في البخاري من عدم التصريح بغير الإخراج،

(1) انظر الروض الأنف للسهيلي (411/1) باب حب الرسول صلى اللـه عليه وسلم وطنه.

والذي في السيرة أنه صرح له قبل ذلك بقوله: لتكذبنّه ولتخرجنّه، ولم يراجعه في واحد منها كما حكيناه عن السهيلي قبل هذا، حتى قال: ولتخرجنّه قال: أو مخرجي هم؟ وأيضا لو كان الاستعظام لمباشرة قومه له بالإخراج لكان حق ضمير «هم» أن يلي همزة الاستفهام فيقول: أوهم مخرجي؟

قوله: «**إِذْ يُخْرِجُكَ**» أصل «**إِذْ**» أن تكون للماضي في الزمان، واستعملت هنا للمستقبل من الزمان، لأن الإخراج الذي هو مظروفها مستقبل، وذلك المجاز والتأويل عند الجمهور لا بالاشتراك خلافا لابن مالك، فإنه قال: هو استعمال صحيح غفل عن التنبيه إليه أكثر النحويين.

قال: ومن عكسه وهو وقوع إِذَا موقع إِذْ (وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ)[1]، وقوله (إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ)[2] الآية، (وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا)[3].

(1) من قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللـه ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللـه يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللـه بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) [سورة آل عمران/156].

(2) من قوله تعالى: (لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللـه غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ) [سورة التوبة: 91 ـ 92].

(3) من قوله تعالى: (وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللـه خَيْرٌ مِنَ اللـهوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللـه خَيْرُ الرَّازِقِينَ) [سورة الجمعة: 11].

وقال أبو حيان[1]: الصحيح أن لا تقع إحداهما موقع الأخرى.

ورأي بعض النحويين واختاره ابن مالك وقوعه.

وقال الشيخ الإمام سراج الدين أبو حفص عمر البُلْقِينِي[2]رحمه الله ردا على ابن مالك في نسبته الغفلة إلى أكثر النحويين: إنهم لم يغفلوه، بل منعوه وأوّلوا ما ورد من المستقبل بصيغة الماضي بتحقق وقوعه، وما ورد من عكسه باستحضار البديعة. قال بعض الشيوخ: **والتحقيق** أن ابن مالك ارتكب مجازا أو غيره كذلك ومجاز غيره أولى.

---

(1) هو أثير الدين محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي النفزي، النحوي اللغوي الأديب المفسر المحدث المقرئ المؤرخ، أخذ عن أبي جعفر بن الطبّاع، وابن الصائغ، وأبي جعفر اللبلبي وغيرهم، وأخذ عنه أكابر عصره كالشيخ تقي الدين السبكي، وابن عقيل، وابن مكتوم وغيرهم، تولى تدريس التفسير والإقراء، من تصانيفه البحر المحيط في التفسير، إتحاف الأريب بما في القرآن من غريب، التذييل والتكميل في شرح التسهيل، توفي سنة 745هـ ـ 1344م. انظر: بغية الوعاة للسيوطي (280/1)، وشذرات الذهب لابن العماد (145/6)، وغاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري (285/2).

(2) هو أبو حفص، سراج الدين شيخ الإسلام عمر بن رسلان بن نصير بن صالح الكناني العسقلاني البلقيني الأصل المصري، الإمام المجتهد الحافظ، انتهت إليه رئاسة المذهب الشافعي والإفتاء وولي قضاء الشام سنة 769هـ ـ 1367هـ من مصنفاته في الفقه التدريب لم يتمه، وتصحيح المنهاج، وفي الحديث محاسن الاصطلاح، وشرح البخاري، توفي رحمه الله بالقاهرة سنة 805هـ ـ 1403م. له ترجمة في: تذكرة الحفاظ (245/1 ـ 246)، والضوء اللامع (85/6)، وشذرات الذهب (511/7).

قلت: إذا كان رأي ابن مالك أن هذا الاستعمال مجاز، فالظاهر أن علاقة المجاز عنـده مـا قاله الجمهور، فلا يكون قوله خلافا لهم حتى يقال مجاز غيره أولى من مجازه، والـلـه أعلم.

وقوله صلى الـلـه عليه وسلم : «**أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟**» تقدم معنى هذا الاستفهام.

والواو بعد الهمزة مفتوحة عطفت الجملة بعدها على ما قبلهـا، وكـان حقهـا أن تتقـدم على الهمزة، لكن قدمت عليها الهمزة لأنها لها الصدر.

قال بعض الشيوخ: «في جعل هذه الجملة معطوفة على ما قبلها نظر؛ لأن مـا قبلهـا مـن كلام ورقة، وهي من كلام النبي صلى الـلـه عليه وسلم، فكيف يتعاطفـان؟ الـلــهم إلا عنـد من لا يشترط كون الكلام من ناطق واحد فنعم.

ثم ليس في كلام ورقة ما يصـلح أن تعطـف عليـه، إلا قولـه: «**يُخْرِجُـكَ**»، إلا أنـه يقـتضي تقييد الإنكار بوقت المعطوف عليه وليس كذلك، وإنما المنكر وقوع الإخراج في كل زمان، فلم يبق إلا أن يكون المعطوف عليه مقدرا بين الهمزة والواو على رأي الزمخشري، أو قبل الهمـزة على رأي الأكثر، أي: يؤذونني وهم مخرجي، أو يتعاطون ظلمي أو هم مخرجي». انتهى

قلت: لم يرد من قال: عطفت الجملة على ما قبلها، إلا أنها عطفت عـلى جملـة محذوفـة قبلها دل عليها الكلام السابق لا سيما على ما في السيرة مـن قـول ورقـة: لتؤذينـه ولتكذبنـه، فكأنه صلى الـلـه عليه وسلم يقول: يـؤذونني ويكـذّبونني أَوَ مخرجـي هـم مـع ذلـك، كأنـه صلوات الـلـه وسلامه عليه استعظم جمعهم هذه الخصلة إلى الخصلتين السابقتين.

ثم في رده العطف على يخرجك باقتضائه التقييد بزمانها نظر، لعدم تعيين زمان الإخـراج في كلام ورقة، بل هو تابع لوقوع الإخراج، وإنما الصحيح في الـرد أن يقـال: لـو عطـف عـلى يخرجك المذكور في كلام ورقة إن سوغنا الكلام من نـاطقين أو المحـذوف لدلالتـه عليـه إن لم نسوغه، لكان عطف الشيء على نفسه، إذ هذا الإخراج المستعظم هـو نفـس الإخـراج الـذي أخبر به ورقة، فيصير المعنـى: أيخرجنـي قـومي ومخرجـي هـم؟ أو: يخرجنـي قـومي وأهـم مخرجي، والـلـه أعلم.

وأصل مخرجي: «مخرجون» جمع «مخرج»، فحذفت النون للإضافة فيبقـى «مُخْرِجُـوِيَ» فأبدلت الواو ياء السكون قبل الباء وأدغمت فيها، وأبدلت ضمة الجيم كسرة لتناسب اليـاء، وهو خبر مقدم علامة رفع الواو المدعمة وهو مبتدأ تأخَّرَ.

ولا يصح أن يكـون «مخرجـي» مبتـدأ وهـم فاعـل سـد مسـد الخـبر، وإن اعتمـد عـلى الاستفهام لاتصال ضمير الجمع إلا عند من يقول: أكلوني البراغيـث، ومنـه في الجمـع المـكسر (خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ)[1].

وقـال في شـواهد التوضـيح[2]: يمتنـع ذلـك لـئلا يخـبر بالمعرفـة عـن النكـرة بـلا

---

(1) من قوله تعالى: (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ) [سورة القمر: 6 ـ 7].

(2) شواهد التوضيح للشيخ جمال الدين محمد بـن عبـد الـلـه بـن مالـك النحـوي المتـوفى سـنة 672هــ ـ 1274م, صـاحب الألفيـة في النحـو، وهـو شرح لمشـكل إعـراب صـحيح البخـاري سـماه: شـواهد التوضـيح والتصـحيح لمشكلات الجامع الصحيح.

مصحح؛ لأن اسم الفاعل المستقبل لا يتعرف بالإضافة.

وفي قوله: «بلا مصحح» غفلة، لأنه بعد الاستفهام ووصف وجواب.

وياء «مخرجي» مشددة مفتوحة طلبا للتخفيف وجاء كسرها، قرأ حمزة «مُصْرِخِيِّ»[1]، وأنكرها بعضهم لأن الكسر ويائين كخمس كسرات.

وقال السهيلي: «مخرجي» خبر مقدّم، ولو خفّف لم يجز كونه خبرا عن «هم»، لأنه لا يخبر عن الجمع بالمفرد، ولا كونه مبتدأ و«هم» فاعل، إذ لا يكون الفاعل ضميرا منفصلا إلا جنب عامله، لا يقال: قام أنا بل قمت، ولو كان ظاهرا جاز نحو: أو مخرجي قومي، وهذا فصل بديع قل من تنبه له[2].

قال بعض الشيوخ: وهذا رأي من يمنع إغناء الضمير المنفصل عن الخبر، ويشترط كونه ظاهرا كابن الحاجب وغيره، وظاهر كلام ابن [أبي] الربيع[3] وابن عصفور[4] أنه جائز عند البصريين، واستشهد ابن مالك على وروده في الاستفهام

(1) في قوله تعالى: (مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ) [سورة إبراهيم: 22].

(2) الروض الأنف (400/1) بتصرف.

(3) هو أبو الحسين عبد الله بن أحمد بن عبيد الله بن محمد بن عبيد الله الإمام ابن أبي الربيع القرشي الأموي العثماني الإشبيلي، إمام النحو في زمانه، من مصنفاته شرح كتاب سيبويه، وشرح الجمل في عشر مجلدات، والإفصاح في شرح الإيضاح، توفي رحمه الله سنة 688هـ ـ 1289م. له ترجمة في: بغية الوعاة (125/2 ـ 126)، والأعلام (191/4).

(4) هو أبو الحسن علي بن مؤمن بن محمد الحضرمي الإشبيلي، المعروف بابن عصفور، حامل لواء العربية بالأندلس في عصره، من تصانيفه الممتع في التصريف، وشرح ديوان المتنبي، وشرح

بقوله:

أَمُنْجِــزٌ أَنْــتُمُ وَعــدًا وَثِقْــتُ بِــهِ أَم اقتَفَيــتُمْ جَمِيعًــا وعــدَ عُــرْقُــوبِ

وفي النفي بقوله:[الطويل]

خَلِــيلَيَّ مَــا وَافٍ بِعَهْــدِيَ أَنْــتُمَا إِذَا لَــمْ تَكُونَــا لِي عَــلَى مَــنْ أقَــاطِعُ

قوله: «**قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ**».

عدل ورقة عن أن يقول لـه: هـم معـادوك، وإن كـان أخـف مـن الـتصريح لـه بـالإخراج باحتماله أن لا ينتهي إليه، لئلا يتوهم كون ذلك خاصا به فتكثر مشقته وهـو قـد فهـم عنـه استعظام أمر الإخراج، فلم يصرح له بعد باسمه وكنّـى عنـه بالمعـاداة، لأنهـا تـؤول غالبـا إلى فرار أحد الفريقين من صاحبه، ثم تـأتي بهـا عـلى وجـه عـام لـه ولغـيره ليكـون أخـف عليـه باحتمال تخصيصها بمن عداه قياس ورقة إيـاه عـلى غـيره في ذلـك قـد يخطـئ. ثـم إن نجـح العموم ولم يخطئ القياسُ، ففي شمول المشقة له ولغيره ممن هـو عـلى طريقتـه تسـلية لـه تخفف عنه بعض المشقة، ومثله (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ)[1]، (إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ ...) الآية[2].

الجمل للزجاجي في النحو، توفي رحمه اللـه بتـونس سـنة 663هــ ـ 1265م. لـه ترجمـة في: تـاريخ الإسـلام (49/288 ـ 291)، وبغية الوعاة (210/2)، وفوات الوفيات (109/3 ـ 110).

(1) [سورة الأحقاف: 35].

(2) من قوله تعالى: (إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللــه الَّـذِينَ آمَنُـوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللـه لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ) [سورة آل عمران: 140].

وقالت الخنساء[1]: [الوافر]

وَلَــوْلَا كَــثْرَةُ البَــاكِينَ حَــوْلِي ... عَــلَى إِخْــوَانِهِمْ لَقَتَلْــتُ نَــفْسِي

وَمَــا يَبْكُــونَ مِثْــلَ أَخِــي وَلَكِــنْ ... أُسَــلِّي الــنَّفْسَ عَنْــهُ بالتَّــأَسِّي

وتسليط الأسى على الأسى للتخفيف من دائه دواء مشهور قديما وحديثا.

وكذلك قوله: «**عُودِيَ**» ولم يقل أخرج، وفي قوله: «**لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ**»، دليل على أن الرسول لا يكون إلا رجلا، ولم يثبت أن امرأة أرسلت واختلف هل نبئت أم لا؟

قوله: «**وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا**»، وفي السيرة: «**إِنْ أُدْرِكْ ذَلِكَ اليَوْمَ**»[2].

قال السهيلي:[3] والقياس ماضي الصحيح، لأن ورقة سابق بالوجود، والسابق هو الذي يدركه من يأتي بعده كما جاء: «**أَشْقَى النَّاسِ مَنْ أَدْرَكَتْهُ السَّاعَةُ وَهُوَ حَيٌّ**»[4].

---

(1) هي الخنساء الشاعرة، تماضر بنت عمرو بن الشريد السلمية، قدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم مع قومها فأسلمت معهم، شهدت حرب القادسية مع أبنائها الأربعة فجعلت تحرضهم على الثبات حتى استشهدوا جميعاً فقالت: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، توفيت رضي الله عنها سنة 24هـ ـ 645م. لها ترجمة في: الإصابة (613/7 ـ 616).

(2) انظر: الروض الأنف للسهيلي (400/1).

(3) في الروض الأنف (400/1).

(4) أخرجه القضاعي في الشهاب (207/1 رقم: 313)، والديلمي (365/2 رقم: 3630) عن عبد الله بن جراد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «الشَّقِيُّ كُلُّ الشَّقِيِّ مَنْ أَدْرَكَتْهُ السَّاعَةُ حَيّاً لَمْ يَمُتْ». قال المناوي في فيض القدير (177/): «حسن غريب»، وقال الألباني في السلسلة الضعيفة (262/8 رقم: 3760): «موضوع».

قال: ورواية ابن إسحاق[1] أيضا لها وجه لأن المعنى: إن أرى ذلك اليوم، فسمى رؤيته إدراكا، وفي التنزيل (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ)[2]، أي: لا تراه على أحد القولين.

وقوله: «**مُؤَزَّرًا**» من الأزر وهو القوة والعون، أي: إن يدركني يوم حاجتك إلى نصري أنصرك نصرا مؤزرا، أي مقوى منه ما يمكنه من عدة أو عدد، أو همة أو دعاء إن لم يكن غيرها.

قوله: «**ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ**»، أي لم ينشب في شيء من الأمور، وكأن هذه اللفظة عبارة عن السرعة والعجلة، قاله ابن بطال[3].

وعبر بعضهم عن معناه بأن قال: أي: لم يتعلق بأمر يشتغل به بعد مخاطبته هذه لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن مات رحمه الله تعالى.

قال: وهذه حقيقة هذا اللفظ، وهي والله أعلم غير مرادة منه، وإنما هو كناية عن قرب موته من هذه الفتيا والمخاطبة. **وظهر أن في الكلام حذف شيئين:**

ـ **أحدهما:** بعد «**يَنْشَب**»، أي في شيء.

ـ **والثاني:** قبل «**أَنْ**»، أي إلى أن توفي.

---

(1) هو أبو بكر محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي بالولاء المدني، الإمام الحافظ مصنف المغازي، توفي رحمه الله سنة 151هـ ـ 768م. له ترجمة في: الجرح والتعديل (191/7 ـ 194)، وتذكرة الحفاظ (130/1) وسير أعلام النبلاء (33/7 ـ 55)، ووفيات الأعيان (276/4 ـ 277).

(2) [سورة الأنعام: 103].

(3) في شرح البخاري (52/1).

ويحتمل تقدير الجار لام علة، أي: لم ينشب في شيء لأجل موته، وهو أظهر في الدلالة على السرعة، وإن كان كالأول أيضا يدل عليها من حيث إنه لو اتسعت مدة تأخير الموت لاشتغل بشيء عادة.

قلت: وبهذا تعلم أنه لا يمتنع إرادة هذا المعنى مع لازمه الذي هو سرعة الموت على ما تقرر في الكناية من البيان، ويكون المراد بالشيء المقدر بعد ينشب الشيء الذي يشتغل به من انفسحت مدة حياته، والشيء المعين من نصره صلى الله عليه وسلم وإشاعة ما لديه فيه من العلم لكل شيء حتى يدخل فيه الأكل والشرب والنوم والكلام ونحو ذلك، وكان التخصيص بما ذكرناه متبادرا للقرائن الحالية والمقالية، والثاني أظهر لدلالة السياق.

فإن قلت: ما بال الجار الداخل على أن حذف احتماله الحرفين، والنحويون يمنعون حذفه عند اللبس.

أجاب عنه بعض الشيوخ بأنه: إنما يمتنع مع تباين الحرفين المحتملين القصد بالكلام، أما كونهما مقصودين مع الاختلاف فلا، ولذا قالوه في (وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ)[1] مع احتمال عن، أو في لكونهما مقصودي الحكم في الآية.

قلت: حذف الجار في الحديث أقوى منه في الآية؛ لأن مآل الحرفين المقدرين في

(1) من قوله تعالى: (وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ الله يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ الله كَانَ بِهِ عَلِيمًا) [سورة النساء: 127]

الحديث إلى معنى واحد وهو الدلالة على سرعة الموت، ومآلهما في الآية إلى معنيين متنافيين، لكن سوغ الحذف صحة القصد إلى كل منهما على البدل فتكثر الفائدة بالحذف. وفسر بعضهم ينشب ـ بفتح الشين مضارع نشيب بكسرها ـ يلبث، وبعضهم يمكث.

قال بعض الشيوخ: فإن «**تُوُفِّيَ**» على هذين التفسيرين بدل اشتمال، ولا يصح معهما كونها مجرورة بحرف الانتهاء لفساد المعنى، إذ لا يقال: لم يلبث إلى موته بل لبث إليه، ويصحان مع التعليل .

قلت: لا يتعيّن البدل على هذين التفسيرين، بل يصح أن يكون «**أَنْ تُوُفِّيَ**» فاعلا لـ «**يَنْشَبْ**» عليهما، والمعنى لم يمكث أو لم يلبث توفيه بعد هذه المخاطبة، أي: بل عاجلته الوفاة.

قوله: «**وَفَتَرَ الْوَحْيُ**»، الظاهر أن هذه الجملة معطوفة على جملة «**ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ**» ومعناها تأخر نزول الوحي وبطؤَ على النبي صلى الله عليه وسلم عن المدة التي نزل فيها (بِاسْمِ رَبِّكَ)، وإنما لم تقل عائشة رضي الله عنها وانقطع لأنه عاد، ويصح أيضا عطف جملة «**فَتَرَ**» على «**تُوُفِّيَ**».

قال بعضهم: «وفيه نظر على الغاية، لأنه يقتضي نزول الوحي المقدر شيئا معينا فيصح، أي: لم ينشب في شيء من نصر رسول الله صلى الله عليه وسلم لفتور الوحي المانع من إظهار النبوءة، إذ لم يؤمر به بعد، فلم يحتج إلى نصره لفقد سببه، هذا إن جعلت الواو للجمع، وإن جعلتها للترتيب صح العطف على «**تُوُفِّيَ**» على الانتهاء، وفي صحته على التعليل نظرا»، انتهى.

قلت: يصح عطف «**فَتَرَ**» على «**تُوُفِّيَ**» على الانتهاء، والواو للجميع، ويندفع نظره بأن يكون المراد بفترة الوحي ظهورها لا أصل الفترة الذي كان من حين نزول (اقْرَأْ)، ودل على أن أصل الفترة من حين نزل جبريل عليه السلام بسورة (اقْرَأْ)التعبير بـ«**لَمْ يَنْشَبْ**» الدال على سرعة ظهور الفترة بعد مخاطبة ورقة، ولا تظهر إلا بعد زيادة تأخر جبريل عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وسلم على الوقت المرجو، فلو كان ظهور هذه الفترة بعد مجيء جبريل ثانيا مخاطبة ورقة للنبي صلى الله عليه وسلم، لم يكن سريع الحصول بعدها، والله أعلم.

قالوا: وأمد هذه الفترة ثلاث سنين.

وقال السهيلي: «قد جاء بعض الأحاديث المسندة أنها كانت سنتين ونصف سنة، ومن هنا يتفق ما قاله أنس بن مالك أن مكثه بمكة كان عشر سنين، وقول ابن عباس[1] ثلاث عشرة سنة، وكان قد ابتدئ بالرؤيا الصادقة ستة أشهر.

ـ فمن عدّ مدة الفترة وأضاف إليها الأشهر الستة كانت كما قال ابن عباس.

ـ ومن عدّها من حين حمي الوحي وتتابع كانت عشر سنين.

ــ ووجه آخر في الجمع بين القولين أيضا وهو أن الشعبي قال: «وَكَّلَ إِسْرَافِيلَ

(1) هو الصحابي عبد الله بن عباس ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولد قبل الهجرة بثلاث سنين، كان من أعيان علماء الصحابة، ومن أعلمهم بتفسير القرآن الكريم، بلغت مروياته 1660 حديث، ارتحل إليه طلاب العلم وازدحموا على مجلسه، توفي رضي الله عنه بالطائف سنة 68هـ ـ 687م. له ترجمة في: التاريخ الكبير للبخاري (3/5)، وطبقات ابن سعد (365/2)، والإصابة لابن حجر (141/4).

بِنُبُوّةِ مُحَمّدٍ صلى اللـه عليه وسلم ثَلَاثَ سِنِينَ ثُمّ جَاءَهُ جِبْرِيلُ بِالْقُرْآنِ»، وقد قدمنا هذا الحديث، ورواه أبو عمر في كتاب الاستيعاب.

وإذا صح أيضا فهو وجه الجمع بين الحديثين، واللـه أعلم»[1]، انتهى.

قال بعضهم: وليس معنى الفترة عدم مجيء جبريل عليه السلام إلى النبي صلى اللـه عليه وسلم، بل تأخر نزول القرآن فقط.

وَرُدَّ بأنه لو كان يأتيه جبريل لما حزن رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم حزا غدا منه مرارا كي يتردى من شواهق الجبال كما صرح به في التعبير والتفسير[2].

لا يقال: قول جبريل له عند همه بإلقاء نفسه وهو بين السماء والأرض: «**أَنْتَ رَسُولُ اللـه وَأَنَا جِبْرِيلُ**»[3]، يدل على أنه كان يأتيه.

لأنا نقول: كان ذلك قريبا من انتهاء الفترة، على أن ظهوره له على تلك الصفة من التخلق في الهواء لا يتأنس به ذلك التأنس، واللـه أعلم.

وليس في قوله: «**حَتَّى إِذَا طَالَ عَلَيْهِ أَمَدُ الفَتْرَةِ غَدَا لِمِثْلِ ذَلِكَ**»[4] ما يدل على بعده من الانتهاء، لأن هذا الطول الثاني يكون باليوم ونحوه، لانتهاء مدة الصبر وشدة الاشتياق إلى اللقاء بالوعد، لا سيما وظهور جبريل له في الهواء من غير أن

---

(1) الروض الأنف (420/1).

(2) أي: صرح به البخاري في صحيحه في كتاب التعبير وكتاب التفسير.

(3) انظر السيرة النبوية لابن كثير (403/1)، وسلسلة الأحاديث الضعيفة (454/10 رقم: 4858).

(4) أخرجه البخاري [كتاب التعبير/باب أول ما بدئ به رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة]، رقم 6982. بلفظ: «حَتَّى إِذَا طَالَتْ عَلَيْهِ فَتْرَةُ الْوَحْيِ غَدَا لِمِثْلِ ذَلِكَ».

يجتمع معه مما يذكر عليه العهود السابقة ويهيج عليه الشوق العظيم، ولم يحصل له المقصود له من الاجتماع معه وإنهاء أشهى شيء عنده وألذّه وهو كلام مالكه وحبيبه جل وعلا، وإنعاش روحه بقوة الأرواح وهو العلم النافع.

وأبرع ما يكون الشوقُ يوما إذا دَنت الخيامُ من الخيامِ

هم أرضعوني ثدي الوصل حافلة فكيف يحسُن منها حال مُنفطم

وأما قبل ظهور جبريل عليه السلام له صلى الله عليه وسلم ووعده له بالاجتماع بما اقتضاه قوله: «**أَنْتَ رَسُولُ الله**»[1]، فقد وطن نفسه على طول مدة الصبر، فلهذا صح أن تكون حينئذ أكثر، وقد استبعد لوط عليه السلام نزول الهلاك بقومه مع أن الملائكة في بيته وقالوا له: إنا نزلنا لإهلاكهم، حتى قالوا له: (إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ)[2]، فالشديد الشوق إلى الشيء يستبعد وقوعه وقرب زمانه، ولهذا قالوا: «سَنَةُ الوصل سِنَةٌ، وسِنَةُ الهجر سَنَةٌ».

قال بعض الشيوخ: وحق لمن فتح عليه في مبادئ العلم بالله وصفاته والعلم بكيفية خلق الإنسان وخلق العالم كله علوه وسفله، وكيفية تعليم علم ما كان وما هو كائن إلى غير نهاية في لحظة، ثم قطع عنه ذلك مدة ثلاث سنين أن يتفطر كبده ويفنى حزنا، فضلا عن الإلقاء بنفسه من شواهق الجبال.

وقد يقال: إن مما أبقى رسول الله صلى الله عليه وسلم والله أعلم مع هذا

---

(1) سبق تخريجه.

(2) [سورة هود: 81].

الحزن العظيم تأنسه بما حفظ من قوله تعالى: (وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ)[1] فيـدين في خلـده أن الكـريم إذا ابتدأ بالإفضال لا يليق به الإهمال، فكيف بالأكرم الذي علم بالقلم.

تنبيه

حكمة فترة الوحي هذه المدة يحتمل ـ والـلـه أعلم ـ أن يكون لما أريـد الـتصريح للنبـي صلى الـلـه عليه وسلم بالبعث إلى الخلق والأمر بالإنذار في المرة الثانية، ولهذا أنزل فيهـا (يَـا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ) [2].

وكان هذا أشق عليه بكثير مما استعظمه أولا من الغط بغار حراء، أخر عنـه الـوحي مـع ما ذاق من عظيم لذاته حتى كمل اشتياقه إليه واستسهل كل مشقة دون نيله، إذ أعظم مـا يخافه الإنسان ذهاب حياته، وقد استسهل ذلك صلوات الـلـه وسلامه عليه في جنب مـا ذاق من لذة الوحي والتقريب بالمعرفة إلى حضرة الجلال الذي لا يملك الصبر فوقـه، ولا تسـتطيع الروح أن تتأخر في الجسد عن ذلك الكمال، فلهذا كان صلى الـلـه عليه وسـلم يهـم لمـا بعـد عنه الاجتماع بالملأ الأعلى المنهين إليه روح روحه، وهو كلام حبيبه ومالكه الرب المنعم المـولى أن يلقي بنفسه من شـواهق الجبـال اسـتعجالا للقـاء الرفيـق الأعـلى، ورؤيـة ذلـك الجـمال العـديم المثـال، وصـار روحـه الكـريم ينشـد بلسـان الحـال الـذي هـو أفصـح مـن لسـان

(1) من قوله تعالى: (اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ)[سورة العلق: 3 ـ 4]

(2) [سورة المدثر: 1 ـ 2].

المقال[1]: [الطويل]

هَـوايَ مـع الرَّكْـبِ اليَمَانِـينَ مُصْـعِدٌ   جَنِيـــبٌ وجُـــثْماني بِمَكَّـــةَ مُوثَـــقُ

وقد يحمله على ذلك صلى اللـه عليه وسلم ما ألقاه إليه جبريل عليه السلام في السـورة الأولى من قوله جلا وعلا (إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ) [2]، وفهم أن ذلك بعد الموت، فكان يسـتعجل ذلك اللقاء الشريف، ولهذا تبدى له حينئذ جبريل وصرح له المقصود فقال: أنت رسول اللـه الملكِ المعبودِ، أي ليس بينك وبين لقاء الملك الحبيب إلا أداء رسالته، فترى مـا لم يعـط لأحـد من بعيد أو قريب، ولهذا لما نزل قوله تعالى: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي) [3] بكى أبو بكر رضي اللـه عنه وفهم أن النبي صلى اللـه عليه وسلم تقبض روحه.

ولعـل تـأخير جبريـل عليـه السـلام عنـه صـلى اللـــه عليـه وسـلم بعـد أن صرح لـه بالرسـالة، لـيرى هـل يسـليه بعـض التسـلي عـما هـو فيـه مـن عظـيم الاشـتياق إدراك مـا في الرسـالة إلى جميـع النـاس وجـوه المشـاق، فـما نقـص ذلـك مـن شـوقه بـل عظـم وزاد؛ لأن ذلـك الـتصريح حقـق لـه كـريم منزلتـه عنـد مـولاه، إذ جعلـه واسـطة بينـه وبـين

---

(1) البيت لجعفر بن عُلْبَة الحارثي، من أبيات قالها وهو مسجون. انظر معاهـدة التنصيص عـلى شـواهد التلخيص (120/1).

(2) [سورة العلق: 8].

(3) من قوله تعالى: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا) [سورة المائدة: 3].

العبد، فصار يستعجل أمر الرسالة استعجال الوسائل ويتلذذ بما فيها من المشقات، لأن بالفراغ منها يتصل بغاية المراد.

إنْ كان سَفْكُ دَمي أقْصَى مُرادِهِمُ ... فَمَا غَلَتْ نظرةٌ مِنهُم بِسَفْكِ دَمِي

وقال آخر:

أَعَاذِلَتِي عَلَى إِتْعَابِ نَفْسِي ... وَرَعْيِي فِي السُّرَى رَوْضَ السُّهَادِ

إِذا شَامَ الفَتَى بَرْقَ المَعَالِي ... فَأَهْوَنُ فَائِتٍ طِيْبُ الرُّقَادِ

فلما كمل استعداده صلى الله عليه وسلم لحمل أعباء رسالة مولاه المقدم المؤخر جاءه جبريل عليه السلام منهيا إليه قول مولاه جل وعلا: (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ)[1].

قلت: وهذا الذي قررته في حكمة تأخر الوحي شيء ظهر لي بحسب الحال، وهو غير بعيد المناسبة، والله أعلم في المقال.

وفي معنى ما أشرت إليه من انزعاج الروح عن الخروج عن الجسد شوقا على ما من أحوال المحبين ما أنشده الشيخ صالح القطب الغوث الجامع أبو مدين:

فقل للذي ينهى عن الوجد أهله ... إذ لم تذق معنا شراب الهوى دعنا

إذا اهتزت الأرواح شوقا إلى اللقا ... إذا ترقص الأشباح يا جاهل المعنا

أما تنظر الطير المقفص يا فتى ... إذا ذكر الأوطان حن إلى المغنا

فيفرح بالتغريد ما بفؤاده ... فتضطرب الأعضاء بالحس والمعنا

(1) [سورة المدثر: 1 ـ 3].

ويــرقص في الأقفــاص شــوقا إلى اللقــا فيهتـــز أربـــاب العقـــول إذا غنـــا

كـــذالك أرواح المحبـــين يـــا فتـــى تهـــزم الأشـــواق للعـــالم الأســـنا

أتلزمهـــا بالصـــبر وهـــي مشـــوقة فهـل يسـتطيع الصبر مـن شـاهد المعنـا

فيــا حــادي العشــاق واحــد قائمــا وزمــزم لنــا باســم الحبيــب وروّحنــا

وصـــن سرنـــا في ســـكرنا في جســـودنا وإن أنكــرت عينــاك شــيئا فســامحنا

فإنـــا إذا طبنـــا وطابـــت[1] عقولنـــا وخامرنـــا خمـــر الغـــرام تهتكنـــا

فـــلا تلـــم الســـكران في حـــال ســـكره لقـــد رفـــع التكليـــف في ســـكرنا عنـــا

وقال الشيخ سيدي محمد بن مرزوق رحمه الـلـه ورضي عنه في معنى حكمة فتر الوحي: «كأنه قيل له: إن كانت الغطات الثلاث تشق عليك في جنب ما حصل لك من العلم في لحظة، حتى رجعت إلى التأنس بأهلك «**زَمِّلُونِي**»، فقد أرحتك من مشقات الغطات والشدائد التي لا ينفك التعلم عنها عادة بكل غطة سنة، فاختر لنفسك؛ إما مشقة الغطات مع التعلم، وإما إراحة السنين مع الجهل، (سُنَّةَ الـلـه الَّتِي قَدْ خَلَتْ)[2]، (يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ)[3]، (وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ..) إلى (فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ)[4].

---

(1) في هامش المخطوط: لعله وطاشت

(2) من قوله تعالى: (سُنَّةَ الـلـه الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ الـلـه تَبْدِيلًا) [سورة الفتح: 23].

(3) [سورة مريم: 12].

(4) أي: قولــه تعــالى: (وَكَتَبْنَــا لَــهُ فِي الْأَلْــوَاحِ مِــنْ كُــلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَــةً وَتَفْصِــيلًا لِكُــلِّ شَيْءٍ فَخُــذْهَا بِقُــوَّةٍ)

وفيه إشارة أخرى إلى أن الصَّبر على مشقة التعليم في الزمن اليسير وهو زمن العمر القصير مفض إلى الروح الكثير والنعيم الكبير في دار لا موت فيها ولا تغيير (وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ...) إلى (لُغُوبٌ)[1]، ولما استفاق صلى الله عليه وسلم من روعة الغط الشديد فقد حلاوة العلم التي كانت مع الغط والتهديد، وعلم أو ظن أن الفترة كانت لإراحته من كد التعليم الكديد، استخف ما كان أدركه من المشقة في جنب ما يراه من الهداية والتسديد، ونادى بلسان الحال اشتياقاً إلى العلم واغتباطا، يا ليتني زادني أحاديث وزادني أسواطا، وأما مشقة التعليم التي هي عين التكريم في جنب مشقة ما فات من مناجاة ربي بواسطة معلمي:

إن كان سفك دمي أقصى مرادهم فما غلت نظرة منهم بسفك دم

فوطن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك نفسه على مشقة الوحي، فكان يكرب لنزوله، ويغط غطيط البكر، ويتفصد جبينه عرقا في اليوم الشديد البرد من شدة القول الذي أنزل عليه، وبهذا أجرى الله العادة في التعليم، أن يصبر المتعلم للضرب والضبط في المكتب ابتداء، ثم لذل التعلّم والتغرب والفقر، وترك الملاذ من الطعام والنوم، ولزوم السهر والدوب ليلا ونهارًا على المطالعة، والدرس والتقييد والتدريس والمحبرة إلى المقبرة، ومهما قلق لذلك وفتر فاته منه

[سورة الأعراف: 145].

(1) أي: قوله تعالى: (وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ) [سورة فاطر: 34 ـ 35].

ما لا يدركه مدى الدهر، ومن علم عظم مقدار ما حصل منـه ودراه لازم الصـبر عـلى حفـظ غيره، وحمد عند الصباح سراه»، انتهى.

قلت: ما أشار إليه هذا الشيخ حسن، لا سيما إن كان المراد بقوله صلى اللـه عليه وسلم : «**لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي**»، أي: الهلاك من غط الملك وشدته، وإن كان المختار فيه غير ذلـك مما قدمناه.

إلا أنه إن فهم عظم أمر الغط عليه من قوله صلى اللـه عليه وسلم : «**زَمِّلُـونِي**» فبعيـد لذلك، إنما هو لألم بدني لا مدخل للقلب فيه، وقد قاله أيضا بعد هذا الاشتياق العظيم الـذي كاد أن يهلك به نفسه، حتى نزل قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ)، وما قدمناه نحـن في ذلـك هـو أنسب للمقام، واللـه أعلم.



فهرس الجزء الأول